بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء السادس عشر

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق

الجزء السادس عشر

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

تتمة قصة موسى مع الخضر

﴿قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٧٥) قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (٧٦) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (٧٧) قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (٧٩) وَأَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً (٨٠) فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً (٨١) وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (٨٢)﴾

الإعراب :

﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ قرئ ﴿لَاتَّخَذْتَ﴾ بالتشديد ، وبالتخفيف.

﴿لَاتَّخَذْتَ﴾. وأدخل اللام على الفعل الذي هو جواب ﴿لَوْ﴾.

﴿مِنْ لَدُنِّي﴾ بالتشديد والتخفيف. وكذا ﴿أَنْ يُبْدِلَهُما﴾ بالتشديد والتخفيف.

﴿هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ إضافة الفراق إلى البين إضافة المصدر إلى الظرف على الاتساع.

والإضافة في ﴿بَيْنِكَ﴾ إضافة بين إلى غير متعدد : سوغها تكراره بالعطف بالواو.

﴿غَصْباً﴾ منصوب على المصدر المبين لنوع الأخذ ﴿زَكاةً رُحْماً﴾ منصوبان على التمييز.

﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ مفعول لأجله.

البلاغة :

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ وَأَمَّا الْغُلامُ وَأَمَّا الْجِدارُ﴾ لف ونشر مرتب بعد ذكر ركوب السفينة ، وقتل الغلام ، وبناء الجدار.

﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أي صالحة ، لدلالة ﴿أَعِيبَها﴾ عليه ، وكذا ﴿وَأَمَّا الْغُلامُ﴾ حذف منه لفظ الكافر ، لدلالة قوله تعالى : ﴿فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾.

﴿أَبَواهُ﴾ أي أبوه وأمه ، بطريق التغليب.

﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ استعارة ؛ لأن الإرادة من صفات العقلاء ، وإسنادها إلى الجدار استعارة ومجاز.

﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها﴾ و ﴿فَأَرَدْنا﴾ و ﴿فَأَرادَ رَبُّكَ﴾ : أسند ما ظاهره شر لنفسه ، وأسند الخير إلى الله تعالى ، على سبيل الأدب مع الله تعالى.

المفردات اللغوية :

﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ ..﴾ زاد ﴿لَكَ﴾ هنا على ما تقدم لعدم العذر بعد التنبيه ، ووسما له بقلة الثبات والصبر ، مع سبق التذكير أول مرة ، فاحتاج إلى الإنكار عليه بما هو أشد مرة ثانية ﴿عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها﴾ أي إن سألت صحبتك بعد هذه المرة ﴿فَلا تُصاحِبْنِي﴾ ، أي لا تجعلني صاحبا ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾ أي قد وجدت عذرا من قبلي ، لما خالفتك ثلاث مرات ، في مفارقتك لي.

﴿أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ هي أنطاكية ، كما روي عن ابن عباس ، أو الأبلّة : أبلة بصرة ، أو الناصرة ، والواقع لا دليل يوثق به على صحة تعيين القرية. ﴿اسْتَطْعَما أَهْلَها﴾ طلبا منهم الطعام بضيافة ﴿أَنْ يُضَيِّفُوهُما﴾ أي ينزلوهما أضيافا ، مأخوذ من ضيّفه وقرئ : ﴿يُضَيِّفُوهُما﴾ مأخوذ من أضافه ، أي أنزله ضيفا.

﴿جِداراً﴾ حائطا ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ يداني أو يقرب أن يسقط لميلانه ، فاستعيرت

الإرادة للمشارفة ، كما أستعير لها الهم والعزم ﴿فَأَقامَهُ﴾ الخضر بعمارته ، أو بعمود عمده به ، وقيل : مسحه بيده فقام كما روي عن ابن عباس ، وقيل : نقضه وبناه ، وهو الشائع.

﴿لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ جعلا ، حيث لم يضيفونا ، مع حاجتنا إلى الطعام ، وهو تحريض على أخذ الجعل للارتفاق والانتعاش به ، وتعريض بأنه فضول واشتغال بما لا يعنيه.

﴿قالَ : هذا فِراقُ﴾ أي قال له الخضر : هذا وقت الفراق بيني وبينك ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ قبل فراقي لك ﴿لِمَساكِينَ﴾ عشرة ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ يعملون بها مؤاجرة لها ، طلبا للكسب ﴿وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ﴾ أمامهم الآن ، أو خلفهم إذا رجعوا عليه ، وكان رجوعهم عليه ، واسمه : جلندي بن كركر ، أو منوار بن جلندي الأزدي ، وهو ملك كافر ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة ﴿غَصْباً﴾ من أصحابها ، منصوب على المصدر المبين لنوع الأخذ.

﴿أَنْ يُرْهِقَهُما﴾ أن يغشاهما ﴿طُغْياناً وَكُفْراً﴾ لنعمتهما بعقوقه ، فيلحقهما شرا ، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره ، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر ، أو يصيبهما بالعدوى فيرتدا بإضلاله ، جاء في حديث مسلم : «طبع كافرا ، ولو عاش لأرهقهما ذلك ، لمحبتهما له ، يتبعانه في ذلك» قيل : اسم المقتول : خيسور.

﴿خَيْراً مِنْهُ زَكاةً﴾ أي صلاحا وتقى ﴿وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ أقرب منه رحمة ، وهي البر بوالديه ، فأبدلهما تعالى فتاة تزوجت نبيا ، فولدت نبيا ، فهدى الله تعالى به أمة.

﴿وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما﴾ الكنز : المال المدفون من ذهب وفضة ﴿وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً﴾ كان أبو الغلامين تقيا صالحا ، فأكرمهما الله بصلاحه في أنفسهما وما لهما. قيل : كان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء ، واسمه كاشح ﴿أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما﴾ أي إيناس الرشد ، وكمال الرأي ، قيل : اسمهما : أصرم وصريم ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي مرحومين من ربك ، وهو مفعول لأجله ، عامله : أراد ﴿وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي ما فعلت ما ذكر من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار ، باختياري ، بل بأمر إلهام من الله ﴿ما لَمْ تَسْطِعْ﴾ ، أي تستطع ، يقال : اسطاع واستطاع بمعنى أطاق ، فجمع بين اللغتين.

المناسبة :

الكلام واضح الصلة بما قبله ، فهو في قصة موسى عليه‌السلام مع الخضر الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى النبي ، كما أنه تعالى أعطى موسى بن العلم ما لم يعلّمه الخضر.

وهذا أي قتل الغلام هو الحادث الثاني بعد خرق السفينة الذي

اختبر فيه الخضر صبر موسى ، ولم يصبر ؛ لمخالفته ظاهر شريعته ؛ لأن القتل لا يكون إلا لأجل القصاص بالنفس ، مع أنه قد يكون لسبب آخر.

التفسير والبيان :

﴿قالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ أي قال الخضر لموسى الذي خالف الشرط : ألم أخبرك أنك لا تتمكن من احتمال ما أفعله ، ولن تسكت على ما أقوم به. ويلاحظ أنه زاد هنا لفظ ﴿لَكَ﴾ على ما سبق ؛ لأن سبب العتاب أوضح وأقوى بعد التذكير المتقدم ، وتكرر المخالفة من موسى للعهد أو الشرط الذي التزمه ، وإن كان قتل الغلام الوضيء الجميل الحسن الذي كان يلعب مع الغلمان في قرية أعظم جرما وأقبح من خرق السفينة ، لذا قال موسى : ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾ والنكر أعظم من (الإمر) في القبح. وهذا إشارة إلى أن قتل الغلام أقبح من خرق السفينة ؛ لأن إتلاف النفس أخطر من إتلاف المال.

فاعتذر موسى عليه‌السلام بقوله :

﴿قالَ : إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي ، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾ أي قال موسى للخضر : إن اعترضت على شيء يحدث بعد هذا الفعل ، أو هذه المرة ، فلا تجعلني صاحبا لك ، قد أعذرت إلي مرة بعد مرة ، حيث أكون قد خالفتك إلى الآن مرتين. وهذا كلام نادم شديد الندامة.

روى ابن جرير عن أبيّ بن كعب قال : كان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم إذا ذكر أحدا ، فدعا له ، بدأ بنفسه ، فقال ذات يوم : «رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب ، ولكنه قال : ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها ، فَلا تُصاحِبْنِي ، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾».

والحادث الثالث هو :

﴿فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما﴾ أي فانطلق الخضر وموسى يمشيان بعد المرتين الأوليين ، حتى إذا وصلا إلى قرية ، طلبا من أهلها إطعامهما وسد جوعتهما ، فرفضوا ذلك وأبوا أن يعطوهما ما هو حق واجب عليهم من الضيافة. وهذا إخلال بالمروءة ، واتصاف بالبخل والشح ، وتلك القرية هي أنطاكية.

﴿فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ﴾ أي وجد الخضر وموسى في تلك القرية حائطا آيلا إلى السقوط ، فردّه الخضر كما كان ، جاء في الحديث الصحيح : أنه مسحه بيده فإذا هو قد استقام. وهذا من كراماته.

وإسناد الإرادة هنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة كما تقدم ، فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل ، والانقضاض : هو السقوط ، والأول من أفعال العقلاء والثاني من خواص الجمادات ونحوها.

فعند ذلك قال موسى للخضر :

﴿قالَ : لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ أي قال موسى للخضر : ليتك تطلب أجرة على إقامة الجدار وإصلاحه ، فإنه نظرا لأنهم لم يضيفونا ، كان ينبغي ألا تعمل لهم مجانا ، فأجابه الخضر :

﴿قالَ : هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ أي قال الخضر لموسى عليه‌السلام : هذا الإنكار أو الاعتراض المتكرر سبب الفراق بيننا أو المفرّق بيننا ، بحسب الشرط الذي قبلته على نفسك ، فقد قلت بعد قتل الغلام : ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها ، فَلا تُصاحِبْنِي﴾. وسأخبرك بتفسير وبيان وجه الأفعال التي أنكرتها ، ولم تطق صبرا عليها ، وهي خرق السفينة ،

وقتل الغلام ، وإقامة الجدار. وهذا عتاب ولوم على عدم الصبر. ثم ذكر الخضر سبب ما أقدم عليه من الأمور الثلاثة :

١ - ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها ، وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ أي إن السفينة التي خرقتها لأعيبها ، فكانت مملوكة لضعفاء أيتام ليس لهم شيء ينتفعون به غيرها ، ولا يقدرون على دفع من أراد ظلمهم ، وكانوا يكرون تلك السفينة لركاب البحر ، ويأخذون الأجرة ، فأردت بخرقها ونزع لوح منها أن أعيبها ؛ لأنه كان أمامهم ملك جبار ظالم يستولي على كل سفينة صالحة غير معيبة ، ويغتصبها ظلما وعدوانا دون وجه حق ، فكان عملي حماية لهذه السفينة لأصحابها الضعفاء ، فأنا لم أعمل سوءا ، وإنما ارتكبت أخف الضررين لدفع أعظمهما.

روى ابن جريج عن شعيب الجبائي : «أن اسم ذلك الملك هدد بن بدد» وهو مذكور في التوراة في ذرية العيص بن إسحاق.

ويلاحظ أن المراد بقوله ﴿وَراءَهُمْ﴾ أمامهم ، كقوله تعالى : ﴿مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية ٤٥ / ١٠] وقوله تعالى : ﴿وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾ [الدهر ٧٦ / ٢٧].

٢ - ﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ ، فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً﴾ أي وأما الولد الغلام الذي قتلته ، وكان اسمه شمعون أو حيثور أو حيسون ، فإنه كان كافرا ، وقد أطلعني الله على مستقبله ، وكان أبواه مؤمنين ، فخشينا إذا صار كبيرا أن يحملهما حبه على متابعته في الكفر والوقوع في الظلم والعصيان والمنكرات ؛ لأن حب الولد غريزة. وهذا من قبيل سد الذرائع وفتحها ، فإن كل ما كان وسيلة إلى المصلحة فهو مصلحة.

قال قتادة : قد فرح به أبواه حين ولد ، وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقي

لكان فيه هلاكهما ، فليرض امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب. وصح في الحديث : «لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيرا له» وقال تعالى : ﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة ٢ / ٢١٦].

﴿فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ أي قال الخضر العالم : فأردنا أن يرزقهما الله بدل هذا الولد ولدا خيرا منه دينا وصلاحا وطهارة من الذنوب ، وأقرب رحمة لوالديه ، وعطفا عليهما ، وبرا بهما وشفقة عليهما. ويلاحظ أن الغلام يشمل البالغ والصغير ، ويرى الجمهور أن هذا الغلام لم يكن بالغا ، لذا قال موسى : نفسا زكية أي لم تذنب. وقال الكلبي : كان بالغا.

٣ ـ ﴿وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما ، وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً ، فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما ، وَيَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي وأما الحائط الذي أصلحته ، فكان لولدين صغيرين يتيمين في قرية هي أنطاكية ، وكان تحته كنز ، أي مال جسيم مدفون ، وكان أبوهما وهو الأب السابع رجلا صالحا ، فأراد الله إبقاء ذلك الكنز (وكان مالا) مدفونا حفظا لمالهما ، ولصلاح أبيهما ، فأمرني ربي بإصلاح ذلك الحائط ، إذ لو سقط لاكتشف وأخذ ، وأراد الله أن يبلغ الغلامان كمالهما وتمام نموهما ، ويستخرجا الكنز من ذلك الموضع الذي عليه الجدار ، رحمة لهما ، بصلاح أبيهما. والمراد بالمدينة هي القرية المذكورة سابقا : ﴿حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ وهو دليل على إطلاق القرية على المدينة. والظاهر أن الغلامين كانا صغيرين بقرينة وصفهما باليتم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو داود عن علي : «لا يتم بعد احتلام».

ويلاحظ أنه هنا أسند الإرادة إلى الله تعالى ؛ لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله. وأما في السفينة ، فأسند الفعل إلى الخضر العالم ، فقال تعالى : ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها﴾ كما أن الأدب يقضي إسناد الخير إلى الله ، والشر إلى العباد.

﴿وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ أي إن ما فعلته من الأمور الثلاثة لم يكن باجتهادي ورأيي ، ولكنه بأمر الله وإلهامه ووحيه ، فالإقدام على ذلك كله من الاعتداء على المال والنفس وإصلاح الجدار ، وهو لا يكون إلا بالوحي والنص القاطع.

وذلك المذكور هو تفسير ما ضاق صبرك عنه ، ولم تطق السكوت عنه ، ولم تصبر حتى أبيّن لك السبب والحكمة فيه.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ إن الأحداث الثلاثة التي فعلها الخضر كانت من قبيل اختيار أهون الشرين ، وأخف الضررين ، وتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ ، فهي وإن كانت مستنكرة في الظاهر ، وحقّ لموسى عليه‌السلام إنكارها والاعتراض عليها ، فهي خير في الحقيقة والواقع ، وذلك لا يتسنى لأحد ادعاؤه بغير وحي صريح ، وأحكام العالم والنبي في غير حال الوحي تنبني على ظواهر الأمور ، وفي حال الوحي تنبني على الأسباب الحقيقية الواقعية.

والوحي لا يحصل إلا لنبي أو رسول ، والجمهور كما تقدم على أن الخضر كان نبيا ؛ لأن قوله تعالى : ﴿فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا﴾ يدل على نبوته ؛ لأن بواطن الأفعال لا تكون إلا بوحي ؛ ولأن الإنسان لا يتعلم ولا يتّبع إلا من فوقه ، وليس فوق النبي من ليس بنبي.

ويرى آخرون أن الخضر لم يكن نبيا ، وقد يوجد في المفضول ما ليس في الفاضل. قال بعض العلماء : ولا يجوز أن يقال : كان نبيا ؛ لأن إثبات النبوة

لا يجوز بأخبار الآحاد ، وهذا هو المحقق في كتب العقائد ، والمراد بقوله : ﴿وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ الإلهام وليس الوحي.

٢ ـ إن ترك الضيافة المندوبة شرعا من المستقبح عرفا وعقلا وشرعا ، وقد تصبح أمرا واجبا في حال تعرض الجائع للهلاك ، ولعل موسى والخضر عليهما‌السلام كانا في حالة جوع شديد ، وإن لم يبلغا حد الهلاك ، مما سوغ الغضب الشديد لدى موسى.

٣ ـ قوله تعالى : ﴿اسْتَطْعَما أَهْلَها﴾ دليل على جواز سؤال القوت ، وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يسد جوعه ، والاستطعام : سؤال الطعام ، والمراد به هنا سؤال الضيافة ؛ لقوله تعالى : ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما﴾ فاستحق أهل القرية لذلك أن يذمّوا ، وينسبوا إلى اللوم والبخل ، كما وصفهم بذلك نبينا عليه الصلاة والسلام. قال قتادة في هذه الآية : شر القرى التي لا تضيف الضيف ، ولا تعرف لابن السبيل حقه. ويظهر من ذلك أن الضيافة كانت عليهم واجبة ، وأن الخضر وموسى إنما سألا ما وجب لهما من الضيافة. وهذا هو الأليق بحال الأنبياء ، ومنصب الفضلاء والأولياء.

٤ ـ إن ضرر المشقة الحاصلة بسبب الإقدام على إقامة جدار أقل من سقوطه ؛ لأنه لو سقط لضاع مال تلك الأيتام ، وفيه ضرر شديد.

وتسوية الجدار تمت بإعادة بنائه ، ذكر ابن الأنباري عن ابن عباس عن أبي بكر عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنه «قرأ : ﴿فَوَجَدا فِيها جِداراً ، يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ ثم قال : فهدمه ثم قعد يبنيه» وهذا الحديث صحيح السند ؛ جار مجرى التفسير للقرآن. وقال سعيد بن جبير : مسحه بيده وأقامه ، فقام. قال القرطبي : وهذا القول هو الصحيح ، وهو الأشبه بفعل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بل والأولياء.

٥ . واجب على الإنسان ألا يتعرض للجلوس تحت جدار مائل يخاف سقوطه ، بل يسرع في المشي إذا كان مارّا عليه ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : «إذا مرّ أحدكم بطربال [(١)] مائل ، فليسرع المشي» ذكره ابن الأثير في النهاية.

٦ . كرامات الأولياء ثابتة ، بدليل الأخبار الثابتة والآيات المتواترة ، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد أو الفاسق الحائد ، فالآيات : مثل ما أخبر الله تعالى في حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية في الصيف ، والصيفية في الشتاء ، وما ظهر على يدها حيث أمرت النخلة وكانت يابسة فأثمرت ، وهي ليست بنبية ، ومثل ما ظهر على يد الخضر عليه السلام من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار ، وهذا على رأي من قال : إنه ليس نبيا.

٧ . هل يجوز أن يعلم الوليّ أنه ولي أو لا؟ قولان للعلماء :

أحدهما . أنه لا يجوز ، وأن ما يظهر على يديه يجب أن يلاحظه بحذر وحيطة ، لأنه لا يأمن أن يكون استدراجا له ، ولأنه لو علم أنه وليّ ، لزال عنه الخوف من الله ، وحصل له الأمن من عذابه ، ومن شرط الولي أن يستديم الخوف إلى أن تتنزل عليه الملائكة ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ [فصّلت ٤١ / ٣٠] ولأن الولي : من كان مختوما له بالسعادة ، والعواقب مستورة ، ولا يدري أحد ما يختم له به ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الأصبهاني عن ابن عباس : «وإنما الأعمال بخواتيمها».

القول الثاني . أنه يجوز أن يعلم أنه ولي ؛ إذ لا خلاف أنه يجوز لغيره أن يعلم أنه وليّ الله تعالى ، فجاز له أن يعلم ذلك ، وقد أخبر النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم عن حال العشرة المبشرين بالجنة من أصحابه : أنهم من أهل الجنة ، ولم يكن في ذلك زوال خوفهم ، بل كانوا أكثر تعظيما لله تعالى ، وأشد خوفا وهيبة ، فغيرهم مثلهم.

---

(١) الطربال : القطعة العالية من الجدار ، والصخرة العظيمة المشرفة من الجبل.

٨ ـ لا ينكر أن يكون للولي مال وضيعة (عقارات) يصون بها وجهه وعياله ، وحسبك بالصحابة وأموالهم ، مع ولايتهم وفضلهم ، وهم الحجة على غيرهم.

وأما حديث الترمذي عن ابن مسعود : «لا تتخذوا الضيعة فتركنوا إلى الدنيا» فمحمول على من اتخذها مستكثرا أو متنعما ومتمتعا بزهرتها ، وأما من اتخذها معاشا يصون بها دينه وعياله ، فاتخاذها بهذه النية من أفضل الأعمال ، وهي من أفضل الأموال ؛ قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه أحمد وابن منيع عن عمرو بن العاص : «نعم المال الصالح للرجل الصالح».

٩ ـ تمّ خرق السفينة وتعييبها لحفظها لأصحابها المساكين (المحتاجين المتعيشين بها في البحر) من اغتصاب ملك ظالم عات لكل سفينة صالحة ، وقد احتج الشافعي بهذه الآية على أن حال الفقير في الضر والحاجة أشد من حال المسكين ؛ لأنه تعالى سمّاهم مساكين ، مع أنهم كانوا يملكون تلك السفينة.

١٠ ـ حدث قتل الغلام بسبب كفره حتى لا يتأثر به أبواه ، ويميلا إلى دينه ، بسبب محبتهما الفطرية له ، وقد أبدلهما الله خيرا منه زكاة ، أي دينا وصلاحا ، وأقرب رحما ، أي أقرب رحمة وعطفا وشفقة عليهما.

١١ ـ إن صلاح الآباء يفيد الأبناء حتى الجيل السابع ؛ لأن أب الغلامين كان هو الأب السابع ، كما قال جعفر بن محمد. وقد روي أن الله تعالى يحفظ الصالح في سبعة من ذريته ، وعلى هذا يدل قوله تعالى : ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ ، وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٩٦].

١٢ ـ قوله تعالى : ﴿وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ يقتضي أن الخضر نبي ، وقال جماعة : لم يكن نبيا ، وهو الأصح. واسم الخضر : إيليا بن ملكان بن قالغ بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ، وكنيته أبو العباس ، وكان أبوه ملكا. وأمه كانت بنت فارس ، واسمها ألمى ، ولدته في مغارة.

وذهب الجمهور إلى أن الخضر مات ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : «أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإنه على رأس مائة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد» [1]. وقالت فرقة : إنه حي ؛ لأنه شرب من عين الحياة ، وأنه باق في الأرض ، وأنه يحج البيت.

قيل : إن الخضر لما ذهب يفارق موسى قال له موسى : أوصني ، قال : كن بسّاما ولا تكن ضحّاكا ، ودع اللجاجة ، ولا تمش في غير حاجة ، ولا تعب على الخطائين خطاياهم ، وابك على خطيئتك يا ابن عمران.

١٣ . لا تثبت الأحكام الشرعية إلا بالوحي أو برؤيا الأنبياء ، ولا يصح القول بأن الأحكام تثبت للأولياء بالإلهام في قلوبهم ، وما يغلب عليهم من خواطر ، لصفاء قلوبهم عن الأكدار ، وخلوها عن الأغيار ، وفتتجلى لهم العلوم الإلهية ، والحقائق الربانية ، فيقفون على أسرار الكائنات ، ويعلمون أحكام الجزئيات ، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات ، كما اتفق للخضر ، فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم ، عما كان عند موسى من تلك الفهوم ، واستدلوا بحديث رواه البخاري في التاريخ عن وابصة : «استفت نفسك وإن أفتاك المفتون». قال أبو العباس المالكي : وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب ؛ لأنه إنكار ما علم من الشرائع ؛ فإن الله تعالى قد أجرى سنته ، وأنفذ حكمته ، بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه ، وهم لمبلغون عنه رسالته وكلامه ، المبيّنون شرائعه وأحكامه ، اختارهم لذلك ، وخصهم بما هنالك ، كما قال تعالى : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج ٢٢ / ٧٥] وقال تعالى : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ

---

(١) رواه مسلم عن عبد الله بن عمر ، قال : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته ، فلما سلم قام فقال : «أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإن على رأس مائة سنت منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد».

رِسالَتَهُ﴾ [الأنعام ٦ / ١٢٤] وقال تعالى : **﴿كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً ، فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾** [البقرة ٢ / ٢١٣] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال القرطبي : وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي ، واليقين الضروري ، وإجماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه ، ولا يعرف شيء منها إلا من جهة الرسل ، فمن قال : إن هناك طريقا آخر يعرف بها أمره ونهيه غير الرسل بحيث يستغني عن الرسل فهو كافر ، يقتل ولا يستتاب ، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب. ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام ؛ الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسله ، فلا نبي بعده ولا رسول. وبيان ذلك : أن من قال : يأخذ عن قلبه ، وأن ما يقع فيه هو حكم الله تعالى ، وأنه يعمل بمقتضاه ، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة ، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة ، فإن هذا نحو مما قاله رسول الله عليه الصلاة والسلام : «إن روح القدس نفث في روعي» (١).

١٤ ـ لهذه القصة فوائد أدبية رفيعة مجملها : أن يكون المرء متواضعا غير معجب بعلمه ، وأن يلتزم بعهده ، فلا ينقضه ويعترض على ما لم يعرف سره ، وألا يتعجل النبي ﷺ بطلب إنزال العقوبة بالمشركين الذين كذبوه وأنكروا رسالته واستهزءوا به وبكتابه ، فهم معاقبون هالكون في الدنيا والآخرة.

وتتكرر حوادث القصة مع مرور الزمان ، فلا يعترض الإنسان على موت غلام صغير ، فقد يكون موته خيرا له ولوالديه ، كما أن وقائع الموت المتكررة رحمة بالمجتمع ، فلو لم يمت كبار السن وغيرهم لضاقت الأرض بالمواليد المتجددة يوميا. وخرق السفينة يذكرنا بتسلط الظلمة على أموال الضعفاء ، وهدم الجدار وإقامته لون من ألوان توفير الثروة المنتظرة ليتيم أو ضعيف من الإله الرحيم

---

(١) تفسير القرطبي : ١١ / ٤٠ ـ ٤١. والرّوع : القلب أو العقل. والحديث رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة ، وهو ضعيف.

بعباده الضعفاء ، وفيه مقابلة الإساءة بالإحسان ، فإن أهل القرية الذين أبوا الضيافة قابلهم الخضر بحسن الصنيع ، وهذه سمة الأنبياء والأولياء المقربين من ربهم.

وكل هذه الوقائع من فعل الله تعالى ، وما الخضر وأمثاله إلا وسطاء بين الناس لتنفيذ أمر الله تعالى.

قصة ذي القرنين ويأجوج ومأجوج

﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ
وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً (٨٥) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها
تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ
حُسْناً (٨٦) قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً (٨٧) وَأَمَّا مَنْ
آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٨٩) حَتَّى
إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً (٩٠) كَذلِكَ وَقَدْ
أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٩٢) حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً
لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (٩٣) قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ
فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ

الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (٩٦) فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً (٩٧) قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (٩٩)﴾

الإعراب :

﴿مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي كيف شاء ، فحذف المفعول به.

﴿وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ : ﴿تَغْرُبُ﴾ جملة فعلية ، حال من هاء ﴿وَجَدَها﴾ ووجدها : بمعنى أصابها. وليست هنا بمعنى علم ، فلو كانت كذلك ، لكانت الجملة مفعولا ثانيا لوجد ؛ لأن (وجد) بمعنى (علم) تتعدى إلى مفعولين. ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ ...﴾ أن وصلتها : إما في موضع نصب بفعل مقدر ، كقوله تعالى : ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً﴾ [محمد ٤٧ / ٤] وإما على تقدير مبتدأ وخبره محذوف ، تقديره : إما العذاب واقع منك فيهم ، وإما اتخاذ أمر ذي حسن واقع فيهم ، فحذف الخبر لطول الكلام بالصلة.

﴿فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى جَزاءً﴾ منصوب على المصدر في موضع الحال ، والعامل فيه : له ، أي ثبتت الحسنى له جزاء. وقيل : تمييز منصوب. ومن قرأ بالرفع : (جزاء) جعله مبتدأ ، وله : خبره ، أي فله جزاء الخصال الحسنى ، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه. و ﴿الْحُسْنى﴾ مضاف إليه مجرور. ويجوز جعله بدلا مرفوعا من ﴿جَزاءً﴾ والأصل فيهالتنوين ، وحذفه لالتقاء الساكنين ، كما حذف التنوين من ﴿أَحَدٌ﴾ في قوله تعالى : ﴿قُلْ : هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص ١١٢ / ١ ـ ٢] وقرئ : (جزاء) بالنصب من غير تنوين.

﴿لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً قَوْلاً﴾ مفعول به. وقرئ يفقهون أي يفقهون الناس قولا ، فحذف المفعول الأول ، وبقي ﴿قَوْلاً﴾ المفعول الثاني ، ويجوز حذف أحد المفعولين ؛ لأن هذا فعل متعد.

﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ منصوب بأفرغ عند البصريين لا ب ﴿آتُونِي﴾ لأن ﴿أُفْرِغْ﴾ أقرب من ﴿آتُونِي﴾ فكان إعماله أولى ؛ لأن القرب له أثر في قوة العمل. وذهب الكوفيون إلى أن العامل فيه ﴿آتُونِي﴾. ﴿فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ بمعنى استطاعوا.

﴿قالَ : هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ إنما قال : هذا ، ولم يقل : هذه ؛ لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي ، والتأنيث غير الحقيقي يجوز فيه التذكير ، ولأن الرحمة بمعنى الغفران ، فذكّره حملا على المعنى ، والتذكير بالحمل على المعنى كثير في كلام العرب.

البلاغة :

﴿مَطْلِعَ﴾ و ﴿مَغْرِبَ﴾ بينهما طباق.

﴿حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً﴾ تشبيه بليغ ، أي كالنار في الحرارة وشدة الاحمرار ، حذفت أداة الشبه ووجه التشبيه.

﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ استعارة تبعية في الفعل ﴿يَمُوجُ﴾ شبههم لكثرتهم وتداخل بعضهم في بعض ، بموج البحر المتلاطم.

﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى﴾ بينهما مقابلة.

المفردات اللغوية :

﴿وَيَسْئَلُونَكَ﴾ أي اليهود أو مشركو مكة. ﴿عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ قيل في رأي ضعيف : هو الإسكندر بن فيلبوس اليوناني ، وقيل : الرومي ، ملك فارس والروم ، وقيل : ملك المشرق والمغرب ، لكن الإسكندر كافر ، والأصح أنه رجل صالح حكم الدنيا غير الإسكندر ، وهو على التحقيق الملك الفارسي الصالح «قورش» ولذلك سمي ذا القرنين ، أو لأنه طاف قرني الدنيا شرقها وغربها ، وقيل : كان له قرنان ، أي ضفيرتان ، وقيل : كان لتاجه قرنان ، ويحتمل أنه لقب بذلك لشجاعته ، ومع الاتفاق على إيمانه وصلاحه ، لم يكن على الأصح نبيا. ﴿سَأَتْلُوا﴾ سأقص. ﴿عَلَيْكُمْ مِنْهُ﴾ من حاله. ﴿ذِكْراً﴾ خبرا مذكورا ، وهو القرآن. قيل : ملك الدنيا. مؤمنان : سليمان وذو القرنين ، وكافران : نمروذ وبختنصر.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ سهلنا له السير فيها وجعلناه قادرا على التصرف فيها كيف شاء. ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه. ﴿سَبَباً﴾ طريقا يوصله إلى مراده من علم أو قدرة أو إرادة. ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ طريقا نحو الغرب ، أي فأراد بلوغ المغرب ، فاتبع سببا يوصله إليه. ﴿مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ موضع غروبها. ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي ذات حمأة ، وهي الطين الأسود ، وغروبها في

العين الحمئة هو في مجرد رأي العين ، وإلا فهي أعظم من الدنيا وأكبر ، كما هو معروف.

﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا﴾ عند تلك العين الحمئة. ﴿قَوْماً﴾ كافرين.

﴿قُلْنا : يا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ أي ألهمناه بين أن يعذبهم أو يدعوهم إلى الإيمان. ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ القوم بالقتل على كفرهم. ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾ أي أمرا ذا حسن بالإرشاد وتعليم الشرائع ، وقيل : خيّر بين القتل والأسر.

﴿قالَ﴾ أي ذو القرنين مختارا الدعوة. ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ بالشرك والإصرار على الكفر. ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ نقتله. ﴿نُكْراً﴾ أي منكرا فظيعا ، أو شديدا في النار. ﴿فَلَهُ﴾ في الدارين. ﴿الْحُسْنى﴾ أي الجنة ، أو المثوبة وهو مبتدأ ، خبره ﴿فَلَهُ﴾ وجزاء : حال أي مجزيا بها ، ومن قرأ : فله جزاء الحسنى ، فالإضافة للبيان أي المثوبة الحسنى. ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً﴾ اليسر : السهل الميسر غير الشاق ، أي نأمره بما يسهل عليه. ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾ نحو المشرق. ﴿مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ موضع طلوعها. ﴿تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ﴾ هم الزنج. ﴿مِنْ دُونِها﴾ من دون الشمس. ﴿سِتْراً﴾ من اللباس أو البناء أو السقف ؛ لأن أرضهم لا تتحمل الأبنية ، ولهم سروب يغيبون فيها عند طلوع الشمس ، ويظهرون عند ارتفاعها.

﴿كَذلِكَ﴾ أي إن أمر ذي القرنين كما وصفنا من بلوغه المشرق والمغرب. ﴿وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً﴾ أي وقد اطلعنا علما على ما عند ذي القرنين من الآيات والجند وغيرهما ، مما يتعلق بظواهره وخفاياه ، والمراد أن كثرة ذلك بلغت مبلغا لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير. ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾ طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب ، آخذا من الجنوب إلى الشمال. ﴿بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ بين الجبلين المبني بينهما سدة ، وهما جبلا أرمينية وأذربيجان ، وقيل : جبلان منيفان في أواخر الشمال في منقطع بلاد الترك ، من ورائهما يأجوج ومأجوج. ﴿مِنْ دُونِهِما﴾ أمامهما. ﴿يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ يفهمون قولا إلا بعد بطء ، أي لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه لتلعثمهم.

﴿قالُوا﴾ أي مترجموهم. ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ هما اسمان أعجميان لقبيلتين ، فهما ممنوعان من الصرف ، وهما قبيلتان من ولد يافث بن نوح. يأجوج : هم التتر ، ومأجوج : هم المغول ، وأصلهما من أب واحد يسمى ترك وكانوا يسكنون الجزء الشمالي من آسيا ، وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالي ، وتنتهي غربا ببلاد التركستان. ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرضنا بالنهب والبغي والقتل والتخريب عند خروجهم إلينا ، قيل : كانوا يخرجون في الربيع ، فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ، ولا يابسا إلا احتملوه. وقيل : كانوا يأكلون الناس ، والأصح أن يأجوج ومأجوج قوم جبارون أشداء ، يمر أوائلهم على بحيرة طبرية ، يبعثهم الله في عهد نزول عيسى ، كما جاء في صحيح مسلم وشرحه للنووي ١٨ / ٦٨.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً﴾ جعلا من المال نتبرع به من أموالنا ، وقرئ : (خراجا) والخراج : ما لزم أداؤه. ﴿سَدًّا﴾ حاجزا ، فلا يصلون إلينا. ﴿ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ من المال

وغيره. ﴿خَيْرٌ﴾ من الخرج الذي تجعلونه لي ، فلا حاجة بي إليه ، وأجعل لكم السد تبرعا. ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي بما يتقوى به على المقصود من الآلات والناس التي أطلبها منكم. ﴿رَدْماً﴾ أي حاجزا حصينا ، وهو أكبر من السد وأوثق.

﴿زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ قطعه ، جمع زبرة كغرفة ، وهي القطعة العظيمة أو الكبيرة التي يبنى بها ، فبنى بها وجعل بينها الحطب والفحم. ﴿حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي حتى إذا جعل ما بين جانبي الجبلين من البنيان مساويا لهما في العلو ، والصدفان : واحدها صدف وهو جانب الجبل. ﴿قالَ﴾ للعمال. ﴿انْفُخُوا﴾ بالكيران في زبر الحديد التي وضعت بين الصدفين ، فنفخوا. ﴿حَتَّى إِذا جَعَلَهُ﴾ أي الحديد. ﴿ناراً﴾ كالنار اشتغالا وتوهجا. ﴿قالَ : آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ نحاسا مذابا ، أي صبّ النحاس المذاب على الحديد المحمي ، فالتصق بعضه ببعض ، وسد فجوات الحديد ، وصار جبلا صلدا وشيئا واحدا.

﴿فَمَا اسْطاعُوا﴾ أي يأجوج ومأجوج. ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أن يعلوه بالصعود لارتفاعه وملاسته. ﴿وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ خرقا لصلابته وسمكه. ﴿قالَ : هذا﴾ قال ذو القرنين : هذا السد ، أي بناؤه وتسويته. ﴿رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي أثر رحمة أو نعمة على عباده ؛ لأنه مانع من خروجهم. ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ وقت وعده بقيام الساعة ، أو وقت خروج يأجوج ومأجوج من وراء السد. ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أو دكا مدكوكا مبسوطا مسوى بالأرض. أطلق المصدر وأريد اسم المفعول ، ودكه : بهدمه منهم أو من غيرهم. ﴿وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي وكان وعد ربي بخروجهم وغيره كائنا لا محالة.

﴿وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ﴾ الضمير عائد إلى يأجوج ومأجوج. ﴿يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي وجعلنا بعض يأجوج ومأجوج حين يخرجون مما وراء السد ، يموجون ، بعضهم في بعض ، ويختلطون مع بعضهم لكثرتهم ، مزدحمين في البلاد. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي القرن لقيام الساعة أو البعث.

﴿فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً﴾ أي جمعنا الخلائق في مكان واحد يوم القيامة للحساب والجزاء.

المناسبة :

سبق لدينا عند بيان سبب نزول قصة أصحاب الكهف ، أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا رسول الله ﷺ عن قصة أصحاب الكهف ، وعن قصة ذي القرنين ، وعن الروح ، والمشهور أن السائلين قريش. وذو القرنين : هو الإسكندر اليوناني ، كما ذكر ابن إسحاق ، وقال وهب : هو رومي ، وهو خطأ.

وهذه هي القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة ، وردت بعد قصة أصحاب الكهف ، وقصة صاحبي الجنة ، وقصة أمر الملائكة بالسجود لآدم وإباء إبليس.

التفسير والبيان :

﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ، قُلْ : سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً﴾ أي ويسألك اليهود وقريش يا محمد عن خبر ذي القرنين ، سؤال اختبار وتعنت ، فقل لهم : سأخبركم عنه خبرا مذكورا في القرآن بطريق الوحي المتلو المنزّل علي من ربي.

وقد تقدم أن كفار مكة بعثوا إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ ، فقالوا : سلوه عن رجل طواف في الأرض ، وعن فتية ما يدرى ما صنعوا ، وعن الروح ، فنزلت سورة الكهف.

وذو القرنين : قيل : هو إسكندر بن فيلبس المقدوني اليوناني [١] الذي ملك الدنيا بأسرها قبل الميلاد بنحو ٣٣٠ سنة باني الإسكندرية ، وتلميذ أرسطو الفيلسوف المعلّم الأول ، حارب الفرس ، واستولى على ملك دارا وتزوج ابنته ، ثم سافر إلى الهند وحارب هناك ، ثم حكم مصر ، وإنما سمي ذا القرنين ؛ لأنه بلغ قرن الشمس من مطلعها ، وقرن الشمس من مغربها ، فغلب على أكثر البلاد شرقا وغربا ، قال الشوكاني : «وهذا مشكل ؛ لأنه كان كافرا وتلميذ أرسطو» والظاهر أنه عبد صالح أعطاه الله ملكا واسعا ، وهذا ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى :

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ، وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ أي إنا أعطيناه ملكا عظيما ، ومكّناه فيه من جميع ما يؤتى الملوك من السلطة المطلقة المدعمة بالجنود

---

(١) والصحيح أنه أبو كرب الحميري ، واسمه أبو بكر بن إفريقش ، من الدولة الحميرية (من سنة ١١٥ ق. م ـ ٥٥٢ ب. م) التي يسمّى ملوكها بالتبابعة جمع تبّع. والصحيح المروي عن ابن عباس أن ذا القرنين كان ملكا صالحا ، انظر مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ٨ / ٢١٦.

وآلات الحرب والعلم ، وأقدرناه على التصرف بحيث يصل إلى جميع أنحاء المملكة ، ومهّدنا له من الأسباب والوسائل التي تمكّنه من السيطرة وبسط النفوذ أين شاء وكيف شاء ، فملك مشارق الأرض ومغاربها ، ودانت له البلاد ، وخضعت له ملوك العرب والعجم. فقوله : ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ معناه أعطيناه من كل ما يتعلق بمطلوبه طريقا يتوصل بها إلى ما يريده ، وهذه الطرق هي :

١ ـ ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً ، حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي فاتّبع طريقا من الطرق التي تؤديه إلى مراده ، حتى إذا وصل نهاية الأرض من جهة المغرب التي ليس بعدها إلا البحر المحيط ، وهو بحر الظلمات أو المحيط الأطلسي ، سائرا في بلاد المغرب : تونس والجزائر ومرّاكش ، فوجد الشمس تغرب في عين كثيرة الحمأة ، أي الطين الأسود ، وهذا ما يلاحظ من غياب قرص الشمس على ساحل المحيط المختلط بالرمال والطينة السوداء.

قال الرازي : إنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة ، وأن السماء محيطة بها ، ولا شك أن الشمس في الفلك ، وأيضا قال تعالى : ﴿وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً﴾ ومعلوم أن جلوس قوم في قرب الشمس غير موجود ، وأيضا الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة ، فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض؟ إذا ثبت هذا ، فنقول : تأويل قوله تعالى : ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أن ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب ، ولم يبق بعده شيء من العمارات ، وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهدة مظلمة ، وإن لم تكن كذلك في الحقيقة ، كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر ، إذا لم ير الشط ، وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر ، وهذا هو التأويل الذي ذكره أبو علي الجبائي في تفسيره [1]. ثم ذكر تأويلات أخرى بعيدة القبول.

---

(١) تفسير الرازي : ٢١ / ١٦٦

﴿وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً ، قُلْنا : يا ذَا الْقَرْنَيْنِ : إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾ أي وجد في أقصى المغرب عند تلك العين الحمئة قوما كفّارا وأمة عظيمة من بني آدم ، فقلنا له بالإلهام : أنت مخير فيهم بين أمرين : إما أن تعذبهم بالقتل إن أصروا على الكفر ، وإما أن تحسن إليهم وتصبر عليهم ، بدعوتهم إلى الحق والهدى والرشاد ، وتعليمهم الشرائع والأحكام.

﴿قالَ : أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ، ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً﴾ أي قال ذو القرنين لبعض حاشيته : أما من ظلم نفسه بالإصرار على الشرك ، ولم يقبل دعوتي ، فسنعذبه بالقتل في الدنيا ، ثم يرجع إلى ربه في الآخرة ، فيعذبه عذابا منكرا شنيعا في نار جهنم.

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ، فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى ، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً﴾ أي وأما من آمن بالله ووحدانيته وصدّق دعوتي ، وعمل عملا صالحا مما يقتضيه الإيمان ، فجزاؤه الجنة ، وسنطلب منه أمرا ذا يسر غير صعب ولا شاقّ ، ليرغب في دين الله ، ويحب فعل أوامر الله من صلاة وصيام وزكاة وخراج ونحوها ، فلا نأمره بالصعب الشاق ، ولكن بالسهل الميسر.

٢ ـ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ، حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ، وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً﴾ أي ثم سلك طريقا آخر متجها من مغرب الشمس إلى مشرقها ، حتى إذا وصل الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولا من معمور الأرض ، وجدها تطلع على قوم حفاة عراة ، لا شيء يسترهم من حر الشمس ، لا من اللباس ، ولا من البيوت والمباني والأشجار ، وإنما يعيشون في مفازة لا مأوى فيها ، ولا شجر ، وأكثر معيشتهم من السمك.

﴿كَذلِكَ ، وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً﴾ أي إن أمر ذي القرنين كما وصفنا من قبل من اتباع الأسباب ، حتى بلغ المشرق والمغرب ، وقد علمنا حين ملكناه

ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به ، ونحن مطلعون على جميع أحواله ، لا يخفى علينا منها شيء ، كما في آية أخرى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾ [آل عمران ٣ / ٥] أي فهو كما وصف ، مما لا يعلمه إلا عالم الغيب والشهادة.

٣ ـ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ، حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ أي ثم سلك طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب متجها من الشرق إلى الشمال ، حتى إذا وصل بين الجبلين بين أرمينية وأذربيجان ، وجد من ورائهما قوما من الناس لا يكادون يفهمون كلام غيرهم ، لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم ونباهتهم.

هؤلاء القوم من الصقالبة (السلاف) الذين يسكنون شرقي البحر الأسود ، في سد منيع بين جبلين قرب مدينة «باب الأبواب» أو «دربت» بجبل قوقاف ، اكتشفه السياح في القرن الحاضر.

﴿قالُوا : يا ذَا الْقَرْنَيْنِ ، إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي قال سكان السد بين الجبلين ، وقد فهم كلامهم ذو القرنين بتيسير الله الأسباب التي أعطاها له : أو بواسطة الترجمان : إن يأجوج ومأجوج ـ وهما قبيلتان من الناس ـ يفسدون في أرضنا بالقتل والتخريب والظلم والغشم وسائر وجوه الإفساد.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ أي فهل توافق على أن نعطيك جعلا أو ضريبة من أموالنا ، على أن تجعل بيننا وبينهم حاجزا منيعا يمنعهم من الوصول إلينا؟

ويرى المراغي ـ وليس صحيحا ـ أنهم التتر ، ومأجوج : هم المغول ، وأصلهما

من أب واحد يسمى «ترك» وكانوا يسكنون شمال آسيا ، وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالي ، وغربا إلى الباكستان.

ومنهم الداهية الرحالة «تموجين» الذي لقب نفسه «جنكيز خان أي ملك العالم» الذي ظهر في أوائل القرن السابع الهجري في آسيا الوسطى ، فأخضع الصين الشمالية ، ثم أخضع بجبروته قطب الدين بن أرميلان من السلاجقة ملك خوارزم ، ثم خلفه ابنه «أقطاي» وأغار ابن أخيه «باتو» على بلاد الروس سنة ٧٢٣ هـ. ودمر بولونيا والمجر ، ثم قام مقامه «جالوك» فحارب الروم ، ثم خلفه ابن أخيه «منجو» فقام أخوه «كيلاي» بالاستيلاء على الصين ، وأخوه «هولاكو» بالاستيلاء على البلاد الإسلامية وإسقاط بغداد مقر الخلافة العباسية في عهد الخليفة المستعصم بالله ، أواسط القرن السابع الهجري ٦٥٦ هـ..

وأما السد الذي أقامه ذو القرنين ، وشاهده بعض المؤرخين في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي : فهو وراء جيحون في عمالة «بلخ» واسمه «باب الحديد» قرب «ترمذ» وقد اجتازه تيمور لنك ، ومرّ به «شاه رخ» مع العالم الألماني «سيلد برجر» ووصفه المؤرخ الإسباني «كلافيجو» في رحلته سنة ١٤٠٣ م الذي كان رسولا من ملك «قشتالة» بالأندلس إلى تيمورلنك ، وقال : إن سد «باب الحديد» على الطريق الموصل بين سمرقند والهند [1].

﴿قالَ : ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ، فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾ قال ذو القرنين : ما مكنني فيه ربي ، وآتاني من سعة الملك والقدرة ووفرة المال ، خير من خرجكم ومما تجمعون ، كما قال سليمان عليه‌السلام : ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ ، فَما آتانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ﴾ [النمل ٢٧ / ٣٦].

---

(١) تفسير المراغي : ١٦ / ١٣ ـ ١٥.

ولكن ساعدوني بقوة ، أي بعمل الرجال وآلات البناء ، أجعل بينكم وبينهم سدّا منيعا وحاجزا حصينا ، ثم أوضح المراد من القوة بقوله :

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ، حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ، قالَ : انْفُخُوا ، حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً ، قالَ : آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ أي قدّموا لي قطع الحديد ، فلما جاؤوا بها ، أخذ يبني بها بين الجبلين ، فيضع بعضها على بعض من الأساس ، حتى إذا حاذى بالبنيان رؤوس الجبلين طولا وعرضا ، قال للعمال المساعدين : انفخوا على هذه الزّبر (القطع) بالكيران ، حتى صار كله نارا مشتعلة متوهجة ، ثم صب النحاس المذاب على الحديد المحمّى ، فصار كله كتلة متلاصقة وجبلا صلدا ، وانسدت فجوات الحديد.

﴿فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ، وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ أي ما قدر يأجوج ومأجوج أن يصعدوا فوق السد ، لارتفاعه وملاسته ، وما استطاعوا نقبه من أسفله ، لصلابته وشدّته. وأراح الله منهم الشعوب المجاورة لفسادهم وسوئهم.

وقال ذو القرنين بعد إقامة السد المنيع الحصين :

﴿قالَ : هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ، فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ، وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي قال ذو القرنين لأهل تلك الديار : هذا السد نعمة وأثر من آثار رحمة ربي بهؤلاء القوم أو بالناس ؛ لحيلولته بين يأجوج ومأجوج وبين الفساد في الأرض ، فإذا حل أجل ربي بخروجهم من وراء السد ، جعله ربي مدكوكا منهدما ، مستويا ملصقا بالأرض ، وكان وعد ربي بخرابه وخروج يأجوج ومأجوج وبكل ما وعد به حقا ثابتا لا يتخلف ، كائنا لا محالة.

وتم فعلا خروج جنكيز خان وسلالته ، فعاثوا في الأرض فسادا في الشرق والغرب ، ودمروا معالم الحضارة الإسلامية ، وأسقطوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ ه‍..

أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت : استيقظ النبي ﷺ من نومه ، وهو محمر وجهه ، وهو يقول : «لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شرّ قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلّق ، قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : نعم إذا كثر الخبث».

وقد اتسعت الحلقة حتى كبرت في منتصف القرن السابع الهجري ، بخروج التتر والمغول ، واجتياح البلاد الإسلامية ، وتدمير صرح الخلافة الإسلامية وإسقاطها في بغداد سنة ٦٥٦ هـ . ، كما حكى القرآن في قوله تعالى :

﴿وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ، فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً﴾ أي وتركنا بعض الناس يوم خروج يأجوج ومأجوج يضطرب ويختلط مع بعض آخر ، فيكثر القتل ، وتفسد الزروع ، وتتلف الأموال ، كما أخبر تعالى في آية أخرى : ﴿حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٩٦]. وذلك كله قبل قيام القيامة وقبل النفخ في الصور بزمن غير معلوم لنا. ويرى مفسرون آخرون أن معنى الآية : أنهم يضطربون ويختلطون كموج البحر يوم القيامة ، في أول أيامها. ورجح القرطبي القول بأنه تركنا يأجوج ومأجوج وقت كمال السد يموج بعضهم في بعض.

وإذا اقترب موعد القيامة نفخ في الصور ، وهي النفخة الثانية ، وجمعنا الناس جمعا بأن أحييناهم بعد تلاشي أبدانهم وصيرورتها ترابا ، وأحضرناهم إلى المحشر والحساب جميعا ، كما في آيات أخرى ، منها : ﴿قُلْ : إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة ٥٦ / ٤٩ . ٥٠] ومنها : ﴿وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ [الكهف ١٨ / ٤٧]. والصور كما جاء في الحديث الثابت : قرن ينفخ فيه ، والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستدل بالآيات على ما يأتي :

١ ـ إن ذا القرنين أحد الملوك المؤمنين الذين ملكوا الدنيا وسيطروا على أهلها ، فقد آتاه الله ملكا واسعا ، ومنحه حكمة وهيبة وعلما نافعا ، ونحن لا نقطع بمعرفته بالذات ، ولا نؤمن إلا بالقدر الذي حكاه القرآن المجيد.

روي أن جميع ملوك الدنيا كلها أربعة : مؤمنان وكافران ؛ فالمؤمنان : سليمان بن داود وإسكندر ، والكافران : نمروذ وبختنصّر. قال ابن إسحاق : وكان من خبر ذي القرنين أنه أوتي ما لم يؤت غيره ، فمدت له الأسباب حتى انتهى من البلاد إلى مشارق الأرض ومغاربها ، لا يطأ أرضا إلا سلّط على أهلها ، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخلق.

٢ ـ هيّأ الله تعالى لذي القرنين الأسباب التي توصله إلى مراده ، وأخبرنا عن وقائع ثلاث حدثت له في المغرب والمشرق والوسط. أما في مغرب الشمس فقد وجد قوما كافرين ، فخيّره الله بين أمرين : إما التعذيب بالقتل والإبادة جزاء كفرهم وطغيانهم ، وإما الاستبقاء والإرشاد إلى الحق والهدى وتوحيد الله ، فاختار ذو القرنين الإمهال والدعوة إلى الله ، وأقام فيهم مدة ردع فيها الظالم ، ونصر المظلوم ، وأقام العدل ، ودعا إلى الله تعالى.

وأما في المشرق فوجد قوما بدائيين يعيشون في بقعة رملية لا يستقر فيها بناء ، ولا يستترون فيها بظل شجر أو سقف بيت ، قال الحسن البصري : كانت أرضهم لا جبل فيها ولا شجر ، وكانت لا تحمل البناء ، فإذا طلعت عليهم الشمس نزلوا في الماء ، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا ، فيتراعون كما تتراعى البهائم.

وقال قتادة : لم يكن بينهم وبين الشمس ستر ، كانوا في مكان لا يستقر عليه

بناء ، وهم يكونون في أسراب لهم ، حتى إذا زالت الشمس عنهم رجعوا إلى معايشهم وحروثهم ، يعني لا يستترون منها بكهف جبل ولا بيت يكنهم منها.

والقولان يدلان على ألا مدنية هناك ، وربما يكون منهم من يدخل في الماء ، ومنهم من يدخل في السّرب ، فلا تناقض بين قول الحسن وقتادة.

وهذا تأريخ لحال جماعة بدائية تعيش على صيد الأسماك ، دون ستر ولا مأوى ، مما يستوجب على أهل المدينة شكر النعمة العظمى على العيش بأمان وارتياح تحت ظلال الأشجار وفي ردهات المنازل.

وأما رحلة ذي القرنين إلى الشمال بين الشرق والغرب وبين السدين وهما جبلان بين أرمينية وأذربيجان ، فكانت إنقاذا لشعب مقهور مستضعف يتعرض لغارات القبائل المتوحشة ، فيفسدون في الأرض ، فبنى لهم سدا منيعا حصينا حماهم من تلك الموجات الغازية ، وأعلمهم أن بقاءه مرهون بإرادة الله. وهذا مثل فيه عبرة للدول القوية التي يجب عليها المحافظة على الشعوب الضعيفة ، والإبقاء على ثرواتها دون أخذ شيء منها ، منعا من الاسهام في إضعافها ، وأخذا بيدها نحو الأفضل ، وإغاثتها وإنقاذها من التخلف والضياع ، فإن ذا القرنين ملك الدنيا أبى أن يأخذ شيئا من أموال أولئك الأقوام ، بالرغم من بناء السد الحصين.

٣ ـ قال القرطبي : في هذه الآية (آية السد) دليل على اتخاذ السجون ، وحبس أهل الفساد فيها ، ومنعهم من التصرف لما يريدونه ، ولا يتركون وما هم عليه ، بل يوجعون ضربا ويحبسون ، أو يكفلون ويطلقون كما فعل عمر رضي الله عنه (١).

٤ ـ إن أهل الصلاح والإخلاص يحرصون على إنجاز الأعمال ابتغاء وجه الله ،

---

(١) تفسير القرطبي : ١١ / ٥٩

دون انتظار مقابل أو عوض دنيوي من الناس ، فإن ذا القرنين الذي أيده الله قال : ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي ما بسطه الله تعالى لي من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم ، ولكن أعينوني بقوة الأبدان ، أي بالرجال وعمل الأبدان والآلة التي أبني بها السد (الردم). وهذا بداية النجاح في العمل ، فإن القوم لو جمعوا له خرجا ، لم يعنه أحد ، ولتركوه يبني ، فكان عونهم أسرع في إنجاز العمل وإنجاح المشروع.

٥ ـ تدل الآية أيضا : ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ على أن من واجب الملك أو الحاكم أن يقوم بحماية الخلق في حفظ ديارهم ، وإصلاح ثغورهم ، من أموالهم ، بشروط ثلاثة هي :

الأول ـ ألا يستأثر عليهم بشيء.

الثاني ـ أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم.

الثالث ـ أن يسوّي في العطاء بينهم على قدر منازلهم.

فإذا احتاج الحاكم إلى دعم رعيته ، بذلوا أنفسهم قبل أموالهم ، ويؤخذ بقدر الحاجة من أموالهم ، وتصرف بتدبير ، فهذا ذو القرنين أبى أخذ شيء من أموال القوم ، قائلا : إن الأموال عندي والرجال عندكم ، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى.

وضابط الأمر : أنه لا يحل مال أحد إلا لضرورة تعرض ، فيؤخذ ذلك المال جهرا لا سرا ، وينفق بالعدل لا بالاستئثار ، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد بالأمر [1].

٦ ـ إن الحديد والنحاس من مرتكزات الصناعة الثقيلة قديما وحديثا ، فقد كانا أداة بناء السد المنيع على يد ذي القرنين ، وهما الآن المادة الأساسية في الصناعات المختلفة الحربية والسلمية.

---

(١) تفسير القرطبي : ١١ / ٦٠

جزاء الكفار

﴿وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً (١٠٠) الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (١٠٤) أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً (١٠٥) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً (١٠٦)﴾

الإعراب :

﴿الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ بدل من (الكافرين).

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فاعل ﴿فَحَسِبَ﴾ و ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا﴾ أن وصلتها في موضع نصب ، سدت مسد مفعولي ﴿فَحَسِبَ﴾. و ﴿عِبادِي﴾ مفعول أول ليتخذوا ، و ﴿أَوْلِياءَ﴾ مفعول ثان.

﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً﴾ تمييز منصوب ، وجمع التمييز ولم يفرد : إشارة إلى أنهم خسروا في أعمال متعددة ، لا في عمل واحد.

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ خبر لمحذوف ، أو بدل ، أو منصوب على الذم ﴿ذلِكَ جَزاؤُهُمْ﴾ مبتدأ وخبر ، و ﴿جَهَنَّمُ﴾ عطف بيان للخبر.

البلاغة :

﴿كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ استعارة تمثيلية ، شبه إعراضهم عن الآيات الكونية وعدم النظر فيها ، وبالتالي عدم الإيمان. بمن ألقى غطاء على عينيه ، على سبيل التمثيل.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استفهام يراد به التوبيخ والتقريع.

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ جناس ناقص أو جناس التصحيف لتغير الشكل وبعض الحروف.

المفردات اللغوية :

﴿وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ﴾ أبرزناها وأظهرناها لهم ﴿فِي غِطاءٍ﴾ أي غشاوة محيطة بها ﴿عَنْ ذِكْرِي﴾ أي القرآن ، أو الآيات الموصلة إلى ذكري بتوحيدي وتمجيدي وتعظيمي ﴿وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾ أي لا يقدرون استماعا لذكري وكلامي ، بغضا له ، وصمما عن الحق ، فلا يؤمنوا به ؛ إذ لا استطاعة بهم للسمع. ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أظنوا ، والاستفهام للإنكار ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي﴾ أي الملائكة والمسيح عيسى وعزير ﴿مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ﴾ أربابا ، المعنى : أظنوا أن الاتخاذ المذكور لا يغضبني ، ولا أعاقبهم عليه؟ كلا ﴿أَعْتَدْنا﴾ هيأنا ﴿لِلْكافِرِينَ﴾ من هؤلاء وغيرهم ﴿نُزُلاً﴾ ما يقام للنزيل ، أي هي معدة لهم كالمنزل المعد للضيف. وفيه تهكم.

﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً﴾ جمع التمييز وهو : ﴿أَعْمالاً﴾ لتنوع أعمالهم ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ بطل وضاع عملهم لكفرهم وعجبهم ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾ يظنون ﴿يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ عملا يجازون عليه ، لعجبهم بأنفسهم واعتقادهم أنهم على الحق.

﴿كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ﴾ بالقرآن ، أو بدلائله الدالة فيه على التوحيد والنبوة ﴿وَلِقائِهِ﴾ بالبعث والحساب ، والثواب والعقاب ، أو لقاء عذابه ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ﴾ بطلت بكفرهم ، فلا يثابون عليها ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً﴾ أي لا نجعل لهم قدرا ، وإنما نزدريهم.

﴿ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي الأمر الذي ذكرت من حبوط أعمالهم وغيره ، هو جزاؤهم ﴿هُزُواً﴾ هزؤا ، أي مهزؤا بهما.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى أنه بنفخ الصور يوم القيام ، يقوم الناس من قبورهم ، ثم يجمعون في صعيد واحد للحساب والجزاء ، ذكر أنه حينئذ يظهر

النار للكافرين ، وتخصيصه بالكافرين بشارة للمؤمنين ، ويظن الكافرون أن اتخاذهم معبودات من دون الله ينجيهم من عذابه ، ولكن حبطت أعمالهم وبطلت ، وصارت عديمة النفع بسبب كفرهم.

والحاصل : أن الله تعالى يخبر عما يفعله بالكفار يوم القيامة ، من عرض جهنم عليهم ، أي إبرازها وإظهارها لهم ، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولهم ، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم ، ويخبر تعالى أيضا أنه لا يقام لهم وزن أو قدر ، وأن أعمالهم قد أحبطت وضاعت بسبب كفرهم.

التفسير والبيان :

﴿وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً﴾ أي أظهرنا جهنم وأبرزناها إبرازا واضحا للكفار بالله بعد النفخة الثانية في الصور ، حتى يشاهدوا أهوالها ، يوم جمعنا لهم.

وأوصاف الكفار هي :

١ ـ التعامي وإبعاد السمع عن الحق : ﴿الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي ، وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾ أي إن عذاب جهنم لأولئك الذين تغافلوا وتعاموا عن قبول الهدى واتباع الحق ، ولم ينظروا في آيات الله ولم يتفكروا فيها ، حتى يتوصلوا إلى توحيد الله وتمجيده ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ ، نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً ، فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٣٦] وكانوا لا يطيقون سماع ذكر الله الذي بيّنه لهم في كتابه ، ولا يعقلون عن الله أمره ونهيه.

والخلاصة : إنهم تعاموا عن مشاهدة آي الله بالأبصار ، وأعرضوا عن الأدلة السمعية المذكورة في كتاب الله ، كما قال تعالى : ﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ ، وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج ٢٢ / ٤٦] وقال سبحانه : ﴿وَقالُوا : قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ ، وَفِي آذانِنا وَقْرٌ﴾ [فصلت ٤١ / ٥].

٢ ـ عبادة معبودات من دون الله : ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ﴾ أي أفظن أو اعتقد الذين كفروا بي ، واتخذوا أولياء أي معبودات من دوني كالملائكة والمسيح والشياطين أن ذلك ينفعهم ، أو يدفع عنهم العذاب؟ كلا ، لا تنفعهم تلك المعبودات ، وسيظهر لهم خطؤهم ، كما قال تعالى : ﴿كَلَّا ، سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ ، وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم ١٩ / ٨٢] لذا أخبر تعالى عن عذابهم قائلا :

﴿إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً﴾ أي إنا أعددنا وهيأنا لهؤلاء الكافرين بالله جهنم يوم القيامة منزلا ينزلون به ، كما يعدّ النزل للضيف ، بسبب اتخاذهم أولياء (أي معبودين) من دوني ، وهذا تهكم بهم ، وتخطئة لحساباتهم.

٣ ـ الجهل والغباء : ﴿قُلْ : هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ أي قل لهم يا محمد : هل نخبركم أيها الناس بأشد الناس خسرانا لأعمالهم وخطأ في حسابهم؟ هم الذين ضلوا في الحياة ، فعملوا أعمالا باطلة على غير شريعة مرضية مقبولة ، وأتعبوا أنفسهم فيما لا نفع فيه ، فهلكوا وضيعوا ثمار أعمالهم ، وهم قوم مخدوعون بما هم عليه ، يظنون أنهم محسنون في ذلك العمل ، منتفعون بآثاره ، مقبولون محبوبون. والآية توبيخ شديد لهم ، مفادها الموجز : قل لهؤلاء الكفرة الذين عبدوا غيري : يخيب سعيهم وآمالهم غدا ، فهم الأخسرون أعمالا.

وسبب خسارة أعمالهم هو ما قال الله تعالى :

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ ، فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ ، فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً﴾ أي إن أولئك الأخسرين أعمالا هم الذين جحدوا آيات الله في الدنيا ، وبراهينه التكوينية والتنزيلية الدالة على توحيده ، وكفروا وكذبوا بالبعث والحساب ولقاء الله وما بعده من أمور الآخرة ، فحبطت وبطلت أعمالهم

التي عملوها مما يظنونه حسنا ، كما قال تعالى : ﴿وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ، فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٢٣] فلا يقام وزن لأعمالهم ولا يكون لهم عندنا قدر ، ولا نعبأ بهم ، ولا ثواب على تلك الأعمال ؛ لأنها خالية من الخير.

وحينئذ يكون جزاؤهم العادل على كفرهم ومعاصيهم جهنم ؛ لقوله تعالى : ﴿ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا ، وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً﴾ أي إن ذلك الوعيد والجزاء على أعمالهم الباطلة في نار جهنم إنما هو بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله ، وسخريتهم من رسل الله ومن معجزاتهم ، فإنهم استهزءوا بهم وكذبوهم أشد التكذيب. والهزء : الاستخفاف والسخرية.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يلي :

١ ـ إثبات البعث والحشر ، بجمع الجن والإنس في ساحات القيامة بالنفخة الثانية في الصور.

٢ ـ إبراز جهنم إبرازا ظاهرا واضحا للكفار بعد الحشر بسبب عدم النظر في دلائل الله تعالى على وجوده ووحدانيته ، وعدم إطاقتهم سماع كلام الله تعالى ، فهم بمنزلة العمي والصمّ. وفي هذا نوع من العقاب النفساني المؤلم بسبب ما ينتابهم حينئذ من الغم والكرب العظيم.

٣ ـ يخطئ الكفار حين يظنون أن اتخاذهم معبودين من دون الله ، كعيسى وعزير والملائكة ينفعهم يوم القيامة ، وأن الله لا يعاقبهم على ذلك ، كلا ، فإن الله أعد لهم جهنم منزلا ومأوى.

٤ ـ إن أشد الناس خسارة يوم القيامة هم الذين ضل سعيهم في الدنيا ، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا في عبادة من سوى الله ، فهم الأخسرون أعمالا ، روى

البخاري عن مصعب قال : سألت أبي : ﴿قُلْ : هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً﴾ أهم الحرورية؟ قال : لا ، هم اليهود والنصارى. أما اليهود فكذبوا محمدا ﷺ ، وأما النصارى فكفروا بالجنة ، فقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ، والحرورية (أي الخوارج) الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، وكان سعد يسميهم الفاسقين. والحقيقة أن الآية تشمل جميع أهل الضلال سواء من أهل الكتاب أو من المشركين.

٥ ـ في هذه الآية : ﴿قُلْ : هَلْ نُنَبِّئُكُمْ ..﴾ دلالة على أن من الناس من يعمل العمل ، وهو يظن أنه محسن ، وقد حبط سعيه ، والذي يوجب إحباط السعي : إما فساد الاعتقاد أو المراءاة.

٦ ـ إن سبب خسارة أعمال أهل الضلال هو الكفر بآيات الله وبالبعث ، وهذا يشمل مشركي مكة عبدة الأوثان ، وأهل الكتاب أيضا ؛ لأن إيمان هؤلاء بالبعث مشوّة غير صحيح.

٧ ـ إن عقاب هؤلاء الضالين على أعمالهم الباطلة ثلاثة أنواع : إحباط الأعمال ، وإهدار

الكرامة والاعتبار ، والعذاب في نار جهنم ، فلا ثواب على أعمالهم ولا نفع فيها ، ولا يقيم الله عزوجل لهم وزنا ، ويصلون جهنم ، قال عبيد بن عمير : يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكول الشّروب ، فلا يزن عند الله جناح بعوضة. وهذا في حكم المرفوع ، وقد ثبت معناه في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي‌الله‌عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضة ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً﴾». والمعنى : أنهم لا ثواب لهم ، وأعمالهم مقابلة بالعذاب ، فلا حسنة لهم توزن في موازين القيامة ، ومن لا حسنة له فهو في النار.

٨ ـ كرر الله تعالى ذكر سبب العذاب لهؤلاء الكفار للتأكيد ، فأخبر بأن جزاءهم جهنم بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله وتكذيبهم رسل الله ، وإنكارهم معجزات الأنبياء.

جزاء المؤمنين وسعة معلومات الله وتوحيده

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً (١٠٨) قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً (١٠٩) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠)﴾

الإعراب :

﴿خالِدِينَ فِيها﴾ حال.

﴿لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً﴾ مفعول ﴿لا يَبْغُونَ﴾ أي لا يطلبون ولا يتمنون عنها متحولا.

﴿وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً مَدَداً﴾ تمييز.

﴿أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ أن : المكفوفة بما : باقية على مصدريتها ، والمعنى : يوحى إلي وحدانية الإله.

المفردات اللغوية :

﴿كانَتْ لَهُمْ﴾ فيما سبق من علم الله وحكمه ووعده ﴿الْفِرْدَوْسِ﴾ أعلى درجات الجنان وأوسطها ، والإضافة إليه للبيان ، وأصله : البستان الذي يجمع أشجار الفاكهة ﴿نُزُلاً﴾ منزلا ﴿لا يَبْغُونَ﴾ لا يطلبون ﴿حِوَلاً﴾ تحولا إلى غيرها ؛ إذ لا يجدون أطيب منها ، حتى تنازعهم إليه أنفسهم ﴿لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً﴾ أي لو كان ماء البحر ما يكتب به من الحبر ، وأصله : ما يمدّ به

الشيء ، كالحبر للدواة ﴿لِكَلِماتِ رَبِّي﴾ لكلمات علمه وحكمته ومعلوماته غير المتناهية ، بأن تكتب به ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ في كتابتها ﴿تَنْفَدَ﴾ تفرغ ﴿وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ﴾ أي بمثل البحر ﴿مَدَداً﴾ زيادة فيه ، لنفد ، ولم تفرغ هي.

﴿أَنَا بَشَرٌ﴾ آدمي ﴿يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ﴾ يأمل ويطمع حسن لقائه بالبعث والجزاء.

والرجاء : تأمل شيء سارّ في المستقبل ، و ﴿لِقاءَ رَبِّهِ﴾ هو البعث وتوابعه. ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً﴾ يرتضيه الله ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ﴾ أي بأن يرائي في عبادته ، أو يطلب منه أجرا.

سبب النزول :

نزول الآية (١٠٩):

﴿قُلْ : لَوْ كانَ الْبَحْرُ﴾ : أخرج الحاكم وغيره عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئا نسأل عنه هذا الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح ، فسألوه ، فنزلت : ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ : الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾. وقالت اليهود : أوتينا علما كثيرا ، أوتينا التوراة ، ومن أوتي التوراة ، فقد أوتي خيرا كثيرا ، فنزلت : ﴿قُلْ : لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي﴾ الآية.

نزول الآية (١١٠):

﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُوا﴾ : أخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص عن طاوس قال : قال رجل : يا رسول الله ، إني أقف أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطني ، فلم يرد عليه شيئا ، حتى نزلت هذه الآية : ﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ ، فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً ، وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ خبر مرسل ، وأخرجه الحاكم في المستدرك موصولا عن طاوس عن ابن عباس ، وصححه على شرط الشيخين (البخاري ومسلم).

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كان رجل من المسلمين يقاتل ، وهو يحب أن يرى مكانه ، فأنزل الله : ﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ﴾ الآية.

وأخرج أبو نعيم وابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس قال : قال جندب بن زهير : إذا صلى الرجل ، أو صام ، أو تصدق ، فذكر بخير ارتاح له ، فزاد في ذلك لمقالة الناس له ، فنزلت في ذلك : ﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ﴾ الآية.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى ما أعد للكافرين ، ذكر ما أعد للمؤمنين ، ثم ختم السورة ببيان سعة علم الله واتساع معلوماته وأنها غير متناهية ، والاعلام ببشرية النبي ومماثلته لبقية الناس في ذلك ، وأن علمه مستمد من الوحي الإلهي ، والتنبيه على الوحدانية ، والحض على ما فيه النجاة في الآخرة. قال البيضاوي : والآية جامعة لخلاصة العلم والعمل ، وهما التوحيد والإخلاص في الطاعة ، بالبعد عن الرياء وهو الشرك الأصغر أو الخفي.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن أصداد صفات الكافرين الذين ذكروا قبل المؤمنين ، فيقول :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ أي إن السعداء هم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به ، وعملوا صالح الأعمال من إقامة الفرائض والتطوعات ، ابتغاء رضوان الله ، لهم جنات الفردوس (وهي أعلى الجنة وأوسعها وأفضلها) منزلا معدّا لهم ، مبالغة في إكرامهم. والفردوس في كلام العرب : الشجر الملتف ، والأغلب عليه العنب ، وفي اللغة الرومية : البستان.

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا سألتم الله الجنة ، فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة».

﴿خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً﴾ أي مقيمين ساكنين فيها على الدوام ، لا يختارون عنها غيرها ، ولا يحبون سواها ، ولا يريدون تحولا عنها. أخرج أحمد والترمذي عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال : «إن في الجنة مائة درجة ، كل درجة منها ما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة ، ومن فوقها يكون العرش ، ومنه تفجر أنهار الجنة الأربعة ، فإذا سألتم الله ، فاسألوه الفردوس».

ثم يخبر الله تعالى عن عظمة شأن القرآن وسعة علم الله ، فيقول :

﴿قُلْ : لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي ، لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي ، وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ أي قل أيها الرسول لهم : لو كتبت كلمات علم الله وحكمته ، وكان ماء البحر حبرا للقلم الذي يكتب به ، والقلم يكتب ، لنفد البحر قبل أن يفرغ من كتابة ذلك ، ولو جيء بمثل البحر آخر وآخر وهكذا لنفد أيضا ، ولم تنفد كلمات الله. وهذا دليل على كثرة كلمات الله ، وسعة علم الله وحكمته وأسراره ، بحيث لا تضبطها الأقلام والكتب.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ، وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ، ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٧].

وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك : ﴿قُلْ : لَوْ كانَ الْبَحْرُ ...﴾ الآية ، يقول : لو كانت تلك البحور مدادا لكلمات الله ، والشجر كله أقلام ، لانكسرت الأقلام ، وفني ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء ؛ لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ، ولا يثني عليه كما ينبغي ، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه ، إن ربنا كما يقول ، وفوق ما نقول ، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كجنة من خردل في خلال الأرض كلها.

وروي أن حييّ ين أخطب اليهودي قال : في كتابكم : ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ ثم تقرؤون : ﴿وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي أنه يعترض بوجود التناقض ، فنزلت هذه الآية ، يعني أن ذلك خير كثير ، ولكنه قطرة من بحر كلمات الله.

وبعد بيان كمال كلام الله ، أمر تعالى محمدا ﷺ بالتواضع فقال :

﴿قُلْ : إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ أي قل يا محمد لهم : ما أنا إلا بشر مثلكم في البشرية ، ليس لي صفة الملكية أو الألوهية ، ولا علم لي إلا ما علمني الله ، إلا أن الله تعالى أوحى إلي أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد الصمد ، فلا شريك له في ألوهيته ، فمعبودكم الذي يجب أن تعبدوه هو معبود واحد لا شريك له.

﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ ، فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً ، وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ أي فمن آمن بلقاء الله ، وطمع في ثواب الله على طاعته ، فليتقرب إليه بصالح الأعمال ، وليخلص له العبادة ، وليجتنب الشرك بعبادة الله ، أحدا من مخلوقاته ، سواء أكان شركا ظاهرا كعبادة الأوثان ، أم شركا خفيا كفعل شيء رياء أو سمعة وشهرة ، والرياء : هو الشرك الأصغر ، كما في حديث أخرجه الإمام أحمد عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال : الرياء ، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟».

وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه قال : «أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيري ، فأنا بريء منه ، وهو للذي أشرك».

قال الرازي : أورد تعالى في آخر هذه السورة ما يدل على حصول رؤية الله في ثلاث آيات:

أولها ـ قوله : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ﴾.

وثانيها ـ قوله : ﴿كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾.

وثالثها ـ قوله : ﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ﴾ ولا بيان أقوى من ذلك [1].

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ للمؤمنين بالله ورسله الذين يعملون صالح الأعمال جنات الفردوس التي هي أعلى الجنان ، وهم خالدون دائمون فيها ، لا يطلبون تحويلا عنها إلى غيرها.

٢ ـ لا يستطيع أحد على الإطلاق أن يحصر كلمات الله تعالى وعلمه وحكمته وأسراره ، ولو كانت البحار والمحيطات وأمثالها دون تحديد حبرا يكتب به. قال ابن عباس : قالت اليهود ، لما قال لهم النبي ﷺ : ﴿وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ قالوا : وكيف ، وقد أوتينا التوراة ، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا؟ فنزلت : ﴿قُلْ : لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً ..﴾ الآية.

٣ ـ أمر الله رسوله بالتواضع ، وبإعلان صفة البشرية وأنه لا امتياز له على غيره بشيء من الصفات ، وأنه لا يعلم إلا ما علّمه الله تعالى ، وعلم الله لا يحصى ، إلا أن الله تعالى أمره بأن يبلّغ غيره بأن لا إله إلا الله.

٤ ـ دلت الآية : ﴿قُلْ : إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَ﴾ على مطلوبين :

---

(١) تفسير الرازي : ٢١ / ١٧٧

الأول ـ أن كلمة إنما تفيد الحصر ، وهي قوله : ﴿أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾.

والثاني ـ أن كون الإله تعالى إلها واحدا يمكن إثباته بالأدلة السمعية.

٥ ـ إن المؤمن بربه الذي يرجو رؤيته وثوابه ويخشى عقابه يجب عليه أن يعمل العمل الصالح المرضي لله ، وألا يشرك بالله أحدا في عبادته. قال ابن عباس : نزلت في جندب بن زهير العامري ، قال : يا رسول الله ، إني أعمل العمل لله تعالى ، وأريد به وجه الله تعالى ، إلا أنه إذا اطّلع عليه سرّني ؛ فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم : «إن الله طيّب ، ولا يقبل إلا الطيّب ، ولا يقبل ما شورك فيه» فنزلت الآية. وفي رواية مسلم عن أبي هريرة : «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ..».

والآية عامة في جميع الأعمال من عبادة وجهاد وصدقة وغيرها ، وموضوعها إخلاص العمل لله عزّ وجلّ. سئل الحسن البصري عن الإخلاص والرياء فقال : من الإخلاص أن تحب أن تكتم حسناتك ، ولا تحب أن تكتم سيئاتك ، فإن أظهر الله عليك حسناتك تقول : هذا من فضلك وإحسانك ، وليس هذا من فعلي ولا من صنيعي ، وتذكّر قوله تعالى : ﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً ، وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٦٠] ، يؤتون الإخلاص ، وهم يخافون ألا يقبل منهم. وأما الرياء فطلب حظ النفس من عملها في الدنيا ؛ قيل له : كيف يكون هذا؟ قال : من طلب بعمل بينه وبين الله تعالى سوى وجه الله والدار الآخرة ، فهو رياء.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

سورة مريم

مكية ، وهي ثمان وتسعون آية.

تسميتها :

سميت «سورة مريم» لاشتمالها على قصة حمل السيدة مريم ، وولادتها عيسى عليه السلام ، من غير أب ، وأصداء ذلك الحمل ، وما تبعه ورافق ولادة عيسى من أحداث عجيبة ، من أهمها كلامه وهو طفل في المهد.

مناسبتها لما قبلها :

اشتملت السورتان على قصص عجيبة ، فسورة الكهف اشتملت على قصة أصحاب الكهف ، وطول لبثهم هذه المدة الطويلة ، بلا أكل ولا شرب ، وقصة موسى مع الخضر ، وما فيها من المثيرات ، وقصة ذي القرنين.

وسورة مريم فيها أعجوبتان : قصة ولادة يحيى بن زكريا عليه السلام حال كبر الوالد وعقم الوالدة أي بين شيخ فان وعجوز عاقر ، وقصة ولادة عيسى عليه السلام من غير أب.

ما اشتملت عليه السورة :

موضوع السورة كسائر السور المكية هو إثبات وجود الله ووحدانيته ، وإثبات البعث والجزاء من خلال إيراد قصص جماعة من الأنبياء ، على النحو التالي :

١ ـ افتتحت السورة بقصة ولادة يحيى بن زكريا عليهما السلام ، من أب شيخ كبير وأم عاقر لا تلد ، ولكن بقدرة الله القادر على كل شيء ، خلافا للمعتاد ، وإجابة لدعاء الوالد الصالح ، وأعقبه الخبر بإيتاء يحيي النبوة في حال الصبا ، الآيات [١ ـ ١٥].

٢ ـ أردف ذلك قصة ولادة عيسى من مريم العذراء ، من غير أب ، لتكون دليلا آخر على القدرة الربانية. وقد أثار ذلك موجة من النقد واللوم والتعنيف ، خفف منها كلام عيسى وهو طفل في المهد ، تبرئة لأمه ، ووصف نفسه بصفات النبوة والكمال.

واقترن المخاض بحدثين غريبين : هما نداء عيسى أمه حين الولادة بألا تحزن ، فقد جعل الله عندها نهرا ، وأمرها بهز النخل أخذا بالأسباب لإسقاط الرطب ، الآيات [١٦ ـ ٣٦].

وأحدثت هذه الولادة اختلافا بين النصارى في شأن عيسى ، الآيات [٣٧ ـ ٤٠].

٣ ـ انتقلت الآيات بعدئذ إلى بيان جانب من قصة إبراهيم الخليل عليه السلام ، ومناقشته أباه في عبادة الأصنام ، وإكرام الله له بهبته ـ وهو كبير ، وامرأته سارّة عاقر ـ ولدا هو إسحاق ومن بعده ابنه يعقوب وجعلهما نبيين ، كما حدث فعلا من ولادة إسماعيل قبل ذلك ، وإبراهيم شيخ كبير بعد دخوله على زوجته هاجر ، الآيات [٤١ ـ ٥٠].

٤ ـ ثم تحدثت السورة عن قصة موسى ومناجاته ربه في الطور ، وجعل أخيه هارون نبيا ، الآيات [٥١ ـ ٥٣].

٥ ـ ثم أشارت إلى قصص إسماعيل الموصوف بصدق الوعد وإقامة الصلاة

وإيتاء الزكاة ، وإدريس الصدّيق النبي ، وما أنعم الله به على أولئك الأنبياء من ذرية آدم لإثبات وحدة الرسالة بدعوة الناس إلى التوحيد ونبذ الشرك الآيات [٥٤ ـ ٥٨]. وما سبق كله يشمل حوالي ثلثي السورة.

٦ ـ قورن الخلف بالسلف ، وبان الفرق بأن الخلف أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات ، وجدد الوعد بجنات عدن لمن تاب وعمل صالحا [٥٩ ـ ٦٣].

٧ ـ ناسب ذلك الكلام عن الوحي ، وأن جبريل لا ينزل بالوحي إلا بإذن ربه ، الآيات [٦٤ ـ ٦٥].

٨ ـ ناقش الله المشركين الذين أنكروا البعث ، وأخبر بحشر الكافرين مع الشياطين ، وإحضارهم جثيا حول جهنم ، وبأن جميع الخلق ترد على النار [٦٦ ـ ٧٢].

٩ ـ أبان الله تعالى موقف المشركين حين سماع القرآن من المؤمنين بأنهم خير منهم مجلسا ومجتمعا. وهددهم بأنه أهلك كثيرا من الأمم السابقة بسبب عتوهم واستكبارهم ، وأنه يمدّ للظالمين ويمهلهم ، ويزيد الهداية للمهتدين ، وأن معبودات المشركين ستكون أعداء لهم [٧٣ ـ ٨٤] وذلك كله لتنزيه الله عن الولد والشريك.

١٠ ـ التمييز بين حشر وفد المتقين إلى الجنان ، وسوق المجرمين إلى النيران [٨٥ ـ ٨٧].

١١ ـ التنديد بمن ادعى الولد لله ، والرضا عن المؤمنين الصالحين ، وأن القرآن لتبشير المتقين وإنذار الكافرين المعاندين [٨٨ ـ ٩٨].

فضلها :

روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن

ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة : أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه.

دعاء زكريا عليه‌السلام طالبا الولد وبشارته بيحيى

﴿كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا (٣) قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً (٩) قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)﴾

الإعراب :

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ، إِذْ نادى رَبَّهُ ذِكْرُ﴾ إما مبتدأ محذوف الخبر ، أي فيما يملى عليكم ذكر رحمة ربك ، وإما خبر مبتدأ محذوف ، أي هذا ذكر رحمة ربك. و ﴿ذِكْرُ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول وهو ﴿رَحْمَتِ﴾ ورحمة : مصدر مضاف إلى الفاعل ، و ﴿عَبْدَهُ﴾ مفعول منصوب بالمصدر المضاف وهو ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾. و ﴿زَكَرِيَّا﴾ بدل من ﴿عَبْدَهُ﴾. و ﴿إِذْ نادى إِذْ﴾ منصوب على الظرف متعلق بذكر.

﴿شَيْباً﴾ تمييز منصوب ، أو منصوب لأنه مصدر ، والأول أظهر.

﴿بِدُعائِكَ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول ، والفاعل محذوف ، أي ولم أكن بدعائي إياك.

﴿يَرِثُنِي﴾ إما مجزوم على جواب الأمر ، وهو في الحقيقة جواب شرط مقدر ، أي هب لي إن تهب لي يرث ، وإما مرفوع على أنه صفة لقوله : ﴿وَلِيًّا﴾ أي فهب لي من لدنك وليا وارثا.

والوجهان هما في قوله : ﴿رِدْءاً يُصَدِّقُنِي﴾.

﴿عِتِيًّا﴾ منصوب ببلغت ، وهو مصدر «عتا».

﴿قالَ : كَذلِكَ﴾ الكاف : خبر مبتدأ محذوف ، أي قال الأمر كذلك ﴿سَوِيًّا﴾ حال من ضمير ﴿تُكَلِّمَ﴾.

﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ إما مفسّرة بمعنى «أي» وإما مخففة من الثقيلة ، أي أنه سبّحوا.

البلاغة :

﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ كناية عن ذهاب القوة وضعف الجسم.

﴿اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ استعارة تبعية ، شبه انتشار الشيب باشتعال النار في الحطب ، وأستعير الاشتعال للانتشار ، وهذا من أحسن الاستعارة وأبدعها في كلام العرب.

﴿نادى نِداءً﴾ جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

﴿كهيعص﴾ حروف مقطعة قصد بها التنبيه كحروف التنبيه التي تقع في أول الكلام مثل ألا ويا وغيرهما ، كما قصد بها التحدي للعرب في الإتيان بمثل القرآن المكون من حروف اللغة العربية التي يتكلمون ويخطبون ويكتبون بها.

﴿زَكَرِيَّا﴾ من ولد سليمان بن داود عليهما‌السلام ، وكان نجارا ﴿نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا﴾ أي دعاه سرا في جوف الليل ؛ لأنه أسرع للإجابة ، واختلف في سنه حينئذ فقيل ٦٠ ، أو ٧٠ ، أو ٧٥ ، أو ٨٥ ، أو ٩٩ ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي ضعف جميعه بسبب الكبر ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ أي صار الشيب منتشرا في شعره ، كما تنتشر النار في الحطب ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ﴾ أي وإني أريد أن أدعوك ، ولم أكن بدعائي إياك ﴿شَقِيًّا﴾ خائبا غير مستجاب الدعوة فيما مضى ، فلا تخيبني فيما يأتي.

﴿الْمَوالِيَ﴾ هم عصبة الرجل ، الذين يلونه في النسب ، كبني العم. ﴿مِنْ وَرائِي﴾ بعد موتي ، وخوفي منهم على الدين أن يضيعوه ، كما شاهدته في بني إسرائيل من تبديل الدين ﴿وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً﴾ أي لا تلد ، يقال : رجل عاقر وامرأة عاقرة ، أي عقيمان ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ ولدا من صلبي ﴿مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ جدي في العلم والنبوة ، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وكان متزوجا أخت مريم بنت عمران من ولد سليمان ، وكان زكريا زوجا لخالة مريم ﴿رَضِيًّا﴾ أي مرضيا عندك.

﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي مسمى بيحيي ، فلم يسمّ أحد بهذا الاسم قبله ﴿أَنَّى﴾ كيف ﴿عِتِيًّا﴾ من عتا : أي يبس ، يبست مفاصله وعظامه ، قيل : كان عمره : مائة وعشرين سنة ، وبلغت امرأته ثمانية وتسعين سنة ، وقرئ : عسيّا بمعنى عتيا ﴿قالَ : كَذلِكَ﴾ أي الأمر كذلك من خلق غلام منكما في هذه السن ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي لا أحتاج فيما أريد أن أفعله إلى الأسباب ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ قبل خلقك ، بل كنت معدوما صرفا. وفيه دليل على أن المعدوم ليس بشيء.

﴿آيَةً﴾ علامة أعلم بها وقوع ما بشرتني به ﴿ثَلاثَ لَيالٍ﴾ أي بأيامها ، بدليل ذكر الأيام في سورة آل عمران : ﴿ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾. ﴿سَوِيًّا﴾ أي سوي الخلق سليم الجوارح بلا علة ، ما بك من خرس ولا بكم ﴿الْمِحْرابِ﴾ المصلّى وكانوا ينتظرون فتحه ، ليصلوا فيه بأمره على العادة ﴿فَأَوْحى﴾ أشار ، أو أومأ ﴿سَبِّحُوا﴾ صلوا أو نزهوا ربكم ، والمتفق عليه أنه أراد بالتسبيح الصلاة ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ طرفي النهار ، أوائل النهار وأواخره على العادة ، أي صلاة الفجر وصلاة العصر ، فعلم من امتناعه من الكلام حمل زوجته بيحيي.

قصة زكريا عليه‌السلام :

ذكر زكريا في القرآن الكريم ثماني مرات ، في الآيتين [٣٧ ، ٣٨] من آل عمران ، وفي الأنعام الآية [٨٥] ، وفي مريم الآيتان [٢ ، ٧] ، وفي الأنبياء الآية [٨٩].

وكان لزكريا أبي يحيي شركة في خدمة الهيكل ، فهو (لاوي) وكانت مريم التي نذرتها والدتها لخدمة الهيكل من نصيب زكريا ﴿وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا﴾. وكان زكريا زوجا لخالة مريم أو لأختها. ولما رأى زكريا إكرام الله تعالى لمريم ورزقها من حيث لا تحتسب ، دعا أن يرزقه الله تعالى الولد : ﴿هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قالَ :

رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ﴾ [آل عمران ٣ / ٣٨] ، فاستجاب الله دعاءه ، وبشرته الملائكة بيحيى ، وقد كان في سن الشيخوخة وامرأته عاقر : ﴿فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى ، مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ ، وَسَيِّداً ، وَحَصُوراً ، وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران ٣ / ٣٩] فتعجب زكريا من البشرى قائلا : ﴿قالَ : رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ، وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ، وَامْرَأَتِي عاقِرٌ ، قالَ : كَذلِكَ اللهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾ وفي سورة مريم : ﴿قالَ : رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ، وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً ، وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا. قالَ : كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ : هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ [٨ ـ ٩].

ووالده اسمه (برخيا) ويلاحظ أنه يوجد شخص آخر اسمه (زكريا بن برخيا) له كتاب قانوني عند النصارى ، وكان في زمن (داريوس) قبل زمن المسيح عليه‌السلام بما يقرب من ثلاثة قرون[١].

التفسير والبيان :

﴿كهيعص﴾ تقرأ هكذا : كاف ، ها ، يا ، عاين ، صاد بإدغام نون عاين في الصاد ، ويتعين في الكاف والصاد منها المدّ المطول ست حركات بثلاث ألفات ، ويتعين في الهاء والياء المد الطبيعي حركة واحدة بألف واحدة ، ويجوز في العين المد المطول وقصره بحركتين بمقدار ألفين.

والمراد بهذه الحروف المقطعة التنبيه في أول الكلام على ما يأتي بعدها ، وتحدي العرب بالإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه ، ما دام الكلام القرآني مركبا من حروف الهجاء العربية التي يتركب منها الكلام العربي نثرا وخطابة وشعرا. ولا يصح القول بأن هذه الأحرف مبهمات أو تشير إلى أسرار معينة أو أنها

---

(١) قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار ٣٦٨.

علم (اسم) أو وصف ؛ لأنه كما قال الرازي : لا يجوز من الله تعالى أن يودع كتابه ما لا تدل عليه اللغة ، لا بالحقيقة ولا بالمجاز ؛ لأنا إن جوزنا ذلك فتح علينا قول من يزعم أن لكل ظاهر باطنا ، واللغة لا تدل على ما ذكروه ، فإنه ليست دلالة الكاف أولى من دلالته على الكريم أو الكبير أو على اسم آخر من أسماء الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أو الملائكة أو الجنة أو النار ، فيكون حمله على بعضها دون البعض تحكما لا تدل عليه اللغة أصلا [١].

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا. إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا﴾ أي هذا المتلو ذكر رحمة ربك الذي نقصه عليك عبده زكريا ، الذي كان نبيا عظيما من أنبياء بني إسرائيل ، وزوجته خالة عيسى عليه‌السلام ، وأنه ـ كما في صحيح البخاري ـ كان نجارا يأكل من عمل يده في النجارة ، حين دعا ربّه دعاء خفيّا مستترا ، إخلاصا وبعدا عن الرياء ، ولئلا ينسب في طلب الولد ـ وهو عجوز كبير ـ إلى الرعونة ، ويكون محل اللوم والتهكم من قومه.

والمراد بذكر الرحمة : بلوغها وإصابتها وإجابة الله دعاء زكريا وهو : ﴿قالَ : رَبِّ ، إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ، وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ، وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ، وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي ، وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً﴾ أي قال زكريا : يا ربّ ، لقد صرت فاتر العظام ، ضعيف القوى ، هرما كثير الشيب جدا ، ولم أعهد منك إلا إجابة الدعاء ، ولم تردّني قط فيما سألتك ، فما كنت خائبا ، بل كلما دعوتك استجبت لي ، وإني خفت أقاربي العصبات من بني العم ونحوهم إهمال أمر الدين وتضييعه بعد موتي ، فطلبت ولدا نبيا من بعدي يحرس بنبوته شأن الدين والوحي ، وكانت امرأتي (وهي أخت حمنة أم مريم) عاقرا لا تلد. واسم امرأته : إيشاع بنت فاقوذا بن قبيل ، أخت حمنة بنت فاقوذا ، وعلى هذا يكون يحيى ابن خالة عيسى عليهما‌السلام على الحقيقة.

---

(١) تفسير الرازي : ٢١ / ١٧٩.

ويلاحظ أنه ذكر مسوغات ثلاثة لدعائه ، تستدعي العطف والرحمة والشفقة ، وهي :

١ ـ ضعف البدن باطنا وظاهرا ، أي ضعف العظام وظهور الشيب.

٢ ـ كونه مستجاب الدعاء ، فلم يكن في وقت من الأوقات خائبا ، بل كان كلما دعا ربه أجابه.

٣ ـ خوفه من ورثته من ضياع الدين وما يوحى إليه بعد موته ، ولم يكن خوفه من إرث المال ، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدرا من الإشفاق على ماله ، ولأنه لم يكن ذا مال ، وإنما كان نجارا يأكل من كسب يده ، ولأنه كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال : «لا نورث ، ما تركنا صدقة» وفي رواية الترمذي : «نحن معشر الأنبياء لا نورث» ويكون ميراث الأنبياء هو وراثة النبوة أو العلم والمحافظة على الدين والدعوة إليه.

(فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي ، وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) أي فامنحني وأعطني من جنابك وواسع فضلك وليا يلي أمر الدين ، يكون ولدا من صلبي يرثني النبوة ، وهذا ما أراده وإن لم يصرح به ، ويرث ميراث آل يعقوب وهي وراثة العلم والنبوة على الراجح لا وراثة المال ، كما تقدم ، فيرث ما عندهم من العلم ، ويقوم برعاية أمورهم في الدين ، واجعله يا رب برّا تقيا مرضيا عندك في أخلاقه وأفعاله ، ترضاه وتحبه أنت ويرضاه عبادك ويحبونه ، ليكون أهلا لحمل رسالة الدين وتعليمه وتبليغه وإقامة شعائره.

ونظير الآية : (هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قالَ : رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ) [آل عمران ٣ / ٣٨] ، (وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ : رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ) [الأنبياء ٢١ / ٨٩]. ويعقوب : هو إسرائيل ، وكان زكريا متزوجا بأخت مريم بنت عمران ، ويرجع نسبها إلى يعقوب ؛ لأنها

من ولد سليمان بن داود ، وهو من ولد يهوذا بن يعقوب ، وزكريا من ولد هارون أخي موسى ، وهارون وموسى من ولد لاوي بن يعقوب ، وكانت النبوة في سبط يعقوب بن إسحاق.

فأجاب الله دعاءه ، كما قال تعالى :

﴿يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي فاستجاب الله دعاءه وناداه من جهة الملائكة : يا زكريا إنا نبشرك بمنحتنا لك غلاما اسمه يحيى (معرّب يوحنا ، وهو يوحنا المعمدان الذي كان يعمّد الناس) لم يسمّ أحد قبله بهذا الاسم. وقال مجاهد : لم يجعل له شبيها ولا مثلا ولا نظيرا ، أخذه من معنى قوله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم ١٩ / ٦٥] ، أي شبيها. وقال ابن عباس : «لم تلد العواقر قبله مثله». وهذا دليل على أن زكريا وامرأته عاقران لا يولد لهما ، بخلاف إبراهيم وسارّة عليهما‌السلام ، فإنهما تعجبا من البشارة بإسحاق ، لكبرهما ، لا لعقرهما ، فقد ولد لإبراهيم قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة.

فتعجب زكريا من هذه البشارة سائلا :

﴿قالَ : رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ، وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً ، وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ تعجب زكريا عليه‌السلام حين أجيب دعاؤه ، وفرح فرحا شديدا ، وسأل عن كيفية ما يولد له والوجه الذي يأتيه منه الولد ، مع أن امرأته كانت عاقرا لم تلد من أول عمرها مع كبرها وكبره ، فتساءل متأثرا بالأحوال المعتادة لا مستبعدا قدرة الله تعالى : كيف يكون لي ولد ، وامرأتي عاقر لا تحبل ولا تلد ، وقد كبرت وضعفت؟ فقوله : ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ معناه : انتهى سنه وكبر ونحل عظمه وفقد القدرة على جماع النساء.

فأجابه الله تعالى بقوله :

﴿قالَ : كَذلِكَ ، قالَ رَبُّكَ : هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ أي قال الله تعالى من جهة الملك مجيبا زكريا عما تعجب منه : الأمر كما قلت ، سنهب لك ولدا بالرغم من العقم والهرم ، هو علي سهل ميسور ، إذا أردت شيئا قلت له : كن فيكون ، وقد خلقتك ابتداء وأوجدتك من العدم المحض ، ولم تك شيئا قبل ذلك ، فإيجاد الولد بطريق التوالد المعتاد أهون من ذلك وأسهل منه.

وهذا دليل على القدرة الإلهية الفائقة ، فإنه تعالى يسهل عليه كل شيء ، وقد قرر هنا أن الأمر سهل يسير عليه ، وذكر ما هو أعجب مما سأل عنه زكريا ، بحسب تقدير الناس ، والحقيقة أن الأمرين على قدرة الله سواء ، فسيان خلق الإنسان من العدم أو من طريق التوالد ، ومن قدر على خلق الذات ، فهو قادر على تبديل الصفات ، فيعيد الله إليه وإلى زوجته القدرة على الإنجاب ، كما قال : ﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ ، وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى ، وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٩٠].

ثم أخبر الله تعالى عن طلب آخر لزكريا هو تعرف وقت طلوع المبشر به ، فقال :

﴿قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي قال زكريا : يا رب اجعل لي علامة ودليلا على وقت وجود الأمر المبشر به وهو حمل امرأتي ، لتستقر نفسي ، ويطمئن قلبي بما وعدتني ، إذ الحمل خفي في مبدئه ، ولا سيما ممن انقطع حيضها في الكبر.

فأجابه الله مرة أخرى إلى مطلبه قائلا :

﴿قالَ : آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا﴾ أي قال الله بواسطة الملك : علامتك على وقوع المسؤول وحصول البشرى من الله سبحانه بحمل امرأتك بابنها يحي أن يعتقل لسانك ، ويحبس عن الكلام ، فلا تقدر على تكليم الناس ومحاورتهم مدة ثلاث ليال ، وأنت صحيح سوي الخلق ، ليس بك آفة أو مرض أو علة تمنعك من الكلام.

ونظير الآية : ﴿قالَ : رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ، قالَ : آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً﴾ [آل عمران ٣ / ٤١].

فقوله تعالى ﴿سَوِيًّا﴾ صحيح الخلق سوي من غير مرض ولا علة ، وقيل : متتابعات ، والقول الأول عن الجمهور أصح.

وهذا دليل على أنه لم يكن يكلّم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها إلا رمزا أي إشارة ، ولهذا قال تعالى هنا :

﴿فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ ، فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي فخرج زكريا على قومه من المحراب وهو مصلاه الذي بشر فيه بالولد (وهو المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح : وهو مقصورة في مقدّم المعبد يصعد إليها بدرج بحيث يصبح المتعبد فيها محجوبا عمن في المعبد) وقد كان الناس ينتظرونه للصلاة في الغداة والعشي ، فأشار إليهم إشارة خفية سريعة ، ولم يستطع أن يكلّمهم بذلك ، أن يقولوا : سبحان الله (أي تنزيها لله عن الشريك والولد وعن كل نقص) في الصباح والمساء في صلاتي الفجر والعصر ، شكرا لله على ما أولاه ، وقد كان أخبرهم بما بشّر به قبل ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن الله تعالى قص على نبيه قصة زكريا وما بشر به من الولد ، في سن الكبر والشيخوخة وحال عقم امرأته منذ بداية عمرها ، ليكون ذلك آية على قدرة الله العجيبة التي تستدعي الإيمان به إيمانا مطلقا.

٢ ـ الجهر والإخفاء في الدعاء عند الله سيان ؛ لقوله تعالى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٥٥] ، ولكن زكريا

عليه‌السلام ناجى ربه ودعاه في محرابه في حال الخفاء وهو أولى ؛ لأنه أبعد عن الرياء ، وأقرب إلى الإخلاص ، ولئلا يلام على طلب الولد في زمان الشيخوخة.

٣ ـ قدّم زكريا عليه‌السلام على السؤال أمورا ثلاثة مثل حيثيات الحكم القضائي : أحدها ـ كونه ضعيفا ، والثاني ـ أن الله تعالى ما ردّ دعاءه مطلقا ، والثالث ـ كون المطلوب بالدعاء سببا في المنفعة الدينية.

٤ ـ قال العلماء : يستحب للمرء أن يذكر في دعائه نعم الله تعالى عليه ، وما يليق بالخضوع ؛ لأن قوله تعالى : ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ إظهار للخضوع. وقوله : ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ إظهار لعادات تفضله في إجابته أدعيته ، أي لم تكن تخيب دعائي إذا دعوتك ، وعوّدتني الإجابة فيما مضى. وقوله : ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ﴾ حرص على مصلحة الدين ، فإن أقاربه كانوا مهملين للدين ، فخاف بموته أن يضيع الدين ، فطلب وليا يقوم بالدين من بعده ، لا أنه سأل من يرث ماله ؛ لأن الأنبياء لا تورث ؛ للحديث المتقدم في الصحيحين : «إنا معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا صدقة» ، وفي سنن أبي داود : «إن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما ، ورّثوا العلم» فتكون الوراثة على لسان زكريا هي وراثة الدين ، وتكون مستعارة.

وقد ورث يحيى من آل يعقوب النبوة والحكمة والعلم والدين ، كما أن سليمان ورث من داود الحكمة والعلم ، ولم يرث منه مالا خلّفه له بعده.

٥ ـ قوله تعالى : ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ سؤال ودعاء ، ولم يصرح بولد ، لشيخوخته وعقم امرأته ، قال قتادة : جرى له هذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة. وقال مقاتل : خمس وتسعين سنة ، قال القرطبي : وهو أشبه ، فقد كان غلب على ظنه أنه لا يولد له لكبره ؛ ولذلك قال : ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

٦ ـ يجوز الدعاء بالولد ، ويجوز التضرع إلى الله في هداية الولد ، اقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والفضلاء ، وقد دعا النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لأنس خادمه فقال : «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته» فدعا له بالبركة تحرزا مما يؤدي إليه الإكثار من الهلكة. وكان دعاء زكريا أن يجعل الولي الوارث له مرضيا في أخلاقه وأفعاله.

٧ ـ دعاء زكريا عليه‌السلام لم يكن بالواسطة ، وإنما كان يخاطب ربه مباشرة قائلا : ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ ، ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ ، ﴿فَهَبْ لِي﴾ ، ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾.

كذلك قوله تعالى : ﴿يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ ...﴾ نداء من الله تعالى ، وإلا لفسد النظم. ويرى جماعة أن هذا نداء الملك ؛ لقوله تعالى : ﴿فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ ، وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى﴾ [آل عمران ٣ / ٣٩] ، وقوله سبحانه : ﴿قالَ : كَذلِكَ ، قالَ رَبُّكَ : هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ وهذا لا يجوز أن يكون كلام الله تعالى ، فوجب أن يكون كلام الملك. وأجاب الرازي عن آية ﴿فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ﴾ بأنه يحتمل حصول النداءين : نداء الله ونداء الملائكة ، وعن آية ﴿قالَ رَبُّكَ ..﴾ بأنه يمكن أن يكون كلام الله تعالى (١).

٨ ـ في قوله تعالى : ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ دليل وشاهد على أن الأسامي السّنع (الجميلة) جديرة بالأثرة ، وإياها كانت العرب تنتحي في التسمية ، لكونها أنبه ، وأنزه عن النّبز.

٩ ـ قوله تعالى : ﴿قالَ : رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾؟ ليس شكا في قدرة الله تعالى على ذلك ، وإلا كان كفرا ، وهو غير جائز على الأنبياء عليهم‌السلام ،

---

(١) تفسير الرازي : ٢١ / ١٨٦.

وليس إنكارا لما أخبر الله تعالى به ، بل على سبيل التعجب والانبهار من قدرة الله تعالى أن يخرج ولدا من امرأة عاقر وشيخ كبير.

١٠ ـ قوله تعالى : ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ﴾ دليل على قدرة الله الباهرة ، سواء في تغيير الصفات أو إبداع الذوات ، فكما أن الله خلق الإنسان من العدم ، ولم يك شيئا موجودا ، فهو القادر على خلق يحيى وإيجاده.

١١ ـ قوله سبحانه : ﴿قالَ : رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ بعد قوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ﴾ زيادة طمأنينة ، كما طلب إبراهيم عليه‌السلام آية تدل على كيفية الخلق وإحياء الموتى ، والمراد : تمم النعمة بأن تجعل لي آية وعلامة أتعرف بها وجود الحمل ، بعد بشارة الملائكة إياه.

١٢ ـ قوله تعالى : ﴿فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ﴾ وهو أرفع المواضع ، وأشرف المجالس ، دليل على أن ارتفاع الإمام على المأمومين كان مشروعا عندهم ، وقد أجاز ذلك الإمام أحمد وغيره متمسكا بقصة المنبر. ومنع الإمام مالك ذلك في الارتفاع الكثير دون اليسير ، خوفا من الكبر على الإمام ، وعملا بما رواه أبو داود عن ثلاثة من الصحابة (حذيفة وأبو مسعود ، وعمار) من نهي النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عن ذلك : «إذا أمّ الرجل القوم ، فلا يقم في مكان أرفع من مقامهم».

١٣ ـ قوله سبحانه : ﴿فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ دليل على جواز العمل بالإشارة المفهمة. واتفق مالك والشافعي والكوفيون على أن الأخرس إذا كتب الطلاق بيده لزمه.

إيتاء يحيى عليه‌السلام النبوة والحكم صبيا

﴿يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكاةً وَكانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا (١٤) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)﴾

الإعراب :

﴿خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ﴾ الباء في موضع الحال ، أي خذ الكتاب مجدّا مجتهدا.

﴿وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا الْحُكْمَ﴾ مفعول ثان لآتيناه ، و ﴿صَبِيًّا﴾ حال من هاء ﴿آتَيْناهُ﴾ الذي هو المفعول الأول.

﴿وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا﴾ معطوف منصوب على ﴿الْحُكْمَ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿يا يَحْيى﴾ على تقدير القول ، أي قلنا ، ويحي هو ابن خالة عيسى عليهما‌السلام . ﴿خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ﴾ بجدّ واجتهاد. ﴿وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي أعطيناه النبوة ، أو الحكمة وفهم التوراة ، أو الفقه في الدين ، وذلك في حال الصبا ، قيل : كان ابن ثلاث سنين ، وعن ابن عباس في حديث مرفوع : ابن سبع سنين.

﴿وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا﴾ رحمة وعطفا على الناس من عندنا. ﴿وَزَكاةً﴾ تطهيرا من الذنوب والآثام. ﴿وَكانَ تَقِيًّا﴾ مطيعا لما أمر به ، متجنبا المعاصي وكل ما نهي عنه ، فلم يفعل خطيئة ولا هم بها. ﴿وَبَرًّا بِوالِدَيْهِ﴾ أي كثير البرّ والإحسان إليهما. ﴿جَبَّاراً﴾ متكبرا متعاليا عن الحق. ﴿عَصِيًّا﴾ عاصيا أمر ربه. ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ﴾ أي أمان من الله عليه. ﴿يَوْمَ وُلِدَ ، وَيَوْمَ يَمُوتُ ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي أنه آمن في هذه الأيام المخوفة من عذاب النار وهول القيامة ومكدرات الحياة الدنيوية ، فهو آمن حين الولادة من مؤثرات الشيطان ، وحين الموت من عذاب القبر ، وفي القيامة من عذاب جهنم.

قصة يحى عليه السلام :

ذكر يحيى خمس مرات في القرآن الكريم ، في آل عمران [٣٩] ، وفي الأنعام [٨٥] ، وفي مريم [٧ ، ١٢] ، وفي الأنبياء [٩٠] ، وكان يحيى تقيا صالحا منذ صباه ، وكان عالما بارعا في الشريعة الموسوية ومرجعا في أحكامها ، وصار نبيا وهو صبي : ﴿وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ وكان يدعو الناس إلى التوبة من الذنوب ، وكان يعمّدهم أي يغسلهم في نهر الأردن للتوبة من الخطايا ، وقد أخذ النصارى طريقته ، ويسمونه «يوحنا المعمدان».

وكان لأحد حكام فلسطين «هيرودس» بنت أخ تسمى «هيروديا» بارعة الجمال ، أراد

عمها هذا أن يتزوجها ، وكانت البنت وأمها تريدان ذلك ، فلم يوافق يحيى عليه السلام على هذا الزواج ؛ لأنه محرم ، فرقصت الفتاة أمام عمها فأعجب بها ، وطلب إليها ما تتمناه ليعمله لها ، فطلبت منه بمؤامرة أمها رأس يحيى بن زكريا ، ففعل وقتل يحيى. ولما بلغ المسيح أن يحيى قتل ، جهر بدعوته ، وقام في الناس واعظا [١].

التفسير والبيان :

﴿يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ﴾ في الكلام محذوف تقديره : أنه ولد لزكريا المولود ، ووجد الغلام المبشر به ، وهو يحيى عليه السلام ، فخاطبه الله تعالى بعد أن بلغ المبلغ الذي يخاطب به ، فقال له : يا يحيى خذ التوراة المتدارسة والتي يحكم بها النبيون ، والتي هي نعمة على بني إسرائيل ، بجد واجتهاد وعزيمة وحرص على العمل بها.

ثم ذكر الله تعالى ما أنعم به عليه وعلى والديه ، فقال ذاكرا صفاته :

---

(١) قصص القرآن : المرجع السابق ٣٦٩.

١ ـ ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي وأعطيناه الحكم والفهم للكتاب والفقه في الدين والإقبال على الخير ، وهو صغير حدث دون سبع سنين. وقيل : الحكمة : النبوة ؛ لأن الله تعالى بعث يحيى وعيسى عليهما‌السلام ، وهما صبيان ، قال الرازي : والأقرب حمله على النبوة لوجهين :

الأول ـ أن الله تعالى وصفه بصفات شريفة ، والنبوة أشرف صفات الإنسان ، فذكرها في معرض المدح أولى من ذكر غيرها.

الثاني ـ أن الحكم هو ما يصلح لأن يحكم به على غيره ، ولغيره على الإطلاق ، وذلك لا يكون إلا بالنبوة.

قال عبد الله بن المبارك : قال معمر : قال الصبيان ليحيي بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، فقال : ما للّعب خلقنا ، فلهذا أنزل الله : ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

٢ ـ ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾ أي رحمناه رحمة من عندنا. والحنان : الرحمة والشفقة والعطف والمحبة. قال ابن كثير : والظاهر من السياق أن قوله : ﴿وَحَنَاناً﴾ معطوف على قوله : ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي وآتيناه الحكم وحنانا وزكاة ، أي وجعلناه ذا حنان وزكاة ، فالحنان : هو المحبة في شفقة وميل [(١)].

٣ ـ ٥ : ﴿وَزَكَاةً ، وَكَانَ تَقِيًّا ، وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ أي وجعلنا مباركا للناس ، يهديهم إلى الخير ، مطهرا من الدنس والرجس والآثام والذنوب ، وكان تقيا ، أي متجنبا لمعاصي الله ، مطيعا له ، وكثير البر والطاعة لوالديه ، متجنبا عقوقهما قولا وفعلا ، أمرا ونهيا ، فهو مطيع لله ولأبويه.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ١١٣.

٦ ـ ٧ : ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا﴾ أي لم يكن متكبرا على الناس ، بل كان متواضعا لهم ، ولم يكن مخالفا عاصيا ما أمره به ربه ، روى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : «ما من أحد يلقى الله يوم القيامة إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا».

وبعد ذكر هذه الأوصاف الجميلة ليحيي ذكر الله تعالى جزاءه على ذلك ، فقال : ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي له الأمان من الله في هذه الثلاثة أحوال : أمان عليه من الله يوم الولادة ، فقد أمن أن يناله الشيطان في ذلك اليوم كما ينال سائر بني آدم ، ويوم الموت ، فيأمن عذاب القبر ، ويوم البعث يأمن هول يوم القيامة وعذابه.

قال سفيان بن عيينة : أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن : يوم ولد ، فيرى نفسه خارجا مما كان فيه ، ويوم يموت ، فيرى قوما لم يكن عاينهم ، ويوم يبعث ، فيرى نفسه في محشر عظيم ، فأكرم الله يحي بن زكريا ، فخصه بالسلام عليه ، فقال : ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

فقه الحياة أو الأحكام :

ذكر الله تعالى في هذه الآيات تسع صفات ليحيي بن زكريا عليهما‌السلام وهي :

١ ـ الجد والصبر على القيام بأمر النبوة ، فليس المراد من قوله ﴿خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ﴾ القدرة على الأخذ ؛ لأن ذلك معلوم لكل أحد ، فيجب حمله على معنى يفيد المدح وهو الجد والصبر على النبوة.

٢ ـ إيتاؤه النبوة وهو صبي ؛ لأن الله تعالى بعث يحي وعيسى عليهما‌السلام وهما صبيان ، لا كما بعث موسى ومحمدا عليهما‌السلام ، وقد بلغا الأشد وهو أربعون سنة.

٣ ـ جعله ذا حنان ، أي محبة ورحمة وشفقة على الناس ، كصفة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بأنه الرؤوف الرحيم.

٤ ـ جعله ذا بركة ونفع ونماء بتقديم الخير للناس وهدايتهم ، كما وصف عيسى عليه‌السلام : ﴿وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ﴾ [مريم ١٩ / ٣١].

٥ ـ كونه تقيا : يتقي نهي الله فيجتنبه ، ويتقي أمر الله فلا يهمله ، ولهذا لم يعمل خطيئة ولم يلّم بها.

٦ ـ بارا بوالديه : فلا عبادة بعد تعظيم الله تعالى مثل تعظيم الوالدين ، والله تعالى جعل طاعة الوالدين بعد طاعته مباشرة ، فقال : ﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾ [الإسراء ١٧ / ٢٣].

٧ ـ لم يكن جبارا متكبرا : بل كان ليّن الجانب متواضعا ، وذلك من صفات المؤمنين ، وقد أمر الله نبيه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بذلك فقال : ﴿وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر ١٥ / ٨٨] وقال : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران ٣ / ١٥٩].

٨ ـ لم يكن عصيا لربه ولا لوالديه.

٩ ـ سلام وأمان من الله عليه يوم مولده ويوم وفاته ويوم بعثه. وقال ابن عطية : والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة ، فهي أشرف وأنبه من الأمان ؛ لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان عنه وهي أقل درجاته ، وإنما الشرف في أن سلم الله تعالى عليه ، وحياة في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى عظيم الحول.

قصة مريم

١ . حملها بعيسى عليه السلام

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا (١٧) قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا (١٩) قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكانَ أَمْراً مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا (٢٢)﴾

الإعراب :

﴿إِذِ انْتَبَذَتْ﴾ بدل من مريم بدل اشتمال.

﴿مَكاناً شَرْقِيًّا مَكاناً﴾ إما ظرف مكان منصوب ، وعامله ﴿انْتَبَذَتْ﴾ وإما مفعول به ، وعامله مقدر ، أي وقصدت مكانا قصيا. و ﴿شَرْقِيًّا﴾ صفة له.

﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ الواو : إما واو عطف على قوله ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ وإما زائدة.

البلاغة :

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ كناية عن المعاشرة الزوجية بالجماع.

﴿شَرْقِيًّا سَوِيًّا تَقِيًّا بَغِيًّا مَقْضِيًّا قَصِيًّا سَرِيًّا نَبِيًّا﴾ .. إلخ سجع لطيف.

المفردات اللغوية :

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ﴾ واذكر في القرآن خبر مريم. ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ﴾ حين اعتزلت. ﴿مَكاناً شَرْقِيًّا﴾ أي اعتزلت في مكان نحو الشرق من الدار. ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً﴾ أرسلت سترا تستتر به للاغتسال من الحيض ، وكانت في العادة تتحول من المسجد إلى بيت خالتها إذا حاضت ، وتعود إليه إذا طهرت ، فبينا هي في مغتسلها أتاها جبريل متمثلا بصورة شاب أمرد ، سوي الخلق ، لتستأنس بكلامه. ﴿فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا﴾ جبريل. ﴿فَتَمَثَّلَ لَها﴾ بعد لبسها ثيابها. ﴿بَشَراً سَوِيًّا﴾ تام الخلق. ﴿قالَتْ : إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ﴾ من غاية عفافها. ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ تتقي الله ، وتحتفل بالاستعاذة ، فتنتهي عني بتعوذي. وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله ، أي فإني عائذة منك ، أو فاتعظ بتعويذي ، أو فلا تتعرض لي. ويجوز أن يكون للمبالغة ، أي إن كنت تقيا متورعا ، فإني أعوذ منك ، فكيف إذا لم تكن كذلك.

﴿قالَ : إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الذي استعذت به. ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا﴾ أي لأكون سببا في هبته بالنفخ في القميص (الدرع). و ﴿زَكِيًّا﴾ طاهرا من الذنوب ، أو ناميا على الخير والصلاح. ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ ولم يباشرني رجل بالحلال من طريق الزواج. ﴿بَغِيًّا﴾ زانية.

﴿قالَ : كَذلِكِ﴾ أي الأمر هكذا من خلق غلام منك من غير أب ، أو كذلك الأمر حكم ربّك ، بمجيء الغلام منك ، وإن لم يكن لك زوج. ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي فإن الأمر على الله يسير سهل. ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ على قدرتنا ، وهذا معطوف على جملة. ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ التي هي في معنى العلة. ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ أي ورحمة لهم ببعثته نبيا يهتدون بإرشاده ، لمن آمن به. ﴿وَكانَ أَمْراً مَقْضِيًّا﴾ أي وكان خلقه أمرا مقضيا به في الأزل وفي علم الله ، فنفخ جبريل في جيب قميصها ، فأحست بالحمل في بطنها مصورا ، إذ دخلت النفخة في جوفها ، وكانت مدة حملها سبعة أشهر ، وقيل : ثمانية ، أو تسعة ، وقيل : ساعة ، كما حملته نبذته ، وسنها ثلاث عشرة سنة ، وقيل : عشر سنين ، وقد حاضت حيضتين ، والأولى أن يكون حملها في المدة المعتادة وهي تسعة أشهر ، إذ لا دليل على تلك الأقوال.

﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا﴾ اعتزلت ، وهو في بطنها ، مكانا بعيدا من أهلها وراء الجبل.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى قصة زكريا عليه‌السلام ، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولدا زكيا طاهرا مباركا ، أردفه بذكر قصة مريم في إنجاب ولدها عيسى عليه‌السلام من غير أب ، وبين القصتين تناسب وتشابه واضح

ظاهر ، ولذا ذكرا معا في آل عمران وهنا وفي الأنبياء ، لتقاربهما في المعنى ، ليدل تعالى عباده على قدرته وعظمة سلطانه وأنه على ما يشاء قادر.

وعملا بمبدإ الانتقال في البيان والتعليم من الأسهل إلى الأصعب ، بدأ تعالى بقصة يحيى عليه السلام ؛ لأن خلقه من أبوين كبيرين أقرب إلى العادة والتصديق من خلق الولد بلا أب ، ثم ذكر قصة عيسى ؛ لأنها أغرب من تلك.

التفسير والبيان :

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا﴾ أي واذكر يا محمد الرسول للناس في هذه السورة قصة مريم البتول بنت عمران من سلالة داود عليه السلام ، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل ، حين تنحّت ، واعتزلت من أهلها ، وتباعدت عنهم إلى مكان شرقي بيت المقدس أو المسجد المقدس ؛ لتنقطع إلى العبادة.

روى ابن جرير عن ابن عباس قال : إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبله ؛ لقول الله تعالى : ﴿انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا﴾ واتخذوا ميلاد عيسى قبلة.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً ، فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا ، فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا﴾ أي استترت منهم وتوارت بساتر أو حاجز يسترها عنهم لئلا يروها حال العبادة ، فأرسلنا إليها جبريل عليه السلام ، متمثلا بصورة إنسان تام كامل ، لتأنس بكلامه ، ولئلا تنفر من محاورته في صورته الملكية ، فظنت أنه يريدها بسوء.

وقوله : ﴿رُوحَنا﴾ هو جبريل ، كما جاء في آية أخرى : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٩٣ ـ ١٩٤].

فكان موقفها منه كما قال تعالى :

﴿قالَتْ : إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ أي قالت السيدة مريم لعذراء البتول : إني أستعيذ (أو أستجير) بالرحمن منك أن تنالني بسوء إن كنت تخاف الله ، فاخرج من وراء الحجاب. وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل ، فخوفته أولا بالله عزّوجلّ ، والاستعاذة والتخويف لا يؤثران إلا في التقي ، وهو كقوله تعالى : ﴿وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة ٢ / ٢٧٨] أي إن الإيمان يقتضي ذلك ويوجبه ، لا أن الله تعالى يخشى في حال دون حال ، وهذا دليل عفتها وورعها.

فأجابها جبريل عليه‌السلام :

﴿قالَ : إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا﴾ أي قال الملك جبريل مهدئا روعها ومزيلا خوفها : لست أريد بك سوءا ، ولكن أنا رسول إليك من ربك الذي استعذت به ، ولست ممن يتوقع منه السوء أو مما تظنين ، بعثني الله إليك لأهب لك غلاما طاهرا من الذنوب ، ينمو على النزاهة والعفة. وقد نسب الهبة لنفسه لجريانها على يده بأمر الله تعالى.

فتعجبت مريم مما سمعت ، وقالت :

﴿قالَتْ : أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ، وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي قالت لجبريل : كيف يكون لي غلام؟ وعلى أي صفة يوجد هذا الغلام مني ، ولست بذات زوج ، أو لم يقربني زوج ، ولا يتصور مني الفجور ، فلم أك يوما ما بغيا ، أي زانية ، تبغي الرجال بالأجر. وجوابها هذا لم يكن عن استبعاد لقدرة الله ، وإنما عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون إلا من رجل ، والعادات عند أهل المعرفة معتبرة في الأمور ، وإن حدث خلاف هذا في القدرة الإلهية ، فإنها عرفت أنه

تعالى خلق أبا البشر من غير أب ولا أم ، فهل سيكون هذا الولد مخلوقا بخلق الله ابتداء كآدم ، أم عن طريق زوج تتزوجه في المستقبل؟

فأجابها بقوله :

﴿قالَ : كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ : هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَرَحْمَةً مِنَّا ، وَكانَ أَمْراً مَقْضِيًّا﴾ أي فقال لها الملك مجيبا لها عما سألت : إن الله قد قال : إنه سيوجد منك غلاما ، وإن لم يكن لك زوج (بعل) ولا من طريق الفاحشة ، فإنه على ما يشاء قادر ، وليجعل خلقه برهانا للناس على قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوّع في خلقهم ، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى فقط ، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى.

ويجعل هذا الغلام أيضا رحمة من الله لعباده ، يبعثه نبيا من الأنبياء ، يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده ، وكان هذا الأمر مقدرا قد قدره الله في سابق علمه ، وجف به القلم ، فلا يغير ولا يبدّل.

ونظير آخر الآية : ﴿كَذلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران ٣ / ٤٧] ونظير القسم السابق له وهو : ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ قوله سبحانه : ﴿إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ : يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران ٣ / ٤٥ ـ ٤٦].

ونظير قوله : ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ قوله سبحانه : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها ، فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا﴾ [التحريم ٦٦ / ١٢].

وحدث مراد الله تعالى :

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا﴾ أي لما قال جبريل لها عن الله تعالى ما قال ، استسلمت لقضاء الله تعالى ، فنفخ جبريل في جيب درعها (فتحة قميصها) فنزلت النفخة في جوفها ، حتى ولجت فرجها ، فحملت بالولد بإذن الله تعالى ، فاعتزلت إلى مكان بعيد. والفاء وإن كانت للتعقيب ، لكن تعقيب كل شيء بحسبه.

ولم يعيّن القرآن الكريم مدة الحمل ، إذ لا حاجة لمعرفتها ، لذا نرى أن حملها كان بحسب المعتاد بين النساء ، وهو تسعة أشهر قمرية. وإنما اتخذت المكان البعيد لا من أجل الوضع ، وإنما حياء من قومها ، وبعدا عن اتهامها بالريبة.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه بداية قصة السيدة مريم العذراء ، حكى فيها الحق سبحانه كيفية حملها بعيسى عليه‌السلام ، مبينا مقدمات ضرورية لإبراز عفتها وصونها.

فهي قد اعتزلت أهلها شرقي البيت المقدس للانقطاع للعبادة وللخلوة مع الله ومناجاة ربها ، فأرسل الله إليها جبريل عليه‌السلام بصورة بشر تام الخلقة ؛ لأنها لم تكن لتطيق أو تنظر جبريل في صورته الحقيقية الملكية ، ولما رأت رجلا حسن الصورة في صورة البشر ، قد خرق عليها الحجاب ، ظنت أنه يريدها بسوء ، فتعوذت بالله منه إن كان ممن يتقي الله.

فأخبرها جبريل بأنه رسول من عند الله بعثه إليها ليهبها غلاما طاهرا نقيا من الذنوب والمعاصي ، وجعل الهبة من قبله ؛ لأنه الواسطة ورسول الاعلام بالهبة من قبله. روي أن جبريل عليه‌السلام حين قال لها هذه المقالة نفخ في جيب درعها وكمّها.

فتساءلت مريم عن وسيلة إيجاد الغلام ، لا استبعادا لقدرة الله تعالى ، ولكن أرادت معرفة كيفية تكوّن هذا الولد ، من قبل الزوج الذي تتزوجه في

المستقبل ، أم يخلقه الله ابتداء؟ وهي الآن ليست ذات زوج ، ولم تكن في أي وقت زانية ، وذكرت هذا تأكيدا ؛ لأن قولها : ﴿لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ يشمل الحلال والحرام.

فأجابها جبريل : هذا أمر قدره الله وقضى به من الأزل ، فهو في سابق علمه الأزلي القديم ، وهو أمر هيّن يسير على قدرة الله ، فهو القادر على كل شيء ، وقد خلق عيسى عليه‌السلام من أم بلا أب ، ليكون ذلك دليلا وعلامة على قدرته العجيبة في تنوع الخلق والإبداع ، ويكون عيسى بنبوته رحمة لمن آمن به ، وكان أمرا مقدرا في اللوح مسطورا.

فاستسلمت مريم لقضاء الله وقدره ، واعتزلت بالحمل إلى مكان بعيد ، حياء من قومها ، وبعدا عن اتهامها بالريبة وتعيير قومها إياها بالولادة من غير زوج. قال ابن عباس : إلى أقصى الوادي ، وهو وادي بيت لحم بينه وبين إيلياء أربعة أميال. وقال ابن عباس أيضا : ما هو إلا أن حملت فوضعت في الحال. قال القرطبي : وهذا هو الظاهر ؛ لأن الله تعالى ذكر الانتباذ عقب الحمل (١).

وقال آخرون : كان الحمل بحسب المعتاد بين النساء ؛ لأن تعقيب كل شيء بحسبه ، كقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً ..﴾ [المؤمنون ٢٣ / ١٢ ـ ١٤]. وقد ثبت في الصحيحين أن بين كل صفتين أربعين يوما ، وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج ٢٢ / ٦٣] قال ابن كثير : فالمشهور الظاهر ـ والله على كل شيء قدير ـ أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن (٢).

---

(١) تفسير القرطبي : ١١ / ٩٢ ـ ٩٣.

(٢) تفسير ابن كثير : ٣ / ١١٦.

وقال محمد بن إسحاق : فلما حملت به ، وملأت قلّتها ، ورجعت ، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب (المرض والضعف) والتوحم وتغير اللون ، حتى فطر لسانها ، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا ، وشاع الحديث في بني إسرائيل ، فقالوا : إنما صاحبها يوسف النجار (وهو رجل صالح من قراباتها ، كان معها في المسجد يخدم معها البيت المقدس) ولم يكن معها في الكنيسة غيره ، وتوارت من الناس ، واتخذت من دونهم حجابا ، فلا يراها أحد ولا تراه.

ويحسن أن نذكر مقطعا من حوار بين يوسف النجار ومريم ، ذكره الثعلبي في العرائس عن وهب ، قال : أخبريني يا مريم ، هل ينبت زرع بغير بذر ، وهل تنبت شجرة من غير غيث ، وهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت : نعم ، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ، وهذا البذر إنما حصل من الزرع الذي أنبته من غير بذر ، ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجرة من غير غيث ، وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر ، بعد ما خلق كل واحد منهما على حدة ، أو تقول : إن الله تعالى لا يقدر على أن ينبت الشجرة حتى استعان بالماء ، ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها؟

فقال يوسف : لا أقول هذا ، ولكني أقول : إن الله قادر على ما يشاء ، فيقول له : كن فيكون.

فقالت له مريم : أو لم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى؟ فعند ذلك زالت التهمة عن قلبه [١].

---

(١) تفسير الرازي : ٢١ / ٢٠١ ـ ٢٠٢.

- ٢ -

ولادة عيسى وما اقترن بها

﴿فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا (٢٣) فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦)﴾

الإعراب :

﴿بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ﴾ الباء : زائدة ، أي وهزي إليك جذع النخلة. و ﴿تُساقِطْ﴾ جواب الأمر ، و ﴿رُطَباً جَنِيًّا﴾ مفعول ﴿تُساقِطْ﴾ أي تساقط النخلة رطبا. وقرئ ﴿تُساقِطْ﴾ وأصله : تتساقط ، فحذف إحدى التاءين تخفيفا ، وقرئ تساقط وأصله : تتساقط أيضا ، فأبدل من إحدى التاءين سينا ، وأدغم السين في السين. ورطبا في هاتين القراءتين : تمييز أو حال ، ويجوز النصب بهزّي ، أي وهزي إليك رطبا جنيا متمسكة بجذع النخلة ، والباء في موضع الحال ، لا زائدة ، وقرئ يساقط و ﴿رُطَباً﴾ مفعول به ، أي يساقط جذع النخلة رطبا.

﴿وَقَرِّي عَيْناً﴾ تمييز أي من عين ، مثل : طاب به نفسا ، أي من نفس.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ أصله «ترأيين» فحذفت الهمزة منه ، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين ، فبقي ﴿تَرَيِنَّ﴾ وحذفت النون لأنها نون إعراب ، لطروء البناء بدخول نون التوكيد الثقيلة (المشددة) وكسرت الياء لسكونها وسكون النون المشددة أي لالتقاء الساكنين. وإما : أدغمت فيه نون إن الشرطية في ما الزائدة.

المفردات اللغوية :

﴿فَأَجاءَهَا﴾ جاء بها وألجأها واضطرها. ﴿الْمَخاضُ﴾ وجع الولادة والطّلق حين تحرك الولد للخروج من البطن. ﴿إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة ، فولدت

﴿يا﴾ للتنبيه. ﴿قَبْلَ هذا﴾ الأمر ، استحياء من الناس ومخافة لومهم. ﴿نَسْياً﴾ ما من شأنه أن ينسى ولا يطلب ، ككل شيء حقير من وتد وحبل. ﴿مَنْسِيًّا﴾ منسي الذكر ، وهو ما لا يخطر بالبال لتفاهته ، والمراد من الكلمتين : شيئا متروكا لا يعرف ولا يذكر.

﴿فَناداها مِنْ تَحْتِها﴾ أي عيسى ، وقيل : جبريل وكان أسفل منها أي من مكانها. وقيل: ضمير ﴿تَحْتِها﴾ عائد للنخلة. ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أي لا تحزني أو بألا تحزني. ﴿سَرِيًّا﴾ جدولا أو نهر ماء ، هكذا روي مرفوعا ، وقيل : السري : السيد الشريف ، أي سيدا شريفا وهو عيسى. ﴿وَهُزِّي﴾ الهز : تحريك الشيء بعنف أو بدونه ، أو أميليه إليك أو افعلي الهز والإمالة به. ﴿بِجِذْعِ﴾ الباء مزيدة للتأكيد. ﴿تُساقِطْ﴾ تسقط. ﴿رُطَباً﴾ تمرا طازجا ناضجا. ﴿جَنِيًّا﴾ صالحا للاجتناء.

﴿فَكُلِي﴾ من الرطب. ﴿وَاشْرَبِي﴾ من السري . النهر. ﴿وَقَرِّي عَيْناً﴾ أي لتقر عينك به ، أي تسكن ، فلا تطمح إلى غيره. ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً﴾ أي إن تري آدميا ، فيسألك عن الولد. ﴿فَقُولِي﴾ أشيري إليهم ، قال الفراء : العرب تسمي كل ما أفهم الإنسان شيئا كلاما بأي طريق كان. ﴿نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً﴾ أي صمتا أو إمساكا عن الكلام في شأنه وشأن غيره من الناس ، بدليل : ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ أي أحدا من الناس بعد ذلك ، أي بعد أن أخبرتكم عن نذري.

التفسير والبيان :

﴿فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ : يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا﴾ أي فاضطرها وألجأها وجع الولادة وألم الطلق إلى الاستناد إلى جذع النخلة والتعلق به ، لتسهيل الولادة ، فتمنت الموت قبل ذلك الحال ، استحياء من الناس ، وخوفا أن يظن بها السوء في دينها ، أو أن تكون شيئا لا يبالي به ، ولا يعتد به أحد من الناس كالوتد والحبل ، أو لم تخلق ولم تك شيئا. قال ابن كثير : فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة ، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ، ولا يصدقونها في خبرها ، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة ، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية. قال الزمخشري : أجاء منقول من جاء إلى معنى الإلجاء.

﴿فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أي فناداها جبريل من تحت الأكمة أو من تحت النخلة ، وقيل : المنادي هو عيسى ، وقد أنطقه الله بعد وضعه تطييبا لقلبها وإيناسا لها ، قائلا : لا تحزني ، فقد جعل ربك تحتك جدولا أو نهرا صغيرا ، أجراه الله لها لتشرب منه. وقيل : المراد بالسريّ هنا عيسى ، والسريّ : السيد العظيم الخصال من الرجال. قال ابن عباس : المراد ب ﴿مِنْ تَحْتِها﴾ جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. ففي هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التي لله تعالى فيها مراد عظيم ، وهذا هو الأصح.

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا﴾ أي حرّكي جذع النخلة ، تسقط عليك رطبا طريا طيبا ، صالحا للاجتناء والأكل من غير حاجة إلى تخمير وصناعة. وهذه آية أخرى ، قال الزمخشري ، كان جذع نخلة يابسة في الصحراء ، ليس لها رأس ولا ثمر ولا خضرة ، وكان الوقت شتاء. وقيل : كانت النخلة مثمرة. والمهم في الأمر : وجوب اتخاذ الأسباب لتحصيل الرزق ، والاعتقاد بأن الفاعل الحقيقي في تيسير الرزق هو الله تعالى ، وأنه على كل شيء قدير. وأما التفاصيل فلا يجب علينا أن نعتقد إلا بما أخبر به القرآن صراحة ، وأما الروايات فتحتاج إلى تثبت ودليل وسند صحيح. وما أحسن قول الشاعر :

ألم تر أن الله أوحى لمريم ... وهزي إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أدنى الجذع من غير هزه ... إليها ولكن كل شيء له سبب

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً﴾ أي فكلي من ذلك الرطب ، واشربي من ذلك الماء ، وطيبي نفسا ولا تحزني وقرّي عينا برؤية الولد النبي ، فإن الله قدير على صون سمعتك ، والإرشاد إلى حقيقة أمرك. قال عمرو بن ميمون : ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب ، ثم تلا هذه الآية الكريمة. وروى ابن أبي حاتم

عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : «أكرموا عمتكم النخلة ، فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم عليه السلام ، وليس من الشجر شيء يلقّح غيرها».

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً ، فَقُولِي : إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً ، فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ أي إن رأيت إنسانا يسألك عن أمرك وأمر ولدك ، فأشيري له بأنك نذرت لله صوما عن الكلام ، أي صمتا ، بألا أكلم أحدا من الإنس ، بل أكلم الملائكة ، وأناجي الخالق.

والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم ، يحرم عليهم الطعام والكلام ، قال ابن زيد والسدّي : كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الكلام.

وليس الصوم عن الكلام مشروعا في الإسلام ، روى ابن أبي حاتم وابن جرير رحمهما الله عن حارثة قال : كنت عند ابن مسعود ، فجاء رجلان ، فسلم أحدهما ، ولم يسلم الآخر ، فقال : ما شأنك؟ قال أصحابه : حلف ألا يكلم الناس اليوم ، فقال عبد الله بن مسعود : كلّم الناس ، وسلّم عليهم ، فإن تلك امرأة علمت أن أحدا لا يصدقها أنها حملت من غير زوج ، يعني بذلك مريم عليها السلام ، ليكون عذرا لها إذا سئلت.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن ألم المخاض ووجع الطلق أمر معتاد في أثناء الولادة ، أشبه بالموت ، فتحتاج المرأة حينئذ إلى عون ورعاية ، ولم تجد السيدة مريم معينا لها غير جذع النخلة ، فاستندت إليه وتعلقت به ، كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق.

٢ ـ يكون تمني الموت جائزا في مثل حال السيدة مريم ، فإنها تمنت الموت من جهة الدّين لسببين :

أحدهما ـ أنها خافت أن يظن بها الشر في دينها وتعير ، فيفتنها ذلك.

الثاني ـ لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والنسبة إلى الزنى ، وذلك مهلك. فخافت صونا لسمعتها الدينية ، وحماية لتدين الآخرين حتى لا يقعوا في الذنب.

٣ ـ تظاهرت الروايات بأن السيدة مريم ولدت عيسى عليه‌السلام لثمانية أشهر ، وقد عاش ، وتلك خاصة له ، وقيل : ولدته لتسعة ، أو لستة. ويرى ابن عباس كما تقدم أنها حملت فوضعت في الحال ؛ لأن الله تعالى ذكر الانتباذ عقب الحمل.

٤ ـ لقد اقترنت ولادة السيدة مريم بأنواع من الألطاف الإلهية ، فقد ناداها جبريل عليه‌السلام بأن الله جعل من تحتها نهرا صغيرا لتشرب منه ، وأسقط لها رطب النخلة ، ويقال : إنها أثمرت لها ، وصار رطبها قابلا للأكل والاجتناء بقدرة الله ، وطيب الله نفسها وأقر عينها ، فأزال عن قلبها الكآبة والحزن ، وأمرها على لسان جبريل بالإمساك عن كلام البشر حتى لا تتعب نفسها بالحوار والنقاش وردّ التّهم ، وأحالت الأمر على ابنها الذي أنطقه الله في المهد مدافعا عنها ، ليرتفع عنها خجلها ، وتتبين الآية ، فيظهر عذرها. وكل هذه آيات خارقة للعادة أظهرها الله بمناسبة ميلاد عيسى عليه‌السلام.

٥ ـ استدل العلماء بهذه الآية على أن الرزق ، وإن كان محتوما ، فإن الله تعالى ربطه بالسعي ، ووكل ابن آدم إلى سعي ما فيه ؛ لأنه سبحانه أمر مريم بهز النخلة لترى آية ، وكانت الآية ألا تهتز النخلة ؛ لأن جذعها صلب قوي ثخين يصعب تحركه.

٦ ـ الأمر بتكليف الكسب في الرزق سنة الله تعالى في عباده ، وأن ذلك لا يتعارض مع التوكل ، فإن التوكل على الله يكون بعد اتخاذ الأسباب. وقد كانت مريم قبل الولادة يأتيها رزقها من غير تكسب ، تكريما خاصا لها ، كما قال

تعالى : ﴿كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً ..﴾ الآية [آل عمران ٣ / ٣٧] فلما ولدت أمرت بهز الجذع ؛ لأن قلبها قبل الولادة كان مشغولا بالعبادة متفرغا لها ، فلم تشغل أعضاؤها بتعب التكسب ، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه ، واشتغل سرها بحديثه وأمره ، أمرت بالكسب ، وردت إلى العادة بالتعلق بالأسباب ، كسائر العباد.

٧ ـ الرطب خير شيء للنفساء ، وكذلك التحنيك به للمولود ، فإذا عسرت الولادة لم يكن للمرأة خير من الرطب ، ولا للمريض خير من العسل.

٨ ـ في أمر مريم بالسكوت عن الكلام دليل على أن السكوت عن السفيه واجب ، ومن أذلّ الناس سفيه لم يجد مسافها.

٩ ـ من التزم بالنذر بألا يكلم أحدا من الآدميين ، أو نذر الصمت ، فذلك كان مشروعا في شريعة موسى وعيسى عليهما‌السلام ، وليس في شريعتنا ، فلا يجوز نذر الصمت في شرعنا ؛ لما فيه من التضييق وتعذيب النفس ، كنذر القيام في الشمس ونحوه ، مما لم يجزه النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق بالكلام ، كما تقدم. وهذا هو الصحيح لحديث أبي إسرائيل : الذي نذر الصوم في الشمس ، فأمره النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بأن يتكلم ويتم صومه في الظل ، والحديث خرّجه البخاري عن ابن عباس. قال ابن زيد والسدّي كما تقدم : كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام.

ومن سنتنا نحن في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح ، قال عليه الصلاة والسلام في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعا : «إذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه ، فليقل : إني صائم» وقال أيضا فيما رواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة : «من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

ـ ٣٠ ـ

نبوة عيسى ونطقه وهو طفل في المهد

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا (٢٧) يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾

الإعراب :

﴿تَحْمِلُهُ﴾ جملة حالية.

﴿يا أُخْتَ﴾ التاء هنا بدل عن واو ، وليست للتأنيث ؛ لأنها تكتب بالتاء لا بالهاء نحو قائمة وذاهبة ، مثل تاء : بنت.

﴿بَغِيًّا﴾ على وزن فعول لا فعيل ؛ لأنه هنا بمعنى فاعل ، وأتى بغير تاء. وهو صفة للمؤنث. كقولهم : امرأة صبور وشكور. وقد يأتي فعول بغير هاء إذا كان بمعنى مفعول ، مثل ﴿فَمِنْها رَكُوبُهُمْ﴾ [يس ٣٦ / ٧٢].

﴿مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ﴾ كان : إما بمعنى (حدث ووقع) فيكون ﴿صَبِيًّا﴾ حال من ضمير ﴿كانَ﴾ ، وإما بمعنى (صار) فيكون ﴿صَبِيًّا﴾ خبر (صار) وإما ﴿كانَ﴾ زائدة. و ﴿صَبِيًّا﴾ حال ، وعامله ﴿فِي الْمَهْدِ﴾. ولا يجوز جعل ﴿كانَ﴾ هنا ناقصة : لأنه لا اختصاص لعيسى بكونه في المهد ، فهذا وصف لكل صبي ، وإنما تعجبوا من كلام من صار في حال الصّبا في المهد.

﴿ما دُمْتُ حَيًّا ما﴾ مصدرية ظرفية زمانية ، أي مدة دوامي حيا ، و ﴿حَيًّا﴾ خبر ﴿ما دُمْتُ﴾ ، والجملة منصوبة على الظرف ، وعامله ﴿أَوْصانِي﴾.

﴿وَبَرًّا بِوالِدَتِي﴾ معطوف على قوله ﴿مُبارَكاً﴾ و ﴿مُبارَكاً﴾ مفعول ثان لجعل. ومن قرأ وبر عطفه على (الصلاة) أي أوصاني بالصلاة وبرّ بوالدتي.

المفردات اللغوية :

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ﴾ أتت مع ولدها قومها راجعة إليهم بعد ما طهرت من النفاس حاملة إياه. ﴿فَرِيًّا﴾ عظيما منكرا خارقا للعادة ، حيث أتيت بولد من غير أب. ﴿يا أُخْتَ هارُونَ﴾ هو أخو موسى عليه‌السلام ، وكان بينهما ألف سنة ، أو رجل صالح من بني إسرائيل ، أي يا شبيهته في العفة ، وشبهوها به تهكما. ﴿امْرَأَ سَوْءٍ﴾ أي زانيا. ﴿وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أي زانية ، فمن أين لك هذا الولد؟! وفيه تنبيه على أن الفواحش من أولاد الصالحين أفحش.

﴿فَأَشارَتْ إِلَيْهِ﴾ أشارت لهم إلى عيسى أن كلموه ليجيبكم. ﴿قالُوا : كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ﴾ أي وجد ﴿فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي لم نعهد صبيا في المهد كلمه عاقل. و ﴿الْمَهْدِ﴾ فراش الصبي الرضيع الموطّأ له ، جمع مهود.

﴿آتانِيَ الْكِتابَ﴾ أي الإنجيل ﴿مُبارَكاً﴾ نفّاعا للناس ، معلما للخير. والتعبير بالماضي: إما باعتبار ما سبق في قضاء الله ، فهو إخبار ما كتب له ، أو بجعل المحقق وقوعه كالواقع. ﴿وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ﴾ أمرني بهما أو كلفني. ﴿جَبَّاراً﴾ متعاظما لا يرى لأحد حقا عليه. ﴿شَقِيًّا﴾ عاصيا لربه. ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَ﴾ أي والأمان علي يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث حيا ، كما هو على يحيى عليه‌السلام ، والتعريف هنا في السلام على الأظهر للجنس.

التفسير والبيان :

لما اطمأنت مريم عليها‌السلام بما رأت من الآيات ، وسلمت لأمر الله عزوجل ، واستسلمت لقضائه أتت بعيسى تحمله إلى أهل بيتها ، كما قال تعالى :

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا : يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا﴾ أي لما برئت مريم من نفاسها ، جاءت به قومها تحمله من المكان القصي ، فلما رأوا الولد معها ، حزنوا وأعظموا الأمر واستنكروه جدا ، وقالوا منكرين : يا مريم ، لقد فعلت أمرا عجيبا عظيما منكرا خارجا عن المألوف وهو الولادة بلا أب ، وكانوا

أهل بيت صالحين : ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ ، ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران ٣ / ٣٣ ـ ٣٤].

﴿يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ، وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أي يا شبيهة هارون في العبادة ، أو يا من أنت من نسل هارون أخي موسى ، كما يقال للتميمي : يا أخا تميم ، وقيل : هارون هذا رجل صالح في ذلك الوقت ، أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة ، فكيف تأتين بمثل هذا؟ ما كان أبوك بالفاجر ، وما كانت أمك بالزانية البغي ، فمن أين يأتيك السوء ، ومن أين لك هذا الولد؟!!

أخرج أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال :

«بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران ، فقالوا : أرأيت ما تقرؤون : يا أخت هرون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال : فرجعت ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم». وهذا يرشد إلى أن هارون هو رجل صالح في زمان مريم وعيسى عليهما‌السلام . ويستفاد من هذا جواز التسمية بأسماء الأنبياء.

﴿فَأَشارَتْ إِلَيْهِ ، قالُوا : كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي فأشارت مريم إلى عيسى أن يكلمهم ، وقد اكتفت بالإشارة ولم تأمره بالنطق ، لأنها نذرت للرحمن صوما عن الكلام ، فقالوا لها متهكمين بها ، ظانين أنها تزدري بهم تهزأ : كيف نكلم طفلا ما يزال في المهد ، أي فراش الرضيع؟

وهنا ظهرت المعجزة الكبرى بنطق الرضيع ووصف نفسه بتسع صفات هي :

١ ـ ﴿قالَ : إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾ قال عيسى : إني عبد تام العبودية لله الكامل الصفات ، الذي لا أعبد غيره ، فكان أول ما نطق به الاعتراف بالعبودية لربه ،

وتبرئته عن الولد ، تنبيها للنصارى على خطئهم فيما ادعوه له من الربوبية.

٢ . ﴿آتانِيَ الْكِتابَ﴾ سينزل علي الإنجيل ، وقدّر لي وحكم في الأزل أن أكون نبيا ذا كتاب ، وقضى أنه يؤتيني الكتاب فيما قضى ، وإن لم يكن الكتاب منزّلا في الحال.

٣ . ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ أي قدّر لي أن أكون نبيا ، وفي هذا تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة ، لأن الله تعالى لا يجعل الأنبياء أولاد زنى ، وإنما هم نخبة عالية من الطهر وصفاء السلالة والمعدن.

٤ . ﴿وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ﴾ أي صيرني الله نفّاعا للعباد ، معلما للخير ، هاديا إلى الرشاد في أي مكان وجدت. وعبر تعالى عن هذه الصفات بصيغة الماضي إشارة إلى تحققها وحدوثها فعلا في المستقبل.

٥ . ﴿وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا﴾ وأمرني ربي بالصلاة التي تربط العبد بربه وتطهر النفس ، وتمنعه عن اقتراف الفاحشة ، وأمرني أيضا بزكاة المال التي هي طهرة للمال ، وعون للفقير والمسكين ، ما دمت على قيد الحياة في الدنيا.

٦ . ﴿وَبَرًّا بِوالِدَتِي﴾ أي وجعلني بارا بوالدتي مريم ، وأمرني ببرها وطاعتها والإحسان إليها بعد طاعة ربي ، لأن الله كثيرا ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين. وهذا أيضا دليل على نفي الزنى عنها ، إذ لو كانت زانية ، لما كان الرسول المعصوم مأمورا بتعظيمها.

٧ . ٨ : ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا﴾ أي ولم يجعلني متعظما عاصيا مستكبرا عن عبادة ربي وطاعته وبر والدتي ، فأشقى بذلك.

٩ . ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي

والسلامة علي من كل سوء يوم الميلاد ، فلم يضرني الشيطان في ذلك الوقت ، ولا أغواني عند الموت ، ولا عند البعث ، فأنا في أمان لا يقدر أحد على ضري في هذه الأوقات الثلاثة. وهذا إثبات منه لعبوديته لله عَزَّوَجَلَّ ، وأنه مخلوق من خلق الله الذي يحيى ويموت ويبعث كسائر الخلائق ، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ . جاءت مريم المؤمنة الواثقة بتأييد الله لها قومها مع ولدها ، لما اطمأنت بما رأت من الآيات ، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها.

٢ . يتأثر الناس عادة بظواهر الأمور ويتعجلون بالحكم عليها ، فاتهموا مريم بأنها جاءت شيئا فريا ، أي أمرا عظيما كالآتي بالشيء يفتريه ، وأنكروا عليها بما عرفوا عنها من سيرة حميدة قضت شبابها في التبتل والعبادة ، وبما علموا من استقامة أبويها.

فقالوا لها : يا أخت هارون ، بمعنى : يا من كنا نظنّها مثل هارون في العبادة تأتي بمثل هذا؟ فهي كانت من ولد أو سلالة هارون أخي موسى ، وإن كان بين موسى وهارون وبين عيسى زمان مديد قدّر بألف سنة فأكثر ، فنسبت إليه بالأخوة ، لأنها من ولده ، كما يقال للتميمي : يا أخا تميم ، وللعربي : يا أخا العرب.

وقيل : هارون هذا رجل صالح في ذلك الزمان ، تبع جنازته يوم مات أربعون ألفا ، كلهم اسمه هارون. ويؤيد ذلك الحديث الثابت المتقدم.

٣ . من معجزات عيسى عليه السلام نطقه وهو صغير في المهد ، ونحن

المسلمون نعتقد بهذا اعتقادا جازما ، لإثباته بنص القرآن القاطع ، وأما اليهود والنصارى فينكرون أنه تكلم في المهد. وكان نطقه إظهارا لبراءة أمه ، ثم انقطع كلامه في المهد حتى بلغ مبلغ الغلمان.

٤ ـ وصف عيسى عليه السلام نفسه في كلامه المبين وهو طفل رضيع بصفات تسع ، جمعت بين إثبات النبوة وإنزال الإنجيل عليه في المستقبل ، وتبرئة أمه من تهمة الزنى ، وإثبات عبوديته لله عزّ وجلّ ، فهو عبد لله لا ربّ ولا إله ، كما يعتقد النصارى ، واتصافه بالبركات ومنافع الدين والدعوة إليه ، واستقامة سلوكه وأخلاقه ، فهو برّ بوالدته ، ليس متعظما متكبرا ، ولا عاصيا خائبا من الخير ، ملتزما تشريع الله في العبادة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بعد بلوغه من التكليف.

٥ ـ قوله تعالى : ﴿وَبَرًّا بِوالِدَتِي﴾ أي جعلني برا بوالدتي يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى ، لأن الآية تدل على أن كونه برا ، إنما حصل بجعل الله وخلقه.

٦ ـ قال مالك بن أنس رحمه الله تعالى في هذه الآية : ما أشدها على أهل القدر [1]! أخبر عيسى عليه السلام بما قضي من أمره ، وبما هو كائن إلى أن يموت.

٧ ـ الإشارة بمنزلة الكلام وتدل على ما يدل عليه ويحدث بها الإفهام والفهم ، كيف لا ، وقد أخبر الله تعالى عن مريم ، فقال : ﴿فَأَشارَتْ إِلَيْهِ﴾ وفهم منها القوم مقصودها وغرضها فقالوا : ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ﴾. وقد تكون الإشارة في كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام ، مثل قوله عليه الصلاة والسلام : فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي عن أنس «بعثت أنا والساعة كهاتين». وإجماع العقلاء على أن العيان أقوى من الخبر ، دليل على أن الإشارة

---

(١) هم القدرية الذين يقولون : إن العبد يخلق أفعال نفسه ، والمعاصي لا يريدها الله تعالى.

قد تكون في بعض المواضع أقوى من الكلام.

لذا قرر المالكية والشافعية جواز الاعتماد على الإشارة في المعاملات والعقوبات ، وقد نص الإمام مالك على أن شهادة الأخرس مقبولة إذا فهمت إشارته ، وأنها تقوم مقام اللفظ بالشهادة ، وأما إذا كان الشخص قادرا على اللفظ ، فلا بد من الكلام.

وذهب الحنفية وأحمد والأوزاعي وإسحاق إلى أنه لا يصح قذف الأخرس ولا لعانه ، وإنما يصح القذف عندهم بصريح الزنى دون معناه ، وهذا لا يصح من الأخرس ضرورة ، فلم يكن قاذفا ، ولا يتميز بالإشارة بالزنى من الوطء الحلال والشبهة ، قالوا : واللعان عندنا شهادات ، وشهادة الأخرس لا تقبل بالإجماع.

٨ ـ حظي عيسى بالسلامة من الله تعالى يوم ولادته في الدنيا من همز الشيطان ، ويوم الموت في القبر ، ويوم البعث في الآخرة ، وهذه الأحوال الثلاثة مراحل مصيرية حاسمة فاصلة ، وأشق شيء على الناس.

ـ ٤ ـ

اختلاف النصارى في شأن عيسى

﴿ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (٤٠)﴾

الإعراب :

﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ منصوب على المصدر ، أي أقول قول الحق ، وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : ذلك قول الحق ، أو هذا قول. وقيل : إن الإشارة إلى عيسى ، لأن الله تعالى سماه كلمة ، إذ كان بالكلمة ، على ما قال الله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ قالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾.

﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ بالرفع بتقدير هو ، وبالنصب بتقدير : أن.

﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي﴾ من قرأها بالكسرة جعلها مبتدأ ، ومن قرأ بالفتح ، جعلها معطوفة ، وتقديره : وأوصاني بالصلاة والزكاة وأن الله ربي.

﴿مِنْ وَلَدٍ مِنْ﴾ زائدة ، أي : ما كان لله أن يتخذ ولدا. وزيدت هنا في المفعول ، وزيادتها في الفاعل أكثر ، مثل : ما جاءني من أحد ، أي ما جاءني أحد.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم ، والجار والمجرور في موضع رفع فاعل ﴿أَسْمِعْ﴾. والأصل أن يقول : وأبصر بهم ، لكنه حذف ﴿بِهِمْ﴾ اكتفاء بذكره مع ﴿أَسْمِعْ﴾. وهي صيغة تعجب ، وليس بأمر ، بدليل وروده بلفظ واحد في المذكر والمؤنث والتثنية والجمع.

﴿يَوْمَ يَأْتُونَنا﴾ منصوب على الظرف ، متعلق بفعل التعجب.

﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ إِذْ﴾ بدل من اليوم أو ظرف للحسرة. ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ تأكيد.

البلاغة :

﴿لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ الظَّالِمُونَ﴾ واقع موقع الضمير ، فهو من قبيل إقامة الظاهر مقام المضمر ، للدلالة على ظلم أنفسهم.

المفردات اللغوية :

﴿ذلِكَ عِيسَى ...﴾ أي الذي تقدم نعته هو عيسى ابن مريم ، لا ما يصفه النصارى ، وهو تكذيب لهم فيما يصفونه على الوجه الأبلغ ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ أي هو قول الحق الذي لا ريب فيه ، أو أقول قول الحق ، والإضافة للبيان ، والضمير للكلام السابق ، أو لتمام القصة ﴿يَمْتَرُونَ﴾ يشكون ويتنازعون ﴿ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ، سُبْحانَهُ﴾ تكذيب للنصارى ، وتنزيه لله تعالى عما بهتوه ، والمعنى : ما ينبغي ولا يصح أن يجعل له ولدا. ﴿إِذا قَضى أَمْراً﴾ أراد أن يحدث أمرا

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ﴾ تبكيت لهم بأن الله إذا أراد شيئا أوجده بكلمة ﴿كُنْ﴾: كان تعالى منزها عن شبه الخلق والحاجة في اتخاذ الولد، بإحبال الإناث. وبعبارة أخرى: القادر على الخلق بالأمر الفوري، قادر على خلق عيسى من غير أب.

﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ بتقدير: قل، بدليل: ﴿ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة ٥ / ١١٧] وعلى الفتح بتقدير: اذكر ﴿هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ هذا المذكور طريق مستقيم مؤد إلى الجنة. ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي اختلف النصارى في عيسى، أهو ابن الله، أم إله معه، أم ثالث ثلاثة؟ فالأحزاب: فرق النصارى الثلاث أو اختلف اليهود والنصارى. ﴿فَوَيْلٌ﴾ كلمة عذاب أي فشدة عذاب، أو واد في جهنم ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ويل لهم بما ذكر وغيره ﴿مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ من شهود أو حضور يوم عظيم هوله وحسابه وجزاؤه، وهو يوم القيامة.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي بهم، صيغة تعجب، بمعنى: ما أسمعهم وما أبصرهم يوم يأتوننا في الآخرة، أو يوم القيامة، بعد ما كانوا صما عميا في الدنيا ﴿لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي لكن الكافرون في الدنيا في خطأ بيّن، به صموا عن سماع الحق، وعموا عن إبصاره، أي أعجب منهم يا مخاطب في سمعهم وإبصارهم في الآخرة، بعد أن كانوا في الدنيا صميا عميا. وذكر كلمة ﴿الظَّالِمُونَ﴾ من إقامة الظاهر مقام المضمر، إشعارا بأنهم ظلموا أنفسهم، حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين ينفعهم.

﴿وَأَنْذِرْهُمْ﴾ خوّف يا محمد كفار مكة ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ هو يوم القيامة، يوم يتحسر فيه المسيء على ترك الإحسان في الدنيا، والمحسن على قلة إحسانه ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فرغ من الحساب، وسيق الفريقان إلى الجنة والنار. ﴿وَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عنه ﴿وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ به ﴿نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها﴾ العقلاء وغيرهم بإهلاكهم ﴿وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ﴾ فيه للجزاء.

إيضاح آية ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ بحديث صحيح:

روى الشيخان والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت بهيئة كبش أملح [١]، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون [٢] وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد

---

(١) الأملح: الذي يخالط بياضه سواد.

(٢) يشرئبون: يمدون أعناقهم.

رأوه ، ثم ينادي مناد : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رأوه ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقول : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار ، خلود فلا موت ، ثم قرأ : ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ، وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾».

أضواء على قصة عيسى عليه‌السلام :

عيسى : هو عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل ، ذكر اسمه في القرآن بلفظ المسيح وهو لقب له ، وبلفظ عيسى وهو اسمه ، وهو بالعبرية «يشوع» أي المخلّص ، أي يخلص النصارى ـ في زعمهم ـ من الخطيئة ، وذكر بلفظ ابن مريم.

ذكر عيسى في القرآن في ثلاث عشرة سورة في ثلاث وثلاثين آية منه : في البقرة [٨٧ ، ١٣٦ ، ٢٥٣] ، وآل عمران [٤٥ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٨٤] ، والنساء [١٥٧ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٧٢] ، والمائدة [١٧ ، ٤٦ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٦] ، والأنعام [٨٥] ، والتوبة [٣٠ ، ٣١] ، ومريم [٣٤] ، والمؤمنون [٥٠] ، والأحزاب [٧] ، والشورى [١٣] ، والزخرف [٥٧ ، ٦٣] ، والحديد [٢٧] ، والصف [٦ ، ١٤].

ونشأ عيسى المسيح في رأي النصارى وهو ابن يوسف النجار الذي هو شاب صالح من شبان اليهود ، من قوم مريم ، والمسيح في العبرية : النبي والملك.

وأمه مريم بنت عمران الذي كان رجلا عظيما من علماء بني إسرائيل ، وقد حملت زوجه ، فنذرت أن تجعل الحمل محررا لخدمة الهيكل. وتوفي عمران ، وابنته صغيرة تحتاج إلى كافل يقوم بشأنها ، فألقى رعاة الهيكل قرعة ، فكان كافلها

زكريا أبو يحيى عليهما السلام . وكان زكريا زوجا لخالة مريم أو لأختها ، فنشأت مريم على الطهارة والعبادة والبعد عن الدنس.

ولما بلغت مبلغ النساء جاءها جبريل ، فتعوذت منه ، فأعلمها أنه مرسل من عند الله ، ليهب لها غلاما زكيا ، وتم حملها بنفخة منه في جيب قميصها ، فدخلت في جوفها ، ومرت بجميع أدوار الحمل إلى أن ولدته في بيت لحم ، والراجح أن مدة حملها تسعة أشهر ، بحسب الغالب. وهذا الحمل استثناء مما هو حادث عادة ، ليكون دليلا على قدرة الله تعالى ، بخلق إنسان بلا أب ، خلافا للمعتاد ، لأن الخالق الحقيقي هو الله عز وجل ، سواء مع اتخاذ الأسباب أم لا.

وقد ختن المسيح بعد ثمانية أيام من ولادته ، كما تقرّر الشريعة اليهودية ، وقد أمر الله إبراهيم بالختان.

ولما أمر هيرودس حاكم فلسطين بقتل كل طفل في بيت لحم ، أمر يوسف النجار في منامه بأن يذهب بالطفل وأمه إلى مصر ، فقام من فوره ، وأخذ الطفل وأمه ، وذهب بهما إلى مصر ، وأقاموا بها ، إلى أن مات هيرودس.

ثم عادوا إلى فلسطين ، وكان الطفل قد بلغ سبع سنين من العمر ، فتربى في الناصرة ، ولما بلغ اثني عشر عاما ، جاء مع أمه ويوسف إلى أورشليم ، للصلاة بحسب شريعة موسى ، وفي اليوم الثالث بعد ضياعه ، وجد عيسى يحاج علماء اليهود ، ثم عاد مع أمه ويوسف إلى الناصرة.

ولما بلغ يسوع ثلاثين سنة من العمر ، صعد إلى جبل الزيتون مع أمه ليجني زيتونا ، وبينما كان يصلي في الظهيرة ، تلقى الإنجيل من الملاك جبريل عليه السلام ، وهذا كنبوة يحيى خلافا للغالب في أن النبوة تكون بعد الأربعين.

الأناجيل :

ومعنى الإنجيل : البشارة ، وهو كتاب تضمن هدى ونورا ، لكن هذا الإنجيل الذي أتى به المسيح وسلمه إلى تلاميذه وأمرهم أن يبشروا به لا يوجد الآن ، وإنما توجد قصص تاريخية تسرد سيرة المسيح ، ألّفها التلاميذ ، وفيها مواعظ وأمثال ونصائح مأخوذة عن المسيح ، وهي كثيرة بلغت مائة ونيفا ، تعترف الكنيسة المسيحية بأربعة منها : هي إنجيل متى ، وإنجيل مرقس ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا. ولم يكتب شيء من هذه الأناجيل في زمان المسيح.

وإنجيل متى هو أول الأناجيل وأقدمها ، لكنه ليس من تصنيفه يقينا ، بل ضيعوه بعد ما حرفوه ، باعتراف قدماء المسيحية كافة ، وقد كتب بالعبرانية ، ثم ترجم إلى اليونانية ، ولا يعرف إسناد هذه الترجمة.

وكان متّى قد كتب إنجيله سنة ٣٩ بعد المسيح ، على ما ذهب إليه القديس «إيرونيموس».

ومرقس كان يهوديا لاويا أي من خدم الهيكل ، وهو تلميذ بطرس ، وكان ينكر ألوهية المسيح ، وكتب إنجيله سنة ٦١ م ومات مقتولا في سجن الإسكندرية سنة ٦٨ م.

ولوقا : كان طبيبا من أهل أنطاكية ولم ير المسيح أصلا ، وقد لقن النصرانية عن بولس ، وبولس هذا كان يهوديا متعصبا على المسيحية ، ولم ير المسيح في حياته ، وكان يسيء إلى النصارى باستمرار ، ولما رأى أن اضطهاده للنصرانية لا يجدي ، احتال بالدخول فيها ، وأظهر الاعتقاد بالمسيح ، ثم استطاع أن يجعل النصارى يتحللون من واجبات الناموس (التوراة) الذي ما جاء المسيح لإبطال أحكامه.

وكتب لوقا إنجيله بعد كتابة مرقس ، وبعد موت بطرس وبولس.

ويوحنا أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر ، وهو من صيدا في الجليل ، وكان عيسى يحبه جدا ، وقد كتب إنجيله في سنة ٩٦ أو سنة ٩٨ ، وكان يرى أن المسيح ليس إلا إنسانا ، وقد أنكر كثير من علماء النصرانية أن يكون هذا الإنجيل من تأليف يوحنا التلميذ ، وإنما صنفه أحد تلاميذه في القرن الثاني ، ونسبه إلى يوحنا ليغتر به الناس. وقد كتب لغرض خاص هو إثبات ألوهية المسيح ، والقضاء على التعاليم التي كانت تؤكد أنه إنسان.

والخلاصة : إن هذه الأناجيل منقطعة السند إلى المسيح ، وليست هي الإنجيل الصحيح الذي نزل على المسيح باعتراف النصارى أنفسهم.

إنجيل برنابا :

هو أحد الأناجيل التي ألفت في قصة المسيح ، وبرنابا أحد أتباع المسيح المواظبين على نشر دعوته ، ويختلف عن الأناجيل الأخرى في أمرين جوهريين : الأول ـ التصريح بأن عيسى إنسان وليس بإله. والثاني ـ التصريح والتبشير باقتراب ملكوت السموات وباسم محمد في كثير من المواضع.

رسالة عيسى :

تتلخص رسالة عيسى عليه‌السلام فيما يأتي :

١ ـ التخفيف من تنطع اليهود ، والتزامهم بالشكليات المؤدية إلى تعطيل الخير في يوم السبت ، وتوجيههم إلى جوهر الدين وحقيقته ، وإبعادهم عن المادية الطاغية وتهالكهم على المال وحبه وجمعه ، بتحريض الناس على النذر للهيكل ، لأخذ ذلك المال.

٢ . رد اليهود الذين يسمون بالصدوقيين إلى عقيدة الإيمان باليوم الآخر التي أنكروها ، وتثبيت الإيمان في قلوبهم.

٣ . تصحيح مسيرة اليهود الذين يسمون بالفريسيين وهم في الأصل قوم تجردوا لطاعة الله تعالى ، وتفردوا للعبادة ، وزهدوا في حطام الدنيا ، وأقبلوا على الآخرة ، ولكنهم أصبحوا في زمن المسيح يظهرون بمظهر الزهد فقط ، ويتخذونه ستارا لجمع المال.

وكان هناك جماعة الكتبة الذين يكتبون الشريعة لمن يطلبها ، وهم كالفريسيين في اقتناص أموال الناس.

وكذلك الكهنة وخدمة الهيكل صاروا متهالكين على جمع المال ، يحرفون كلام الله لأغراض دنيوية.

فكانت هذه العيوب كلها موجبة لصيحة المسيح المدوية بالزهد في الدنيا ، وإصلاح النفوس من أمراضها ، وتوجيه الناس إلى مرضاة الرب عزّ وجلّ .

٤ . البشارة باقتراب ملكوت السموات ، أي الشريعة الإلهية التي يرسل الله تعالى بها النبي الأمي المذكور في آية [١٥] وما بعدها من الإصحاح ١٨ . سفر التثنية ، الذي وعد الله بني إسرائيل على لسان موسى أن يرسله من بين إخوتهم ، كما بشر به أنبياء كثيرون ، منهم داود في المزمور (٤٥) والمزمور (١٤٩) و (١١٠) وأشعيا في الإصحاحات (٨ ، ٩ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٥) ودانيال في ص (٢ ، ٧) وزكريا في ص (٣) وغيرهم. والمسيحيون يحملون البشارة على الدين المسيحي.

لكن لم يجئ المسيح بغير طائفة من العظات والنصائح والحكم والأمثال ، لإخلاص العبادة لله تعالى ، والتخفيف من ماديات الجماهير التي غرقوا بها إلى الآذان ، وترك الرياء والنفاق ، والاهتمام بروح الدين الذي ورثوه عن موسى.

وليس في الإنجيل سوى أحكام قليلة ، مثل عدم تزوج من طلق امرأة بامرأة سواها ، وعدم تزوج المطلقة بآخر ، وعدم جواز الطلاق إلا بعلة الزنى ، والأمر بالعفة. وفيه نهي عن الأخلاق المرذولة كالمكر والخداع وأكل الأموال بالباطل ، والرياء والنفاق.

الحواريون :

هم أصحاب المسيح عيسى ابن مريم وخاصته الذين بادروا إلى الإيمان به وتتلمذوا له وتعلموا منه ، وكانوا اثني عشر رجلا. وتعبر عنهم الأناجيل بلفظ (التلاميذ). وقد أرسلهم المسيح في القرى اليهودية ليدعوا الكفار بدعوة المسيح الحقيقية.

معجزات عيسى :

صدرت عن عيسى كغيره من الأنبياء معجزات تؤيد دعواه النبوة ، والمعجزة : أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي يجريه الله تعالى على يد أحد الأنبياء مع انتفاء المعارض ، منها خلق هيئة الطير من الطين والنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله ، والإخبار بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم ، وقد ذكرت في سورة آل عمران [الآيات : ٤٩ ـ ٥١].

وفاة المسيح :

كان افتضاح أمر الكهنة والفريسيين على يد المسيح عليه السلام سببا في كيدهم له ، وشكايتهم إلى الوالي ، مدّعين عنده أن عيسى يقول : إنه ملك اليهود ، وهم لا يقرون بملك سوى قيصر رومية ، فأرسل الوالي جندا للقبض على المسيح ، فحينما جاؤوا يبحثون عنه ألقى الله شبهه على شخص آخر ، هو (يهوذا

الأسخريوطي) فألقوا القبض عليه وصلب وقتل ، وهو الذي واطأ الكهنة على الدلالة عليه بأجر.

وأنجى الله عيسى من اليهود ، فلم يقبضوا عليه ، ولم يقتل ولم يصلب ، لقوله تعالى : ﴿وَما قَتَلُوهُ وَما صَلَبُوهُ وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء ٤ / ٥٧]. ثم توفاه الله ، ورفعه إليه إلى السماء حيا بجسده وروحه ، أو بروحه فقط على قولين ، والأول رأي جمهور المسلمين ، لقوله تعالى : ﴿إِذْ قالَ اللهُ : يا عِيسى ، إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَ﴾ [آل عمران ٣ / ٥٥].

الثالوث عند النصارى :

يعتقد النصارى بوجود ثلاثة أقانيم في اللاهوت هي (الأب والابن وروح القدس) وفقا لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية ، والشرقية ، وعموم البروتستانت إلا القليل منهم ، مع أن لفظة الثالوث لا توجد في الكتاب المقدس ، وإنما تقرر ذلك في المجمع النيقاوي سنة (٣٢٥ م) ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ م ، وحكما بأن (الابن والروح القدس) مساويان للأب في وحدة اللاهوت ، وأن (الابن) ولد منذ الأزل من الأب ، وأن (الروح القدس) منبثق من الأب. ومجمع طليطلة سنة ٥٨٩ م حكم بأن (الروح القدس) منبثق من الابن أيضا.

التفسير والبيان :

﴿ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي ذلك المتصف بالأوصاف السابقة الذي قصصناه عليك هو عيسى ابن مريم ، وهذا الكلام المذكور هو قول الحق والصدق الذي لا مرية فيه ولا شك ، وهو حقيقة عيسى ، لا ما يقوله اليهود : إنه ساحر ، ولا ما يقوله النصارى : إنه ابن الله أو هو الله كما يذكر في مقدمة الإنجيل الحالي : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ قالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ ، الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي الشاكّين [آل عمران ٣ / ٥٩ ـ ٦٠]. وهؤلاء الضالون والمغضوب عليهم يشكون

ويتنازعون ويختلفون في عيسى عليه السلام : ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً﴾ [النساء ٤ / ١٥٦].

ثم نفى الله تعالى عنه أنه ولد له ، فقال :

﴿ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ ، إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي ما صح ولا استقام ولا ينبغي ولا يليق بالله أن يتخذ ولدا ؛ إذ لا حاجة له به ، وهو حيّ أبدا لا يموت ، تنزه وتقدس الله عن مقالتهم هذه ، وعن كل نقص من اتخاذ الولد وغيره ، إنه إذا أراد شيئا أوجده فورا ، فإنه يأمر به فيصير كما يشاء ، فمن كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ لأن ذلك من أمارات النقص والحاجة : ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ، وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ ...﴾ [النساء ٤ / ١٧١].

﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده أن أخبرهم بقوله : ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾.

ثم أمرهم بعبادة الله قائلا :

﴿فَاعْبُدُوهُ ، هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي فاعبدوا الله وحده لا شريك له ، وهذا الذي جئتكم به عن الله هو الطريق القويم الذي لا اعوجاج فيه ، ولا يضلّ سالكه ، من اتبعه رشد وهدي ، ومن خالفه ضلّ وغوى.

جاء في الآية (١٠) من الإصحاح الرابع في إنجيل متى : «قال له يسوع : اذهب يا شيطان ؛ لأنه مكتوب : للرب إلهك تسجد ، وإياه وحده تعبد».

وبما أنه لا يصحّ أن يقول الله : ﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ فلا بدّ وأن يكون قائل هذا غير الله تعالى؟ قال أبو مسلم الأصفهاني : الواو في ﴿وَإِنَّ اللهَ﴾ عطف على قول عيسى عليه السلام : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الْكِتابَ﴾ كأنه قال : إني عبد الله ، وإنه ربي وربكم فاعبدوه.

وبالرغم من وضوح أمر عيسى وأنه عبد الله ورسوله ، اختلفوا فيه ، كما قال تعالى : ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله وأنه عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فاليهود قالوا : إنه ولد زنى ، وإنه ساحر ، وكلامه هذا سحر ، وإنه ابن يوسف النجار ، واختلفت فرق النصارى فيه ، فقالت النسطورية منهم : هو ابن الله ، وقالت الملكية : هو ثالث ثلاثة ، وقالت اليعقوبية [١] : هو الله تعالى.

فعذاب شديد لهؤلاء الكافرين المختلفين في أمره ، من شهود يوم القيامة ، وما فيه من الحساب والعقاب ، حيث يشهدون حينئذ ذلك اليوم العظيم الهول.

وهذا تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله ، وافترى وزعم أن له ولدا ، ولكن الله تعالى أنظرهم إلى يوم القيامة ، وأجّلهم حلما وثقة بقدرته عليهم ، فإنه الذي لا يعجل على من عصاه ، كما جاء في الصحيحين : «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى ، وَهِيَ ظالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود ١١ / ١٠٢].

وفي الصحيحين أيضا عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولدا ، وهو يرزقهم ويعافيهم» وقد قال الله تعالى : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها ، وَهِيَ ظالِمَةٌ ، ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج ٢٢ / ٤٨] وقال تعالى : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٤٢].

---

(١) النسطورية : نسبة إلى عالم يسمى نسطور ، والملكية أو الملكانية : نسبة إلى الملك قسطنطين الفيلسوف العالم ، واليعقوبية : نسبة إلى عالم يسمى يعقوب.

والخلاصة في صحة الاعتقاد بعيسى عليه السلام هو ما جاء في الحديث الصحيح عند الشيخين عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

ثم أخبر الله تعالى عن قوة سمع الكفار وحدة بصرهم يوم القيامة على الضدّ في الدنيا ، فقال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا ، لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي ما أقوى سمع الكفار وأشد بصرهم يوم يأتوننا للحساب والجزاء ، إنهم يكونون أسمع شيء وأبصره ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا ..﴾ [السجدة ٣٢ / ١٢] أي يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئا.

لكن هؤلاء الظالمون الكافرون يعرفون الحق في الآخرة ، وفي الدنيا صم بكم عمي عن الحق ، لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون ، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون ، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك ، ويتمنون الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا تقصيرهم.

ثم أمر الله بإنذارهم ، فقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ، إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ، وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي وأنذر أيها الرسول الخلائق من المشركين وغيرهم يوم يتحسرون جميعا ، فالمسيء يتحسر على إساءته ، والمحسن على عدم استكثاره من الخير ، حين فرغ من الحساب ، وطويت الصحف ، وفصل بين أهل الجنة ، وأهل النار ، وصار الأولون في الجنة ، والآخرون في النار ، وهم الآن في الدنيا غافلون عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة ، غافلون عما يعمل بهم في ذلك اليوم وعما يلاقونه من أهوال ، وهم لا يصدقون بالقيامة والحساب والجزاء.

روى الإمام أحمد والشيخان والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، يجاء بالموت كأنه كبش أملح (أبيض وأسود) فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال : فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم ، هذا الموت ، فيؤمر به فيذبح ، ويقال : يا أهل الجنة ، خلود ولا موت ، ويا أهل النار ، خلود ولا موت ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ، وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ وأشار بيده وقال : أهل الدنيا في غفلة الدنيا».

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها ، وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ﴾ أي وأعلمهم أيها الرسول بأن الله يرث الأرض ومن عليها ، فلا يبقى بها أحد من أهلها يرث الأموات ما خلّفوه من الديار والمتاع ، ثم إلى الله يردون يوم القيامة ، فيجازي كلا بعمله ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات الكريمات ما يأتي :

١ ـ إن ما أخبر به القرآن عن كيفية خلق عيسى هو الحق القاطع الذي لا شك فيه ، وكل ما عداه من تقولات ومزاعم اليهود والنصارى باطل ساقط لا يليق بالأنبياء والرسل ، وكيف يتقبل النصارى الزعم بأن عيسى ربّ وإله ، وهم يتهمونه بأنه ابن زانية بغي؟! وإن الاختلاف في شأن عيسى وانقسام أهل الكتاب فيه أحزابا لا داعي له.

٢ ـ ليس عيسى ابنا لله كما يزعم النصارى ، فما ينبغي لله ولا يجوز أن يتخذ ولدا ، لعدم حاجته إليه ، فهو منزه عن الشريك والولد وكل نقص ، وإن الله تعالى إذا أراد إحداث شيء قال له : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ فهو القادر على كل

شيء ، وقول الله وكلامه قديم غير محدث ، فلو كان قوله : ﴿كُنْ﴾ محدثا لافتقر حدوثه إلى قول آخر ، ولزم التسلسل ، وهو محال.

٣ ـ لقد أمر عيسى عليه السلام قومه بوحدانية الله وعبادته ، فالله ربه وربهم ورب كل شيء ، وهو المستحق العبادة ، لا أحد سواه ، وهذا هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه.

وقد دلّ قوله : ﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ على أن مدبر الناس ومصلح أمورهم هو الله تعالى ، على خلاف قول المنجمين : إن مدبر الناس ومصلح أمورهم في السعادة والشقاوة هي الكواكب.

ودلّ أيضا على أن الإله واحد ؛ لأن لفظ الله اسم علم له سبحانه ، فلما قال : ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ أي لا رب للمخلوقات سوى الله تعالى ، دلّ ذلك على التوحيد.

٤ ـ اختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى عليه السلام ، فاليهود اتهموه بالسحر وقدحوا في نسبه ، والنصارى فرق ثلاث ، قالت النسطورية منهم : هو ابن الله ، والملكانية : ثالث ثلاثة ، وقالت اليعقوبية : هو الله ، فأفرطت النصارى وغلت ، وفرطت اليهود وقصّرت.

٥ ـ العذاب الشديد والهلاك لأولئك الكفار المختلفين في شأن عيسى عليه السلام عند شهود (أي حضور) يوم القيامة.

٦ ـ عرّف الله حال القوم الذين يأتونه ليعتبروا وينزجروا ، فما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة ، وما أصمهم وأعماهم في الدنيا ، فهم في ضلال مبين في عالم الدنيا ، وفي الآخرة يعرفون الحق ، ففي الدنيا يكون الكافر أصم وأعمى ، ولكنه سيبصر ويسمع في الآخرة إذا رأى العذاب ، ولكنه لا ينفعه ذلك.

٧ ـ لقد أعذر من أنذر ، وقد أنذر النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قومه والمشركين جميعا ما سيلقونه من الحسرة والندامة يوم القيامة ، ويوم الفصل في القضاء بين أهل الجنة وأهل النار ، فيدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار.

٨ ـ إنه تعالى الخالق المالك المتصرف ، وإن الخلق كلهم يهلكون ، ويبقى هو تعالى ، ولا

أحد يدعي ملكا ولا تصرفا ، بل هو الوارث لجميع خلقه ، الباقي بعدهم ، فلا تظلم نفس شيئا ولا مثقال ذرة ، ويرجع الخلائق كلهم إلى ربهم ، فيجازي كلّا بعمله.

قصة إبراهيم عليه‌السلام

أو مناقشته لأبيه في عبادة الأصنام

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (٤١) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (٤٢) يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا (٤٣) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا (٤٤) يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (٤٥) قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)﴾

الإعراب :

﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ .. إِذْ﴾ في موضع نصب على البدل من قوله : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ﴾ أي واذكر في الكتاب قصة إبراهيم ، ثم بيّن ذلك ، فقال : ﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ﴾ أي واذكر إذ قال لأبيه.

﴿أَراغِبٌ أَنْتَ .. أَراغِبٌ﴾ مبتدأ ، وابتدئ بالنكرة لاعتمادها على همزة الاستفهام. و ﴿أَنْتَ﴾ فاعل ﴿راغِبٌ﴾ ، لاعتماد اسم الفاعل على همزة الاستفهام ، فيجري حينئذ مجرى الفعل ، والفاعل هنا يسد مسد خبر المبتدأ.

﴿سَلامٌ عَلَيْكَ سَلامٌ﴾ مبتدأ ، وجاز الابتداء بالنكرة إذا كان فيها فائدة عند المخاطب ، والفائدة هنا : تضمنها معنى الدعاء والمتاركة والتبرؤ.

البلاغة :

﴿صِدِّيقاً نَبِيًّا﴾ الصدّيق : صيغة مبالغة ، أي المبالغ في الصدق.

﴿أَراغِبٌ﴾ الهمزة للإنكار والتعجب.

﴿وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ كناية عن الذكر الحسن والثناء الجميل باللسان ؛ لأن الثناء يكون باللسان.

﴿نَبِيًّا﴾ ، ﴿عَلِيًّا﴾ ، ﴿حَفِيًّا﴾ ، ﴿سَوِيًّا﴾ ، ﴿عَصِيًّا﴾ ، ﴿وَلِيًّا﴾ ، ﴿حَفِيًّا﴾ ، ﴿شَقِيًّا﴾ سجع رصين.

المفردات اللغوية :

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ﴾ أي اذكر لهم واتل عليهم في هذه السورة قصة إبراهيم أو خبره. ﴿صِدِّيقاً﴾ مبالغا في الصدق ، لم يكذب قط. ﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ﴾ آزر. ﴿يا أَبَتِ﴾ التاء : عوض عن ياء الإضافة (أبي) فلا يجمع بينهما ، وكان آزر يعبد الأصنام ، فناداه : ﴿يا أَبَتِ﴾ وهو تلطف واستدعاء. ﴿لا يُغْنِي﴾ لا يكفيك. ﴿شَيْئاً﴾ من نفع أو ضرّ. ﴿صِراطاً سَوِيًّا﴾ طريقا مستقيما مؤديا للسعادة. ﴿لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ﴾ إن عبادة الأصنام هي في الحقيقة عبادة للشيطان ، لأنه الآمر بها ، فبإطاعتك إياه في عبادة الأصنام ، تكون عابدا له. ﴿عَصِيًّا﴾ كثير العصيان. والمطاوع للعاصي عاص ، والعاصي جدير بأن ينتقم منه.

﴿أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ﴾ إن لم تتب. ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا﴾ ناصرا ، وقرينا في اللعن ، أو العذاب في النار. ﴿أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي﴾ أي أكاره لها ، فتعيبها؟ ﴿لَئِنْ لَمْ

﴿تَنْتَهِ﴾ عن التعرض لها ومقالك فيها ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي لأشتمنك بالكلام القبيح ، أو لأرجمنك بالحجارة ، فاحذرني. ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ واتركني دهرا طويلا.

﴿سَلامٌ عَلَيْكَ﴾ مني ، أي سلام توديع ومتاركة ومقابلة للسيئة بالحسنة ، أي لا أصيبك بمكروه ، ولا أقول لك بعد ما يؤذيك. ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ أي ولكن سأستغفر لك الله ، لعله يوفقك للتوبة والإيمان ، فإن حقيقة الاستغفار للكافر : استدعاء التوفيق لما يوجب مغفرته. ﴿حَفِيًّا﴾ مبالغا في برّي وإكرامي ، فيجيب دعائي. وقد وفى بوعده المذكور ، فقال في سورة الشعراء : ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي﴾.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ﴾ وأتركم وما تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ غيره. ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ وأعبده وحده. ﴿بِدُعاءِ رَبِّي﴾ بعبادته. ﴿شَقِيًّا﴾ خائب المسعى ، مثلكم في دعاء آلهتكم. وفي تصدير الكلام بعسى : تواضع وتنبيه على أن الإجابة والإثابة تفضل من الله غير واجب عليه. ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ بالهجرة إلى الشام ، والذهاب إلى الأرض المقدسة. ﴿وَهَبْنا لَهُ﴾ ابنا وابن ابن يأنس بهما ، وهما إسحاق من سارّة التي تزوج بها ، ثم ولد لإسحاق يعقوب ، ولعل تخصيصهما بالذكر ؛ لأنهما شجرتا الأنبياء. ﴿وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا﴾ وكلّا منهما أو منهم وهبناه النبوة. ﴿وَوَهَبْنا لَهُمْ﴾ للثلاثة ﴿مِنْ رَحْمَتِنا﴾ الأموال والأولاد ﴿وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي ثناء حسنا رفيعا في جميع أهل الأديان.

المناسبة :

هذه هي القصة الثالثة في سورة مريم ، فبعد أن أبان الله تعالى ضلال النصارى ، ذكر ضلال عبدة الأوثان. والفريقان ، وإن اشتركا في الضلال إلا أن ضلال الفريق الفريق الثاني أعظم ؛ لأن مقصد السورة إثبات التوحيد والنبوة والبعث والحشر ، والمنكرون للتوحيد فريقان : فريق أثبت معبودا غير الله حيا عاقلا وهم النصارى ، وفريق أثبت معبودا غير الله جمادا ليس بحي ولا عاقل ، وهم عبدة الأصنام ، فذكر الفريق الأول ، ثم الثاني ، لإبطال المذهبين.

والسبب في ذكر قصة إبراهيم هو أنه أبو العرب ، وكانوا معترفين بملته ودينه : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ﴾ [الحج ٢٢ / ٧٨] فنبههم تعالى إلى منهج إبراهيم من خلال حجاجه مع أبيه آزر.

وقد ذكرنا قصة إبراهيم في سورة البقرة ، ويلاحظ أن إبراهيم عليه السلام .كما ذكر السيوطي . عاش من العمر مائة وخمسا وسبعين سنة (١٧٥) وبينه وبين آدم ألفا سنة (٢٠٠٠) وبينه وبين نوح ألف سنة (١٠٠٠) ومنه تفرعت شجرة الأنبياء.

إسحاق عليه السلام :

هو ابن سارّة ، ولم يذكر في القرآن من قصصه إلا بشارة الملائكة به ، وأنه غلام عليم ، وأنه نبي من الصالحين ، وأن الله بارك عليه.

واليهود والنصارى يدّعون أنه الذبيح ، مع تكذيب التوراة لهذه الدعوى ، كما سأذكر في قصة إسماعيل قريبا.

وقد عاش إسحاق مائة وثمانين سنة ، ودفن في حبرون ، وهي مدينة الخليل اليوم ، بمغارة المكفيلة.

يعقوب عليه السلام :

هو إسرائيل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، تزوج بابنتي خاله (لابان) وهما (ليئة وراحيل) في فدان آرام ، ثم تزوج بجاريتيهما : زلفا وبلها ، ومنهن كان أولاده الذين ولدوا جميعا في (آرام) إلا بنيامين الذي ولد في فلسطين.

المناسبة :

هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة بعد قصتي زكريا ويحيى ، وعيسى ومريم ، وهي قصة إبراهيم عليه السلام . ومن المعلوم أن الغرض من هذه السورة بيان التوحيد والنبوة والحشر ، والمنكرون للتوحيد أثبتوا معبودا سوى الله تعالى ، وهؤلاء فريقان : منهم من أثبت معبودا غير الله حيا عاقلا فاهما وهم

النصارى ، ومنهم من أثبت معبودا غير الله جمادا ، ليس بحي ولا عاقل ولا فاهم ، وهم عبدة الأوثان.

والفريقان وإن اشتركا في الضلال ، إلا أن ضلال الفريق الثاني أعظم ، فلما بين تعالى ضلال الفريق الأول ، تكلم في ضلال الفريق الثاني ، وهم عبدة الأوثان.

التفسير والبيان :

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا﴾ هذا عطف على قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ﴾ الذي هو عطف على قوله : ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ أي واذكر أيها الرسول إبراهيم الصدّيق النبي ، خليل الرحمن ، أبا الأنبياء ، واتل خبره على الناس في الكتاب المنزل عليك ، فهو بالحجارة ، وفي ذلك إيناس للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عما يلقاه من أذى قومه ، وغلظة عمه أبي لهب ، وفظاظة أبي جهل.

﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ : يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ ، وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ اذكر إبراهيم حين قال بلطف وعقل واع وبرهان قاطع لأبيه آزر : يا أبت ، لم تعبد ما لا يسمع دعاءك إياه ، ولا يبصر ما تفعله من عبادته ، ولا يجلب لك نفعا ، ولا يدفع عنك ضررا ، وهي الأصنام الجمادات.

﴿يا أَبَتِ ، إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ ، فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا﴾ أي يا أبي ، وإن كنت من صلبك ، وتراني أصغر منك ؛ لأني ولدك ، فاعلم أني قد اطلعت من العلم من الله ، على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك ، فاتبعني في دعوتي أرشدك طريقا سويا مستقيما موصلا إلى نيل المطلوب ، منجيا من كل مرهوب ومكروه.

والمراد بالهداية : بيان الدليل وشرحه وإيضاحه ، وقوله : ﴿فَاتَّبِعْنِي﴾ ليس أمر إيجاب ، بل أمر إرشاد ، وكانت هذه المحاورة بعد أن صار إبراهيم نبيا. ويلاحظ أنه لم يصف أباه بالجهل ، ولا نفسه بالعلم الكامل ، لئلا ينفر منه ، وإنما قال : أعطيت شيئا من العلم لم تعطه.

﴿يا أَبَتِ ، لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ ، إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا﴾ أي يا أبي ، لا تطع الشيطان في عبادتك هذه الأصنام ، فإنه هو الداعي إلى عبادتها ، المستن لها ، الراضي بها ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس ٣٦ / ٦٠] وقال سبحانه : ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً ، وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطاناً مَرِيداً﴾ [النساء ٤ / ١١٧].

لا تطع الشيطان ، فإن عبادة الأصنام ، هي من طاعة الشيطان ، والشيطان عاص (كثير العصيان) مخالف مستكبر عن طاعة ربه ، حين ترك ما أمره به من السجود لآدم ، والعاصي حقيق بأن تسلب عنه النعم ، وتحلّ به النقم ، لذا طرده ربه وأبعده من رحمته ، فلا تتبعه تصر مثله ، فإن عبادة الأصنام لا يتقبلها عقل ، ولكنها تنشأ من وسوسة الشيطان وإغوائه ، فكانت عبادتها عبادة له ، وطاعة لإغوائه ، والشيطان عدو آدم وذريته ، لا يريد لكم إلا الشر.

﴿يا أَبَتِ ، إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ ، فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا﴾ يا أبي ، إني أخشى أن يصيبك عذاب الله على شركك وعصيانك لما أطلبه منك ، فتكون بذلك مواليا للشيطان ، وقرينا معه في النار ، بسبب موالاته. وهذا تحذير لأبيه من سوء العاقبة ، وإنذار بالشر ، حيث لا يكون له مولى ولا ناصر ولا مغيث إلا إبليس ، وليس له ولا لغيره من الأمر شيء ، بل اتباعه موجب لإحاطة العذاب به ، كما قال تعالى : ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ

قَبْلِك ، فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ ، فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل ١٦ / ٦٣].

وبالرغم من هذا الأدب في الدعوة إلى التوحيد مع البراهين والأدلة الدالة على بطلان عبادة الأوثان ، أجابه أبوه بما هو غير مأمول منه ، فقال تعالى :

﴿قالَ : أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ؟ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أجاب أبو إبراهيم ولده إبراهيم فيما دعاه إليه قائلا : أمعرض أنت عن تلك الأصنام ومنصرف إلى غيرها؟ وإن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها ، فامتنع عن سبها وشتمها وعيبها ، فإنك إن لم تنته عن ذلك لأرجمنك بالحجارة أو لأشتمنك ، وفارقني زمنا طويلا.

ويلاحظ أن الأب قابل ابنه بالعنف ، فلم يقل له : يا بني ، كما قال الابن له : يا أبت ، وقابل وعظه الرقيق بالتهديد والوعيد بالشتم أو بالضرب بالحجارة ، وفي ذلك تسلية للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عما يلقاه من أذى قومه ، وغلظة عمه أبي لهب ، وفظاظة أبي جهل.

ومع كل هذا أجابه إبراهيم باللطف قائلا :

﴿قالَ : سَلامٌ عَلَيْكَ ، سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ، إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي قال إبراهيم لأبيه : سلام عليك سلام توديع وترك لا سلام تحية ، فلا ينالك مني مكروه ولا أذى ، لحرمة الأبوة ، وكما قال تعالى في صفة المؤمنين : ﴿وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا : سَلاماً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٦٣] وقال سبحانه : ﴿وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقالُوا : لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ ، لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ﴾ [القصص ٢٨ / ٥٥].

ولكن سأطلب لك من الله أن يهديك ويغفر لك ، بأن يوفقك للإيمان ، ويرشدك للخير ، إن ربي كان بي لطيفا كثير البرّ ، يجيبني إذا دعوته. ونظير

الآية : ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٨٦] ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٤١]. والمراد بكل ذلك طلب الهداية وترك الضلال.

وإنما استغفر له ؛ لوعد سابق منه أن يؤمن ، كما قال تعالى : ﴿وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة ٩ / ١١٤].

ويرى ابن كثير أن الاستغفار للمشركين كان جائزا ثم نسخ في شرعنا ، فقال : وقد استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه مدة طويلة ، وبعد أن هاجر إلى الشام ، وبنى المسجد الحرام ، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام في قوله : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ﴾ وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين في ابتداء الإسلام ، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ : إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ إلى قوله : ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ، وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ..﴾ الآية [الممتحنة ٦٠ / ٤] يعني إلا في هذا القول ، فلا تتأسوا به. ثم بيّن تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه ، واستقر التشريع بما دلّ عليه قوله تعالى : ﴿ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ، وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى ، مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة ٩ / ١١٣] (١).

والخلاصة : إن الاستغفار بمعنى طلب الهداية والتوفيق حال الحياة لا بأس به ، وأما بعد الموت على الشرك أو الكفر ، فهو ممنوع ، فقول بعض الناس : المرحوم فلان ، وهو يعلم أنه مات كافرا ، غير جائز.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ١٢٣ ـ ١٢٤.

ثم قرر إبراهيم عليه‌السلام الهجرة إلى بلاد الشام ، فقال تعالى :

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَأَدْعُوا رَبِّي ، عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾

أي وأبتعد عنكم ، وأهاجر بديني عنكم وعن معبوداتكم ، حين لم تقبلوا نصحي ، وأعبد ربي وحده لا شريك له ، وأجتنب عبادة غيره ، لعلي لا أكون بدعاء ربي خائبا ، كما خبتم أنتم بعبادة تلك الأصنام التي لا تجيب دعاءكم ولا تنفعكم ولا تضركم. و ﴿عَسى﴾ ذكر ذلك على سبيل التواضع ، كقوله : ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٨٢] ويراد بها التحقق لا محالة ، فهو عليه‌السلام أبو الأنبياء. كذلك قوله : ﴿شَقِيًّا﴾ ذكره على سبيل التواضع ، وفيه تعريض بشقاوتهم في دعاء آلهتهم في قوله المتقدم لأبيه : ﴿لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾.

ولما أنفذ ما نواه وعزم عليه ، حقق الله رجاءه ودعاءه ، فقال :

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا﴾

أي فلما اعتزل إبراهيم الخليل أباه وقومه ، وترك أرضه ووطنه ، وهجر موضع عبادتهم غير الله ، وهاجر في سبيل الله إلى أرض بيت المقدس حيث يقدر على إظهار دينه ، أبدله الله من هو خير منهم ، ووهب له إسحاق بعد أن تزوج من سارّة ، وابنه يعقوب حفيده ، بدل الأهل الذين فارقهم ، وجعل الله كل واحد من إسحاق ويعقوب نبيا أقرّ الله بهم عينيه ، فكل الأنبياء من سلالتهما ، وكل الأديان تحب إبراهيم وتحترمه مع إسحاق ويعقوب.

﴿وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا ، وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي وأعطيناهم من فضلنا ورحمتنا النبوة والمال والأولاد والكتاب ، وجعلنا لهم الثناء الحسن على ألسن العباد ، كما قال تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٨٤]. قال ابن جرير : وإنما قال : ﴿عَلِيًّا﴾ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وبما أن العرب من سلالة إبراهيم ، وتدعي أنها على دين إبراهيم ، فالله ذكر لهم قصته ، ليعتبروا ويتعظوا.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستدل بالآيات على ما يأتي :

١ ـ إن أسباب إيراد قصة إبراهيم عليه‌السلام ثلاثة :

الأول ـ كان إبراهيم عليه‌السلام أب العرب ، وكانوا مقرين بعلو شأنه وطهارة دينه ، فقال الله لنبيه : اقرأ عليهم في القرآن أمر إبراهيم ، فهم من ولده ، وإنه كان حنيفا مسلما ، لم يتخذ الأنداد ، فإن كنتم مقلدين لآبائكم ، فقلدوا إبراهيم في ترك عبادة الأوثان ، وإن كنتم مستدلين فانظروا في هذه الدلائل التي ذكرها إبراهيم عليه‌السلام لتعرفوا فساد عبادة الأوثان ، وبالجملة : فاتبعوا إبراهيم إما تقليدا وإما استدلالا ، ولم تتخذون الأنداد؟! والله يقول : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة ٢ / ١٣٠].

الثاني ـ كان كثير من الكفار في زمن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم يقول : كيف نترك دين آبائنا وأجدادنا ، فذكر الله قصة إبراهيم عليه‌السلام ، وبيّن أنه ترك دين أبيه وأبطل قوله بالدليل ، فكونوا مثله.

الثالث ـ كان كثير من الكفار يتمسكون بالتقليد وينكرون الاستدلال ، كما حكى الله تعالى عنهم : ﴿قالُوا : إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٢٢] و ﴿قالُوا : وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٥٣] فحكى الله تعالى عن إبراهيم عليه‌السلام التمسك بطريق الاستدلال ، تنبيها على فساد هذه الطريقة.

٢ ـ وصف تعالى إبراهيم عليه‌السلام بأنه كان صديقا نبيا ، أي مبالغا في كونه صادقا : وهو الذي يكون عادته الصدق ، أو كثير التصديق بالحق حتى يصير مشهورا به.

٣ ـ كان إبراهيم عليه‌السلام في محاورته أباه في غاية الأدب واللطف والرفق ، فكان يكرر قوله استعطافا وشفقة : يا أبت ، ولما يئس من استجابته لدعوته ، قال : سلام عليك ، سلام متاركة وتوديع ، لا سلام تحية ، سأستغفر لك ربي ، طالبا منه هدايتك ، وكان في خطابه كله له شديد الخوف عليه من الكفر والعذاب في النار.

وكان الأب آزر مستعليا مترفعا يعتمد على التهديد والقطيعة والسب والشتم والرجم بالحجارة.

٤ ـ عاب إبراهيم عليه‌السلام الوثن من ثلاثة أوجه :

أحدها ـ لا يسمع.

الثاني ـ لا يبصر.

الثالث ـ لا يغني عنك شيئا ، كأنه قال له : بل الألوهية ليست إلا لربي ، فإنه يسمع ويجيب دعوة الداعي ويبصر ، كما قال : ﴿إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى﴾ [طه ٢٠ / ٤٦] ويقضي الحوائج : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ﴾ [النمل ٢٧ / ٦٢].

٥ ـ ليحذر الإنسان طاعة الشيطان فيما يأمره به من الكفر ، ومن أطاع شيئا في معصية فقد عبده ، والشيطان دائما عاص لربه مخالف أوامره.

٦ ـ حذر إبراهيم عليه‌السلام أباه آزر من الكفر وعاقبته ، فقال : إني أخاف أن تموت على الكفر ، فيمسّك العذاب ، فتكون للشيطان قرينا في النار.

٧ ـ يرى جمهور العلماء أنه لا يبدأ الكافر بالسلام ؛ لأن ذلك إكرام ، والكافر ليس أهله ، أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي‌الله‌عنه أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال : «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام ، فإذا لقيتم أحدهم فاضطروه إلى أضيقه» وربما كان هذا الحديث لواقعة معينة إثر تآمر اليهود على قتل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كما أشار بعضهم.

وجوز سفيان بن عيينة تحية الكافر وأن يبدأ بها ، قيل لابن عيينة : هل يجوز السلام على الكافر؟ قال : نعم ، قال الله تعالى : ﴿لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ ، وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة ٦٠ / ٨] ؛ وقال : ﴿قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ﴾ [الممتحنة ٦٠ / ٤] الآية ؛ وقال إبراهيم لأبيه : ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ﴾ ويؤيده حديث آخر في الصحيحين عن أسامة بن زيد : أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم سلم على مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، وفيهم عبد الله بن أبيّ بن سلول. وقال الطبري : وقد روي عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب ، وفعله ابن مسعود بدهقان صحبه في طريقه ، وقال : ولكن حق الصحبة. وكان أبو أمامة إذا انصرف إلى بيته ، لا يمر بمسلم ولا نصراني ولا صغير ولا كبير إلا سلم عليه ؛ فقيل له في ذلك ، فقال : أمرنا أن نفشي السلام. وسئل الأوزاعي عن مسلم مرّ بكافر فسلّم عليه ، فقال : إن سلّمت فقد سلّم الصالحون قبلك ، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك.

وأما الاستغفار للكافر فقد أوضحناه في تفسير الآيات هنا ، وخلاصته : أنه ممنوع بعد الموت ، جائز في الحياة بمعنى طلب الهداية والرشاد. والدليل على أن الاستغفار للكافر لا يجوز آيتان تقدمتاهما : ﴿ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة ٩ / ١١٣] و ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ..﴾ [الممتحنة ٦٠ / ٤] أي لا تتبعوه في ذلك.

٨ ـ قال الرازي : اعلم أنه ما خسر على الله أحد ، فإن إبراهيم عليه‌السلام لما اعتزل قومه في دينهم وفي بلدهم ، واختار الهجرة إلى ربه إلى حيث أمره ، لم يضره ذلك دينا ودنيا ، بل نفعه فعوضه أولادا أنبياء ، وذلك من أعظم النعم في الدنيا والآخرة. ثم إنه تعالى وهب لهم مع النبوة ما وهب من المال والجاه والأتباع والنسل الطاهر والذرية الطيبة ، ثم قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ

﴿عَلِيًّا﴾ أي ثناء حسنا ؛ لأن جميع الملل تحسن الثناء عليهم [١]. واللسان يذكّر ويؤنث.

قصة موسى عليه‌السلام

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (٥١) وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا (٥٣)﴾

الإعراب :

﴿الْأَيْمَنِ﴾ صفة الطور أو الجانب ، والظاهر أنها صفة الجانب لقوله في آية أخرى ﴿جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ [مريم ١٩ / ٥٢] بنصب الأيمن.

نجيا حال من أحد الضميرين في ﴿نادَيْناهُ﴾ و ﴿قَرَّبْناهُ﴾.

﴿أَخاهُ هارُونَ هارُونَ﴾ : بدل أو عطف بيان ، و ﴿أَخاهُ﴾ مفعول لوهبنا.

﴿نَبِيًّا﴾ حال ، هي المقصودة بالهبة ، إجابة لسؤاله أن يرسل أخاه معه ، وكان أسنّ منه.

المفردات اللغوية :

﴿مُخْلَصاً﴾ مختارا مصطفى مخلّصا من الدنس ، وقرئ بكسر اللام ، أي مخلصا في عبادته عن الشرك والرياء ، موحدا أسلم وجهه لله. ﴿وَنادَيْناهُ﴾ يقول : يا موسى ، إني أنا الله. ﴿مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ من ناحية الجبل اليمنى ، وهي التي تلي يمين موسى حين أقبل من مدين ، بأن تمثل له الكلام من تلك الجهة ، والطور : الجبل بين مصر ومدين. ﴿وَقَرَّبْناهُ﴾ تقريب تشريف وتكريم. ﴿نَجِيًّا﴾ مناجيا ، مكلما الله بلا واسطة ، بأن أسمعه الله تعالى كلامه. ﴿مِنْ رَحْمَتِنا﴾ نعمتنا ، أي من أجل رحمتنا أو بعض رحمتنا. ﴿أَخاهُ﴾ معاضدة أخيه ومؤازرته ، إجابة لدعوته : ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي﴾ [طه ٢٠ / ٢٩] فإنه كان أسنّ من موسى.

---

(١) تفسير الرازي : ٢١ / ٢٣٠

المناسبة :

هذه هي القصة الرابعة لإخبار العرب وغيرهم أن موسى عليه‌السلام مثل إبراهيم عليه‌السلام أخلص العبادة لله عن الشرك والرياء ، وأسلم وجهه لله تعالى. ومثله أيضا أخوه هارون. قال ابن عباس رضي‌الله‌عنهما : كان هارون عليه‌السلام أكبر من موسى عليه‌السلام ، وإنما وهب الله له نبوته ، لا لشخصه وأخوته ، وذلك إجابة لدعائه في قوله : ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي : هارُونَ أَخِي ، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ [طه ٢٠ / ٢٩ ـ ٣١] ، فأجابه الله تعالى إليه بقوله : ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى﴾ [طه ٢٠ / ٣٦] ، وقوله : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص ٢٨ / ٣٥].

التفسير والبيان :

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى﴾ لما ذكر الله تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه ، عطف بذكر موسى الكليم ، فقال : واذكر يا محمد في الكتاب ، واتل على قومك أوصاف موسى التي سأخبرك عنها وهي خمس صفات :

١ ـ ﴿إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً﴾ أي جعلناه مختارا مصطفى ، وأخلصناه مطهرا من الآثام والذنوب ، كما قال تعالى : ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي﴾ [الأعراف ٧ / ١٤٤]. وقرئ بالكسر (مخلصا) ومعناه : أخلص لله في التوحيد والعبادة ، والإخلاص : هو القصد في العبادة إلى أن يعبد المعبود بها وحده. قال الثوري عن أبي لبابة قال : قال الحواريون : يا روح الله ، أخبرنا عن المخلص لله ، قال : الذي يعمل لله ، لا يحب أن يحمده الناس.

٢ ـ ﴿وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ جمع الله له بين الوصفين ، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة ، وهم : (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم

صلوات الله وسلامه) أرسله الله إلى عباده داعيا ومبشرا ونذيرا ، فأنبأهم عن الله بشرائعه.

والرسول : هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه ، وكان معه كتاب فيه شريعته كموسى عليه‌السلام ، سواء أنزل عليه كتاب مستقل أم كتاب من سبقه. والنبي : هو من أوحي إليه بشرع يخبر به عن الله ويخبر به قومه ، وليس معه كتاب ، كيوشع عليه‌السلام.

٣ ـ ﴿وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي كلمناه من جانب الطور عن يمين موسى أو عن يمين الجبل نفسه ، حين جاء من مدين متجها إلى مصر ، فهو كليم الله بعدئذ ، وأصبح رسولا ، وواعدناه إليه بعد إغراق آل فرعون ، وأنزلنا عليه كتاب التوراة. والمناداة عن يمين موسى أصح ، فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال.

٤ ـ ﴿وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا﴾ أي أدنيناه إدناء تشريف وتقريب منزلة ، حتى كلمناه ، أو حين مناجاته لنا. فقوله : ﴿نَجِيًّا﴾ من المناجاة في المخاطبة ، أي أنه أصبح في العالم الروحي قريب المنزلة من الله تعالى.

٥ ـ ﴿وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا﴾ أي منحناه من فضلنا ونعمتنا ، فجعلنا أخاه نبيا ، حين سأل ربه قائلا : ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي ، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه ٢٠ / ٢٩ ـ ٣٢] فحقق له مطلبه وأجاب دعاءه وسؤاله وشفاعته بقوله : ﴿قالَ : قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى﴾ [طه ٢٠ / ٣٦] ، وقوله : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص ٢٨ / ٣٥].

قال بعض السلف : ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة

موسى في هارون أن يكون نبيا ، قال الله تعالى : ﴿وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا﴾. قال ابن عباس : كان هارون أكبر من موسى بأربع سنين.

فقه الحياة أو الأحكام :

لم يبلغ رسول مرتبة أولي العزم إلا بمقومات عالية ، وخصائص فريدة رفيعة ، وهذه بعض خصائص موسى وصفاته ، أخلصه ربه واختاره ، فكان مخلصا لله في عبادته ، بعيدا عن الشرك والرياء ، وجعله رسولا بشرع وكتاب ونبيا من الصالحين ، وكلّمه ربه من غير وحي ، وناجاه من جانب الطور ، في البقعة المباركة ، عند الشجرة ، عن يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر.

وقربه إليه ربه تقريب تشريف وإجلال ، حالة كونه مناجيا حضرة الله تعالى ، مثل تقريب الملك لمناجاته ، وأنعم عليه مجيبا سؤاله ودعاءه بجعل أخيه هارون الأكبر منه سنّا نبيا ورسولا ، وتلك نعمة كبرى على الأخوين ، إذ آزرهما ببعضهما ، وجعلهما متعاضدين متعاونين في تبليغ الرسالة الإلهية إلى فرعون وآله وإلى بني إسرائيل.

قصة إسماعيل عليه‌السلام

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (٥٤) وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)﴾

الإعراب :

﴿مَرْضِيًّا﴾ خبر كان ، وأصله «مرضويا» فأبدلوا من الضمة كسرة ، ومن الواو ياء ، على لغة من ثنى «الرضا» «رضوان». ومن قال : «رضيان» كان من ذوات الياء ، وأصله «مرضوي» فاجتمعت الواو والياء ، والسابق منهما ساكن ، فقلبوا الواو ياء ، وأدغموا الياء في الياء ، وكسروا ما قبل الياء مناسبة لها.

المفردات اللغوية :

﴿صادِقَ الْوَعْدِ﴾ ذكره بالمشهور به ، فلم يعد شيئا إلا وفي به ، وانتظر من وعد ثلاثة أيام ، أو حولا ، حتى رجع إليه في مكانه. ﴿وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ إلى قبيلة جرهم. وهو يدل على أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب شريعة ، فإن أولاد إبراهيم عليه‌السلام كانوا على شريعته.

﴿وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ قومه ، اشتغالا بما هو الأهم ، وهو أن يعنى الإنسان بتكميل نفسه ومن هو أقرب الناس إليه أولا ، قال تعالى : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٢١٤] ، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ﴾ [طه ٢٠ / ١٣٢] ، ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً﴾ [التحريم ٦٦ / ٦]. ﴿وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم ١٩ / ٥٥] لاستقامة أقواله وأفعاله ، والمرضي عند الله : الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات.

المناسبة :

هذه هي القصة الخامسة في سورة مريم ، وهي قصة إسماعيل بن إبراهيم عليهما‌السلام ، وكان على شريعة أبيه في توحيد الله ومحاربة الوثنية وعبادة الأصنام ، وإبراهيم كما عرفنا أبو العرب يمنيها ومضريها. قال الزمخشري : كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ، ليجعلهم قدوة لمن وراءهم ، ولأنهم أولى من سائر الناس.

وقدم الله تعالى قصة موسى عليه‌السلام على قصة إسماعيل عليه‌السلام ، لينسجم الكلام عن يعقوب وبنيه دون فاصل بينهما.

أضواء على قصة إسماعيل الذبيح :

رأى إبراهيم عليه‌السلام في منامه ـ ورؤيا الأنبياء حق ـ أنه يذبح ولده قربانا لله تعالى ، وكان ذلك الولد على الأصح الراجح إسماعيل ، فعرض الأمر على ولده ، فتقبل القضاء بالرضا وقال : ﴿يا أَبَتِ ، افْعَلْ ما تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات ٣٧ / ١٠٢].

فلما بدأ بتحقيق الأمر ، وأهوى بالمدية إلى ذبح ولده ، ناداه الله بالكفّ ، وأن هذا العمل منه يكفي تصديقا للرؤيا ، ورأى إبراهيم كبشا قريبا منه ، فذبحه فدية عن ولده ، ولم تعين الآيات اسم ذلك الولد ، ولكن سياق الآيات ، وتبشير إبراهيم بإسحاق بعدها ، يدل على أن الذبيح إسماعيل ، وذلك في الآيات من سورة الصافات [٩٩ ـ ١١٣] ، وفيها : ﴿فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ [١٠١] ، ثم قال : ﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [١٠٨] ، والضمير يعود إلى الذبيح. ثم قال : ﴿وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١١٢] ، فالإتيان بالبشرى بإسحاق بعد ذكر قصة الذبيح صريح في أن إسحاق غير الغلام المأمور بذبحه ، وعود الضمير إلى الغلام الذبيح ، وذكر اسم إسحاق معه صريحا يقتضي التغاير بين الذبيح وإسحاق.

ويرى اليهود أن إسحاق هو الذبيح ليفتخروا بأن أباهم هو الذي جاد بنفسه في طاعة ربه ، وهو في حالة صغره.

والدليل على أن الذبيح إسماعيل من التوراة نفسها : أن الذبيح وصف بأنه ابن إبراهيم الوحيد ، والإقدام على ذبح الولد الوحيد هو الإسلام بعينه ، أي الطاعة والامتثال ، ولم يكن إسحاق وحيدا لإبراهيم في يوم من الأيام ؛ لأن إسحاق ولد ، ولإسماعيل أربع عشرة سنة ، كما هو صريح التوراة ، وبقي إسماعيل إلى أن مات إبراهيم ، وحضر إسماعيل وفاته ودفنه. وذبح إسحاق يناقض وعد الله لإبراهيم أن سيكون له ابن هو يعقوب. ثم إن مسألة الذبح وقعت في مكة ؛ وإسماعيل هو الذي ذهب به أبوه إليها رضيعا ، كما في حديث البخاري الآتي [(١)] ، وعند الزمخشري في الكشاف حديث : «أنا ابن الذبيحين» رواه الحاكم في المناقب.

---

(١) قصص القرآن للأستاذ عبد الوهاب النجار ١٠١ ـ ١٠٣.

إسماعيل وأمه هاجر في مكة :

لم يبن بمكة شيء بعد البيت إلا في القرن الثاني قبل الإسلام ، في عهد قصي بن كلاب ، فإنه بنى دار الندوة ، وتبعته قريش في البناء حول المسجد.

جاء في البخاري عن ابن عباس : أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال : «أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة. ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل ، وهي ترضعه ، وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، ووضعهما هناك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقا ، فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم ، أين تذهب ، وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مرارا ، وجعل لا يلتفت إليها ؛ فقالت له : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا. ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية ، حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ، ورفع يديه ، فقال : ﴿رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ ، حتى بلغ ﴿يَشْكُرُونَ﴾.

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل ، وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما في السقاء ، عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى. أو قال :يتلبط. فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ؛ فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر ، هل ترى أحدا؟ فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا ، حتى إذا بلغت الوادي ، رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادي. ثم أتت المروة ، فقامت عليها ، ونظرت ، هل ترى أحدا؟ فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات».

قال ابن عباس : قال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : «فذلك سعي الناس بينهما». فلما

أشرفت على المروة ، سمعت صوتا ، فقالت : صه ـ تريد نفسها ، ثم تسمّعت ، فسمعت أيضا ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غوث ؛ فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه ـ أو قال : بجناحه ـ حتى ظهر الماء ، فجعلت تخوضه ، وتقول بيدها هكذا. وجعلت تغرف من الماء في سقائها ، وهو يفور بعد ما تغرف. قال ابن عباس : قال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : «يرحم الله أم إسماعيل ، لو تركت زمزم ـ أو قال : لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عينا معينا».

وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ، فإن هاهنا بيت الله ، يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله. إلخ الحديث.

بناء البيت :

كان إبراهيم عليه‌السلام يزور ولده إسماعيل حينا بعد آخر ، ففي إحدى هذه الزيارات أمر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت ، فصدعا بالأمر وبنيا الكعبة. ولما تمّ بناؤها أمره الله تعالى أن يعلم الناس بأنه بنى بيتا لعبادة الله تعالى وأن عليهم أن يحجوه ، وطلب إبراهيم وإسماعيل من الله تعالى أن يريهما المناسك التي ينسكانها. والآيات التي توضح ذلك : [البقرة ٢ / ١٢٥ ـ ١٢٩] ، [إبراهيم ١٤ / ٣٥ ـ ٣٧] ، [الحج ٢٢ / ٢٦ ـ ٣٧].

والكعبة : أول بيت وضع للناس لعبادة الله تعالى [آل عمران ٣ / ٩٦ ـ ٩٧].

حياة إسماعيل وأولاده :

لإسماعيل اثنا عشر ولدا رؤساء قبائل ، وعاش مائة وسبعا وثلاثين سنة ، مات بمكة ، ودفن بالحجر بجوار البيت هو وأمه.

التفسير والبيان :

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ﴾ واذكر أيها الرسول في القرآن خبر وصفات

إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما‌السلام ، وهو والد عرب الحجاز كلهم ، وهي صفات أربع :

١ ـ ﴿إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ﴾ مشهورا بالوفاء ، مبالغا بإنجاز ما وعد ، فما وعد وعدا مع الله أو مع الناس إلا وفّى به ، فكان لا يخالف شيئا مما يؤمر به من طاعة ربه ، وإذا وعد الناس بشيء أنجز وعده ، وناهيك من صدق وعده أنه وعد أباه أن يصبر على الذبح ، فوفّى بذلك ، قائلا : ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات ٣٧ / ١٠٢].

وصدق الوعد من الصفات الحميدة في كل زمان ومكان ، وخلفه من الصفات الذميمة ، قال الله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف ٦١ / ٢ ـ ٣] ، وقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فيما رواه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة : «آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان» ، وإذا كانت هذه صفات المنافقين فضدها صفات المؤمنين ، ومما يؤسف له أن خلف الوعد شائع بين المسلمين ، وبخاصة التجار والعمال وأصحاب الحرف.

٢ ـ ﴿وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ جمع الله له بين الوصفين كأبيه وكموسى عليهما‌السلام ، فكان رسولا إلى جرهم في مكة ، لتبليغهم شريعة إبراهيم ، وإخبارهم بما أنزل الله تعالى ، وهذا دليل على أنه لا يشترط إنزال كتاب مستقل على الرسول. وفي هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق ؛ لأنه إنما وصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة ، وأخرج الترمذي أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال : «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل».

٣ ـ ﴿وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ﴾ أي وكان يأمر أمته وعشيرته وأهله بهاتين العبادتين الشرعيتين المهمتين جدا ، فكان صابرا على طاعة ربه ، كما

قال تعالى لرسوله : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٢١٤] ، وقال تعالى : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها﴾ [طه ٢٠ / ١٣٢] ، وقال سبحانه : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً﴾ [التحريم ٦٦ / ٦]. وأخرج أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : «رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل ، فصلت وأيقظت زوجها ، فإن أبى نضحت في وجهه الماء». وأخرج أبو داود والنسائي وابن ماجه ـ واللفظ له ـ عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي‌الله‌عنهما عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال : «إذا استيقظ الرجل من الليل ، وأيقظ امرأته ، فصليا ركعتين ، كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات».

٤ ـ ﴿وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ أي رضيا زاكيا صالحا ، مرضي العمل غير مقصر في طاعة ربه ، فعلى المؤمن الاقتداء به.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه مجموعة خصال أخرى لرسول نبي هو إسماعيل الذبيح أبو العرب ابن إبراهيم الخليل عليهما‌السلام ، والأظهر أن الذبيح هو وليس إسحاق كما تقدم في سورة الصافات.

خصة الله تعالى بصدق الوعد ، وإن كان موجودا في غيره من الأنبياء تشريفا له وإكراما ، ولأنه كان مشهورا بذلك مبالغا في الوفاء بالوعد. وهو كما تقدم صفة حميد ، قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فيما رواه الطبراني في الأوسط عن علي وابن مسعود ، وهو ضعيف : «العدة دين».

وإيجاب الوفاء من محاسن المروءة وموجبات الديانة ، لكن لا يلزم قضاء ، فليس بواجب فرضا ؛ لإجماع العلماء على ما حكاه أبو عمر بن عبد البر : أن من وعد بمال ما كان ليضرب به مع الغرماء ، أي لا يقتسم مع الدائنين العاديين الآخرين ما يوجد من أموال المدين ؛ لأن ما وعد به لا يصبح دينا.

لكن لا خلاف أن الوفاء بالدين يستحق صاحبه الحمد والشكر ، وعلى الخلف الذم ، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من صدق وعده ، ووفّى بنذره.

ويرى الإمام مالك : أن الوعد ملزم إذا دخل الموعود في التزام ما ، أو وعد بقضاء دين عنه ، وشهد عليه اثنان ، يلزمه ذلك قضاء (١). ويرى سائر الفقهاء الآخرين : أن العدة لا يلزم منها شيء ؛ لأنها منافع لم تقبض في العارية ، وفي غير العارية : هي أشياء وأعيان موهوبة لم تقبض ، فلصاحبها الرجوع فيها.

وكان إسماعيل عليه السلام رسولا إلى جرهم في مكة ونبيا صالحا ، وكان يأمر أهله جرهم وولده بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضيا مقبولا ؛ وهذا في نهاية المدح ؛ لأن المرضي عند الله هو الفائز بأعلى الدرجات.

وإذا قرنت الزكاة بالصلاة أريد بها الصدقات الواجبة ، فهي طاعة لله لازمة ، تتطلب الإخلاص في أدائها ، كما أن الصلاة واجبة.

والأقرب ـ كما قال الرازي ـ في الأهل : أن المراد به من يلزمه أن يؤدي إليه الشرع ، فيدخل فيه كل أمته ؛ لأنه يلزمه في جميعهم ما يلزم المرء في أهله خاصة.

قصة إدريس عليه السلام

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا (٥٧)﴾

المفردات اللغوية :

﴿إِدْرِيسَ﴾ هو سبط شيث ، وجد نوح لأبيه ، واسمه (أخنوخ) لقب إدريس بذلك لكثرة

---

(١) تفسير القرطبي : ١١ / ١١٦.

درسه ؛ إذ روي أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة ، وإنه أول من خط بالقلم ، وخاط الثياب ولبس المخيط ، وكانوا قبله يلبسون الجلود ، وأول من نظر في علم النجوم والحساب ، وأول من اتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة ، فقاتل بني قابيل ، وأول مرسل بعد آدم. ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ يعني شرف النبوة والزلفى عند الله تعالى ، وقيل : الجنة ، وقيل : في السماء الرابعة أو السادسة أو السابعة ، والأول أصح.

المناسبة :

هذه قصة إدريس هي القصة السادسة من سورة مريم ، ذكرت للعبرة ؛ لأنه دعا إلى دين الله والتوحيد وعبادة الخالق ، وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح في الدنيا ، وحض على الزهد في الدنيا والعمل بالعدل ، وأمر بالصلاة وبصيام أيام من كل شهر ، وحث على جهاد الأعداء ، وأمر بالزكاة معونة للضعفاء ، وغلظ في الطهارة من الجنابة والكلب والحمار ، وحرم المسكر من كل شيء.

وهو أول بني آدم أعطي النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام . فهو من ذرية آدم لقربه منه ؛ لأنه جد أبي نوح ، وإبراهيم من ذرية من حمل مع نوح ؛ لأنه من ولد سام بن نوح. وجاء في صحيح مسلم في حديث الإسراء أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّ به في السماء الرابعة. وهذا هو الصحيح ، وأما ما ذكر في البخاري من أنه في السماء الثانية فهو وهم.

ولد بمنف في مصر ، وسموه (هرمس الهرامسة) وقيل : ولد ببابل ، وأخذ في أول عمره بعلم شيث بن آدم ، وهو جد جد أبيه. وأقام بمصر يدعو الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وطاعة الله عز وجل . وكان يعلّمهم كيفية تخطيط المدن.

أقام في الأرض اثنتين وثمانين سنة ، وكان على فص خاتمه : «الصبر مع

الإيمان بالله يورث الظفر» ، وعلى المنطقة التي يلبسها : «الأعياد في حفظ الفروض ، والشريعة من تمام الدين ، وتمام الدين من كمال المروءة» ، وعلى المنطقة التي يلبسها وقت الصلاة على الميت : «السعيد من نظر لنفسه ، وشفاعته عند ربه أعماله الصالحة» ، وكانت له مواعظ وآداب.

التفسير والبيان :

وصف الله تعالى إدريس جد نوح الذي هو أول من خط بالقلم ، وخاط الثياب ، ولبس المخيط بصفات ثلاث هي :

١ ـ إنه كان صدّيقا ، أي كثير الصدق ، قوي التصديق بآيات الله تعالى.

٢ ـ وكان رسولا نبيا ، أي موحى إليه بشرع ، مأمورا بتبليغه إلى قومه ، وقد أنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما في حديث أبي ذرّ.

٣ ـ ورفعه الله مكانا عليا ، أي أعلى قدره ، وشرفه بالنبوة ، وجعله ذا منزلة عالية ، كما قال الله لنبيه : ﴿وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح ٩٤ / ٤] ، وروى مسلم في صحيحة : «أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم مرّ به في ليلة الإسراء ، وهو في السماء الرابعة». وجرت العادة ألا يرفع إلى السماء إلا من كان عظيم القدر والمنزلة.

والأولى في رأي الرازي أن المراد بالصفة الثالثة الرفعة في المكان إلى موضع عال ؛ لأن الرفعة المقرونة بالمكان تكون رفعة في المكان ، لا في الدرجة. والظاهر لي أن المراد الرفعة في الدرجة ، إذ لا فرق في التعبير بين المكان والمكانة ، فيقال : فلان ذو مكان عال عند السلطان.

وسبب رفع مكانته : أنه كان كثير العبادة ، يصوم النهار ، ويتعبد في الليل. قال وهب بن منبّه : كان يرفع لإدريس عليه‌السلام كل يوم من العبادة

مثلما يرفع لأهل الأرض في زمانه. وأصحاب هذه الخصال هم قدوة يقتدي بها المؤمن ، ويتحلى بها المخلص ، وقد بدأ الله نبيه بالأمر بها والخطاب معه ؛ لأنه قدوة أمته ، والمثل الأعلى للمؤمنين على الدوام ، مشيرا إلى ذلك في الآية التالية.

جملة صفات الأنبياء عليهم السلام

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَإِسْرائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا (٥٨)﴾

الإعراب :

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ﴾ مبتدأ وخبر أو الذين : صفة ، والخبر : ﴿إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ ..﴾ ، وهو إشارة إلى من تقدم ذكره في هذه السورة من الأنبياء.

﴿خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا﴾ منصوبان على الحال المقدرة ، أي مقدّرين السجود والبكاء. و ﴿بُكِيًّا﴾ جمع باك.

﴿إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ﴾ الجملة الشرطية خبر ، إذا جعلنا ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ ..﴾ صفة لأولئك ، وهي كلام مستأنف إن جعلنا ﴿الَّذِينَ﴾ خبرا ، لبيان خشيتهم من الله ، مع علو الدرجة وشرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله عزوجل .

البلاغة :

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ﴾ الإشارة بالبعيد لعلو الرتبة.

المفردات اللغوية :

﴿أُولئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من زكريا إلى إدريس. ﴿أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ بأنواع النعم الدينية والدنيوية. ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ بيان للموصول ؛ لأن جميع الأنبياء منعم عليهم. ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ من هنا للتبعيض ، والمراد به هنا : إدريس الذي هو من ذرية آدم عليه السلام ، لقربه منه ؛ لأنه جد نوح أي جد أبيه. ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة ، أي إبراهيم بن سام بن نوح. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ﴾ أي إسماعيل وإسحاق ويعقوب ، ﴿وَإِسْرائِيلَ﴾ هو يعقوب

عليه السلام ، أي من ذريته وهم موسى وهارون وزكريا ويحي وعيسى. ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا﴾ أي ومن جملتهم ، و ﴿اجْتَبَيْنا﴾ اصطفينا واخترنا للنبوة والكرامة. ﴿سُجَّداً﴾ جمع ساجد. ﴿وَبُكِيًّا﴾ جمع باك ، روى ابن ماجه عن النبي صلى الله عليه وسلم : «اتلو القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا». والبكا : بالقصر مثل الحزن ، لا صوت معه.

المناسبة :

بعد أن أثنى الله على كل رسول من رسله العشرة بما يخصه ، جمعهم آخرا بصفة واحدة : هي الإنعام عليهم بالنبوة ، والهداية إلى طريق الخير ، والاصطفاء من سائر خلقه. قال ابن كثير : ليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط ، بل جنس الأنبياء عليهم السلام ، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس [١].

التفسير والبيان :

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ أي أولئك المذكورون من أول السورة إلى هنا ، من لدن زكريا إلى إدريس ، بل وجميع الأنبياء هم الذين أنعم الله عليهم بنعمة النبوة والقرب منه ، وعظم المنزلة لديه ، واختارهم واجتباهم من بين عباده ، وهداهم وأرشدهم ليكونوا المثل الأعلى للبشرية ، والأسوة الحسنة للناس جميعا في عبادة الله وطاعته والتأسي بطريقتهم ومنهجهم وأخلاقهم.

﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ أبي البشر الأول عليه السلام.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ﴾ أي ومن ذرية من حملنا في السفينة مع نوح أبي البشر الثاني ، وهم من عدا إدريس عليه السلام الذي كان سابقا على نوح ، على ما ثبت في الأخبار ، جمعهم الله في كونهم من ذرية آدم ، ثم خص بعضهم بأنه من ذرية المحمولين مع نوح ، والذي يختص بأنه من ذرية آدم دون من حمل مع نوح هو إدريس عليه السلام.

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ١٢٦

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهم إسحاق ويعقوب وإسماعيل عليهم السلام.

﴿وَإِسْرَائِيلَ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل ، أي يعقوب ، وهم موسى وهارون وزكريا ويحيي وعيسى بن مريم عليهم السلام.

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ أي ومن جملة من هدينا إلى الإسلام الذي هو الدين الحق المشترك بين جميع الأنبياء ، ومن جملة من اخترنا للنبوة والكرامة والاصطفاء.

﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا﴾ أي كانوا إذا سمعوا آيات الله المتضمنة حججه ودلائله وبراهينه وشرائعه المنزلة ، سجدوا لربهم خضوعا لذاته واستكانة وانقيادا لأمره ، وحمدا وشكرا على ما هم فيه من النعم العظيمة ، وهم باكون خشية من الله ومن عذابه. والبكي : جمع باك.

قال ابن كثير : ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء : أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ ، كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً ، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ. وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إلى قوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام ٦ / ٨٣ ـ ٩٠] وقال سبحانه وتعالى : ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر ٤٠ / ٧٨] وفي صحيح البخاري عن مجاهد : أنه سأل ابن عباس أفي ص سجدة؟ فقال : نعم ، ثم تلا هذه الآية : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ أي فنبيكم ممن أمر أن يقتدي بهم ، قال : وهو منهم يعني داود.

لهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا اقتداء بهم ، واتباعا لمنوالهم [١]. وعند ابن ماجه عن رسول الله ﷺ : «اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا» وعن صالح المرّي قال : قرأت القرآن عن رسول الله ﷺ في المنام ، فقال لي : يا صالح ، هذه القراءة ، فأين البكاء؟ وعن ابن عباس رضي الله عنهما : «إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود ، حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم ، فليبك قلبه» [٢].

والذي يستنبط من هذه الآية كما فهم منها : أن جميع الأنبياء هم القدوة الصالحة والأسوة الحسنة للبشرية في سلامة العقيدة ، وكثرة العبادة ، وصحة الدين ، ونقاوة الأصل ، وطهارة النسب والمعدن. واستقامة المنهج والطريق ، ورفعة الشأن والخلق.

صفات خلف الأنبياء وجزاؤهم وصفات التائبين ومستحقي الجنة

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاَّ سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا (٦٣)﴾

---

(١) المرجع السابق ١٢٧.

(٢) تفسير الرازي : ٢١ / ٢٣٤.

الإعراب :

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ جَنَّاتِ﴾ بدل منصوب من قوله : ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ أي يدخلون جنات عدن ، وهو بدل الشيء من نفسه ؛ لأن الألف واللام في الجنة للجنس.

﴿إِلَّا سَلاماً﴾ إما منصوب ؛ لأنه استثناء منقطع ، أو منصوب على البدل من (لغو). ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال.

﴿نُورِثُ مِنْ عِبادِنا نُورِثُ﴾ مضارع أورث ، وهو يتعدى إلى مفعولين ، الأول منهما محذوف ، وهو الهاء عائد الموصول ، أي نورثها ، والمفعول الثاني ﴿مَنْ كانَ تَقِيًّا﴾. و ﴿مِنْ عِبادِنا﴾ متعلق بنورث ، أي تلك الجنة التي نورثها من كان تقيا من عبادنا.

البلاغة :

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ جناس ناقص لتغير الحركات والشكل.

﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿فَخَلَفَ﴾ بسكون اللام : عقب السوء ، وبفتح اللام : عقب الخير. ﴿أَضاعُوا الصَّلاةَ﴾ تركوها بتاتا ، أو أخروها عن وقتها. ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ﴾ انهمكوا في المعاصي واللذات. ﴿غَيًّا﴾ أي شرا أو واديا في جهنم ، والمعنى : يقعون في نار جهنم ، ويلقون جزاءهم فيها. ﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن ، وهو يدل على أن الآية في الكفرة. ﴿وَلا يُظْلَمُونَ﴾ ينقصون. ﴿شَيْئاً﴾ من ثوابهم وجزاء أعمالهم.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ جنات إقامة ، وهذا وصف لها بالدوام ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي وهي غائبة عنهم ، أو هم غائبون عنها. ﴿إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ﴾ موعوده. ﴿مَأْتِيًّا﴾ بمعنى آتيا لا محالة. أو أن موعوده الذي هو الجنة يأتيه أهله الذين وعدوا به.

﴿لَغْواً﴾ فضولا من الكلام لا يفيد. ﴿إِلَّا سَلاماً﴾ أي لكن يسمعون سلاما من الله أو من الملائكة عليهم ، أو من بعضهم على بعض. ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ على عادة المتنعمين ، والتوسط ، وفي قدر وقتهما في الدنيا ، علما بأنه ليس في الجنة نهار ولا ليل ، بل ضوء ونور أبدا.

المناسبة :

بعد أن وصف الله تعالى أولئك الأنبياء وأتباعهم بصفات الثناء والمدح من

اتباع أوامر الدين وترك نواهيه ، ترغيبا في التأسي بطريقتهم ، ذكر صفات الخلف الذين أتوا بعدهم ممن أضاعوا واجبات الدين ، وانتهبوا اللذات والشهوات ، ثم ذكر ما ينالهم من العقاب في الآخرة ، إلا من تاب ، فإن الله يقبل توبته ، ويورثه جنات النعيم التي لا يرثها إلا الأتقياء.

قال الرازي : وظاهر الكلام. أن المراد من بعد هؤلاء الأنبياء خلف من أولادهم.

وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في قوم من هذه الأمة يتراكبون في الطرق ، كما تراكب الأنعام ، لا يستحيون من الناس ، ولا يخافون من الله في السماء.

أخرج أحمد وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتلا هذه الآية ، قال : «يكون خلف من بعد ستين سنة ، أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا ، ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ، ومنافق ، وفاجر».

التفسير والبيان :

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾
أي فجاء خلف سوء من بعد أولئك السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم القائمون بحدود الله وأوامره ، المؤدون فرائض الله ، التاركون لزواجره.

أولئك الخلف يدّعون الإيمان واتباع الأنبياء ، ولكنهم مخالفون مقصرون كاليهود والنصارى وفسّاق المسلمين الذين تركوا الصلاة المفروضة عليهم ، وآثروا شهواتهم من المحرّمات على طاعة الله ، فاقترفوا الزنى ، وشربوا الخمور ، وشهدوا شهادة الزور ، ولعبوا الميسر ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، فهؤلاء جزاؤهم أنهم سيلقون غيا ، أي شرا وخيبة وخسارا يوم القيامة ، لارتكابهم المعاصي ، وإهمال الواجبات.

والمراد بإضاعة الصلاة في الأظهر تركها بالكلام ، وعدم فعلها أصلا ، وجحود وجوبها. ويرى بعضهم كالشوكاني أن من أخر الصلاة عن وقتها ، أو ترك فرضا من فروضها ، أو شرطا من شروطها ، أو ركنا من أركانها ، فقد أضاعها.

لذا ذهب جماعة من السلف والخلف والأئمة ، كما الذي رواه الجماعة إلا البخاري والنسائي وهو المشهور عن الإمام أحمد وقول عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة ؛ للحديث : «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة» والحديث الآخر الذي رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن بريدة : «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر».

ثم استثنى الله تعالى من الجزاء المتقدم التائبين ، فقال :

﴿إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ، فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ أي لكن من تاب مما فرط منه من ترك الصلوات ، واتباع الشهوات ، فرجع إلى طاعة الله وآمن به وعمل عملا صالحا ، فأولئك يدخلهم ربهم الجنة ، ويغفر لهم ذنوبهم ؛ لأن «التوبة تجب ما قبلها» في حديث ذكره الفقهاء ، وفي الحديث الآخر الذي رواه ابن ماجه عن ابن مسعود : «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» وأولئك أيضا لا ينقص من أجورهم شيء ، وإن كان العمل قليلا ؛ لأن أعمالهم السابقة ذهبت هدرا ، وصارت منسية ، تفضلا ورحمة من الله الكريم اللطيف الحليم.

وهذا الاستثناء كقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ ، وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلا يَزْنُونَ ..﴾ ثم قال تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً ، فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ ، وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٦٨ ـ ٧٠].

ثم وصف الله تعالى الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم وهي أوصاف ثلاثة :

١ ـ ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ أي هي جنات إقامة دائمة ، وعد الرحمن بها عباده الأبرار بظهر الغيب ، فآمنوا بها ولم يروها ؛ لقوة إيمانهم ، ولأن وعد الله آت لا يخلف ، ومنها الجنة ، يأتيها أهلها لا محالة. وقوله : ﴿إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ أي آتيا : تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره ، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله ، كقوله : ﴿كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ [المزمل ٧٣ / ١٨] أي كائنا لا محالة.

٢ ـ ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلَّا سَلاماً﴾ أي لا يسمع الأبرار أهل الجنة فيها كلاما ساقطا ، أو تافها لا معنى له ، أو هذرا لا طائل تحته ، كما قد يوجد في الدنيا ، ولكن يسمعون سلام بعضهم على بعض ، أو سلام الملائكة عليهم ، بما يشعرهم بالأمان والطمأنينة ، وهما منتهى الراحة والسعادة.

وقوله : ﴿إِلَّا سَلاماً﴾ استثناء منقطع كقوله تعالى : ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً : سَلاماً سَلاماً﴾ [الواقعة ٥٦ / ٢٥ ـ ٢٦].

٣ ـ ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي يأتيهم ما يشتهون من الطعام والشراب قدر وقت البكرة والعشي ، أي وقت الغداء صباحا ، والعشاء مساء إذ ليس هناك ليل ولا نهار ، وإنما بمقدار طرفي النهار في الدنيا ، وفي أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنهار ، كما أخرج الإمام أحمد والشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : «أول زمرة تلج الجنة ، صورهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ، ولا يتمخّطون فيها ، ولا يتغوّطون ، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوّة [1] ، ورشحهم

---

(١) الألوّة : بفتح الهمزة وضمها ، عود يتبخر به ، والمجامر جمع مجمرة : وهي الشيء الذي يوضع فيه الجمر والبخور.

المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيا».

وهذا وقت طعام أهل الاعتدال ، أما النهم فيأكل متى شاء. وأسباب استحقاق الجنان هي :

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا﴾ أي هذه الجنة التي وصفناها بتلك الأوصاف الرائعة هي التي نورثها عبادنا المتقين ، وهم المطيعون لله عزّ وجلّ في السرّاء والضرّاء ، أي نجعلها حقا خالصا لهم كملك الميراث ، كما قال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ﴾ إلى أن قال : ﴿أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ ، هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ١ ـ ١١].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ جاء بعد الأنبياء وأتباعهم الأتقياء خلف سوء وأولاد شر.

أ ـ تركوا أداء الصلوات المفروضة ، وهذا دليل على أن إضاعة الصلاة من الكبائر التي يعذب بها صاحبها. روى الترمذي وأبو داود عن أنس بن حكيم الضّبّي أنه أتى المدينة ، فلقي أبا هريرة ، فقال له : يا فتى ، ألا أحدثك حديثا لعل الله تعالى أن ينفعك به ؛ قلت : بلى ، قال : «إن أول ما يحاسب به الناس يوم القيامة من أعمالهم الصلاة ، فيقول الله تبارك وتعالى لملائكته ـ وهو أعلم ـ : انظروا في صلاة عبدي ، أتمها أم نقصها ، فإن كانت تامة ، كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئا قال : انظروا هل لعبدي من تطوع ، فإن كان له تطوع قال : أكملوا لعبدي فريضته من تطوعه ، ثم تؤخذ الأعمال على ذلك».

وأخرجه النسائي عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة بصلاته ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر ..» الحديث.

ب . واتبعوا شهواتهم وهي عبارة عما يوافق الإنسان ويشتهيه ويلائمه ولا يتقيه. جاء في الصحيح : الذي رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أنس «حفّت الجنة بالمكاره ، وحفّت النار بالشهوات».

٢ . إن جزاء خلف السوء الغي ، أي الهلاك والضلال في جهنم ، أو أن الغي : واد في جهنم أبعدها قعرا ، وأشدها حرا ، فيه بئر يسمى البهيم ، كلما خبت فتح الله تعالى تلك البئر ، فتسعّر بها جهنم. قال ابن عباس : «غيّ : واد في جهنم ، وإن أودية جهنم لتستعيذ من حره ، أعد الله تعالى ذلك الوادي للزاني المصرّ على الزنى ، ولشارب الخمر المدمن عليه ، ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه ، ولأهل العقوق ، ولشاهد الزور ، ولا مرأة أدخلت على زوجها ولدا ليس منه» أي كانت زانية به.

٣ . يقبل الله توبة من تاب من عباده ، من تضييع الصلوات واتباع الشهوات ، فرجع إلى طاعة الله ، وآمن به ، وعمل صالح الأعمال ، فهؤلاء يدخلون الجنة مع الأبرار ، ولا ينقص من أعمالهم الصالحة شيء بسبب تقصيرهم الماضي ، لكن يكتب لهم بكل حسنة عشر إلى سبع مائة.

٤ . تلك هي جنات عدن ، أي إقامة دائمة ، وهي التي وعد بها الرحمن عباده ، فآمنوا بها غيبيا ، وإن لم يشاهدوها ، ووعد الله آت لا ريب فيه ، وإن الله لا يخلف الميعاد.

٥ . خصائص الجنة وأوصافها : هي :

أولا . أن الوعد بها آت لا محالة ، كما ذكر.

وثانيا ـ لا لغو فيها : وهو المنكر من القول ، والباطل من الكلام ، والفحش منه ، والفضول الساقط الذي لا ينتفع به : ﴿لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً﴾ [الغاشية ٨٨ / ١١].

وثالثا ـ لكن يسمعون فيها سلام بعضهم على بعض ، وسلام الملائكة عليهم ، والسلام : اسم جامع للخير ، والمعنى : أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون.

ورابعا ـ لهم ما يشتهون فيها من المطاعم والمشارب بكرة وعشيا ، أي قدر هذين الوقتين ، إذ لا بكرة ثم ولا عشيا.

وخامسا ـ هذه الجنة حق خالص يرثه ويتملكه العباد الأتقياء ، وهم من اتقى الله وعمل بطاعته ، فقام بالأوامر ، واجتنب النواهي.

تنزل الوحي بأمر الله تعالى

﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾

الإعراب :

﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ على حذف : قل ، أي قل : ما نتنزل إلا بأمر ربك ، فحذف قل ، والخطاب لجبريل ، وحذف القول كثير في كلام العرب وفي القرآن. و ﴿لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ﴾ دليل على أن الأزمنة ثلاثة : ماض وحاضر ومستقبل. وعطف كلام غير الله ﴿وَما نَتَنَزَّلُ﴾ على كلام الله ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ﴾ من غير فصل أمر جائز إذا كانت القرينة ظاهرة ، مثل : ﴿إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة ٢ / ١١٧ وآل عمران ٣ / ٤٧] الذي هو كلام الله ، وقوله : ﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ [مريم ١٩ / ٣٦] الذي هو كلام غير الله.

﴿وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا. رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبُّ السَّماواتِ﴾ إما مرفوع بدل من ﴿رَبّكَ﴾ اسم ﴿كانَ﴾ ، أو خبر مبتدأ مقدر ، أي هو ربّ السموات ، أو مبتدأ ، وخبره ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ عند أبي الحسن الأخفش ؛ لأنه يجوز أن تزاد الفاء في خبر المبتدأ ، وإن لم يكن المبتدأ اسما موصولا ، أو نكرة موصوفة ، مثل : «زيد فمنطلق» والأكثرون على أن الفاء عاطفة ، لا زائدة ، أي هذا زيد فهو منطلق ، فكل واحد منهما خبر مبتدأ محذوف.

البلاغة :

﴿لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿نَتَنَزَّلُ﴾ التنزل : النزول على مهل وقتا بعد وقت ، وهو حكاية قول جبريل حين استبطأه رسول الله ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ، ولم يدر ما يجيب ، ورجا أن يوحى إليه فيه ، فأبطأ عليه خمسة عشر يوما ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ المعنى : وما ننزل وقتا بعد وقت إلا بأمر الله ومشيئته على ما تقتضيه حكمته. وقرئ : وما يتنزل ، والضمير للوحي ﴿لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ﴾ له ما أمامنا في الزمان المستقبل ، وما وراءنا من الزمان الماضي ، وما بينهما من الزمان الحاضر ﴿وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي ناسيا تاركا لك ، بتأخير الوحي عنك ، والمعنى : ما كان عدم النزول إلا لعدم الأمر به ، ولم يكن ذلك عن ترك الله لك ، وتوديعه إياك ، كما زعمت الكفرة ، وإنما كان لحكمة رآها فيه.

﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما﴾ بيان لامتناع النسيان عليه ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ﴾ خطاب للرسول ﷺ مرتب على ما سبق ، أي لما عرفت ربّك بأنه لا ينبغي له أن ينساك ، فأقبل على عبادته واصطبر عليها ، أي اصبر على مشاقها وشدائدها ، ولا تتشوش بإبطاء الوحي وهزء الكفرة. وإنما عدّي باللام ﴿لِعِبادَتِهِ﴾ لتضمنه معنى الثبات للعبادة ، كما تقول للمحارب : اصطبر لقرنك ، أي اثبت له في حملاته ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي مثلا ونظيرا مسمى بذلك ، أي الله؟ فإن المشركين لم يسموا الصنم الإله : (الله) قط. وإذا صح ألا أحد مثله ولا يستحق العبادة غيره ، لم يكن بد من التسليم لآمره والاشتغال بعبادته والاصطبار على مشاقها.

سبب النزول :

أخرج أحمد والبخاري عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ وآله وسلّم لجبريل : ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ، فنزلت : ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : أبطأ جبريل في النزول أربعين يوما ، فذكر نحوه.

وأخرج ابن إسحاق عن ابن عباس : أن قريشا لما سألوه عن أصحاب الكهف ، مكث خمس عشرة ليلة ، لا يحدث الله له في ذلك وحيا ، فلما نزل جبريل ، قال له : أبطأت ، فذكره.

وروي عن ابن عباس «أن جبريل عليه السلام احتبس عنه صلى الله عليه وآله وسلم أياما ، حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ، ولم يدر عليه الصلاة والسلام كيف يجيب؟ فحزن واشتد عليه ذلك ، وقال المشركون : إن ربّه ودّعه وقلاه ، فلما نزل ، قال له عليه الصلاة والسلام : يا جبريل ، احتسبت عني ، حتى ساء ظني ، واشتقت إليك ، فقال : إني إليك لأشوق ، ولكني عبد مأمور ، إذا بعثت نزلت ، وإذا حبست احتبست ، وأنزل الله هذه الآية» [(١)]. ولا مانع من تعدد الوقائع وأسباب النزول.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى قصص الأنبياء كزكريا وإبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس ، تثبيتا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وذكر ما أنعم الله عليهم وما أحدثه الخلف بعدهم ، وجزاء الفريقين ، ذكر الله سبب تأخر الوحي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، تنبيها على قصة قريش واليهود ، من أولئك الخلف الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وختما لقصص أولئك المنعم عليهم بمخاطبة أشرفهم محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم الذي هو من ذرية إبراهيم.

التفسير والبيان :

﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ، لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ ، وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ عطف الله هذه الآية التي هي كلام غير الله على آية : **﴿تِلْكَ**

---

(١) تفسير الرازي : ٢١ / ٢٣٩

الْجَنَّةُ ..﴾ التي هي كلام الله من غير فصل ، وهو جائز إذا كانت القرينة ظاهرة ، مثل عطف آية **﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾** [مريم ١٩ / ٣٦] التي هي كلام غير الله ، على قوله : **﴿إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** [البقرة ٢ / ١١٧ وآل عمران ٣ / ٤٧] الذي هو كلام الله.

ومعنى الآية : بعد أن استبطأ رسول الله ﷺ نزول جبريل عليه ، أمر الله جبريل أن يقول : وما نتنزل نحن الملائكة بالوحي على الأنبياء والرسل إلا بأمر الله بالتنزيل على وفق الحكمة والمصلحة وخير العباد في الدنيا والآخرة.

إن لله تعالى التدبير والتصرف وأمر الدنيا والآخرة وما بين ذلك من الجهات والأماكن والأزمنة الماضية والحاضرة والمستقبلة ، فلا نقدم على أمر إلا بإذنه. وقوله : **﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾** خطاب جماعة لواحد ، وذلك لا يليق إلا بالملائكة الذين ينزلون على الرسول. والتنزل هنا : النزول على مهل ، أي أن نزول الملائكة وقتا بعد وقت لا يكون إلا بأمر الله تعالى.

وما نسيك ربك يا محمد ، وإن تأخر عنك الوحي ، ولا ينسى شيئا ، ولا يغفل عن شيء ، وإنما يقدّم ويؤخّر لما يراه من الحكمة ، وهذه الآية كقوله تعالى : **﴿وَالضُّحى وَاللَّيْلِ إِذا سَجى ، ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى﴾** [الضحى ٩٣ / ١ ـ ٣].

روى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني عن أبي الدرداء مرفوعا قال : «ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرّمه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئا» ثم تلا هذه الآية : **﴿وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾**.

والدليل على ذلك قوله سبحانه :

﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ

سَمِيًّا﴾ أي إن الله خالق السموات والأرض ومالكهما وما بينهما ، وهو المدبر والحاكم والمتصرف الذي لا معقب لحكمه ، فاثبت على عبادة ربك ، واصطبر على العبادة والطاعة وما فيها من المتاعب والشدائد ، ولا تنصرف عنها بسبب إبطاء الوحي ، هل تعلم للرب مثلا أو شبيها ، يكون أهلا للعبادة؟ فهو الخالق والمدبر والرازق والمنعم بأصول النعم وفروعها من خلق الأجسام والحياة والعقل وما يحتاجه الإنسان وغيره ، فإنه لا يقدر على ذلك أحد سواه سبحانه.

والمراد بنفي العلم نفي الشريك على أي وجه ، والاستفهام للإنكار ، وهل بمعنى لا ، أي لا تعلم.

قال ابن عباس : ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيتان على أمرين :

الأول ـ إن الملائكة رسل الله بالوحي لا تنزل على أحد من الأنبياء والرسل من البشر إلا بأمر الله مدبر الكائنات في كل زمان ومكان ، والذي لا يغفل عن شيء ولا ينساه ، إذا شاء أن يرسل الملك أرسله.

الثاني ـ إن الله عَزَّوَجَلَّ هو رب السموات والأرض وخالقهما وخالق ما بينهما ، ومالكهما ومالك ما بينهما ، فكما إليه تدبير الأزمان ، كذلك إليه تدبير الأعيان ، وبما أنه المالك على الإطلاق فهو الذي وجبت عبادته ، ولا يستحقها أحد سوى المالك المعبود ، الذي ليس له ولد ولا نظير أو مثيل أو شبيه يستحق مثل اسمه الذي هو الله وهو الرحمن.

والعبادة : الطاعة بغاية الخضوع لله تعالى ، وما على الرسول وغيره من المؤمنين إلا الاشتغال بما أمر به والاستمرار عليه ، دون استبطاء شيء آخر.

شبهة المشركين في إنكار البعث

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً (٦٧) فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا (٧٢)﴾

الإعراب :

﴿جِثِيًّا﴾ حال إن كان جمع (جاث) ، ومنصوب على المصدر إن كان مصدرا ، لا جمعا ، أي (جثوا) وأصله (جثوو) فأبدلوا منعا للاستثقال من الضمة كسرة ، وقلبوا الواو الأخيرة ياء.

﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ بالرفع ، على رأي أكثر البصريين : في موضع نصب ب ﴿لَنَنْزِعَنَ﴾ والضمة ضمة بناء. وعلى رأي الكوفيين : مبتدأ مرفوع ، و ﴿أَشَدُّ﴾ خبره ، والضمة ضمة إعراب ، و ﴿لَنَنْزِعَنَ﴾ ملغى لم يعمل. ومن قرأ بالنصب أيهم نصبها ب ﴿لَنَنْزِعَنَ﴾ وجعلها معربة ، وهي لغة بعض العرب.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها﴾ : إن : بمعنى (ما) أي ما أحد منكم ، وأحد : مبتدأ ، و ﴿مِنْكُمْ﴾ صفته ، و ﴿وارِدُها﴾ خبره. ولا يجوز إعمال ﴿إِنْ﴾ هنا لدخول حرف الاستثناء الذي يبطل عمل (ما).

البلاغة :

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسانُ﴾ أي الكافر ؛ لأنه المنكر للبعث ، فهو عام أريد به الخاص.

﴿مِتُ﴾ و ﴿حَيًّا﴾ بينهما طباق.

﴿أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

المفردات اللغوية :

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسانُ﴾ المنكر للبعث : أبيّ بن خلف أو الوليد بن المغيرة النازل فيه الآية. فإن الأول أخذ عظاما بالية ، ففتّها ، وقال : يزعم محمد أنّا نبعث بعد الموت. أو المراد بالإنسان : بعض الناس المعهود وهم الكفرة ، أو المراد به الجنس ، فإن المقول مقول فيما بينهم ، وإن لم يقل كلهم ، كقولك : بنو فلان قتلوا فلانا ، والقاتل واحد منهم.

﴿أَإِذا ما مِتُّ ، لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ من الأرض ، أو من حال الموت. وتقديم الظرف ؛ لأن المنكر وقت الحياة لأمر بعد الموت ، وهو منصوب بفعل دل عليه ﴿أُخْرَجُ﴾ لا به ، فإن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها ، والاستفهام بمعنى النفي ، أي لا أحيا بعد الموت. و ﴿ما﴾ زائدة للتأكيد ، وكذا اللام في ﴿لَسَوْفَ﴾ للتأكيد.

﴿أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ﴾ عطف على ﴿يَقُولُ﴾ وهو رد على مقاله السابق. ويذكر أصله : يتذكر أي يتفكر ﴿أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ فيستدل بابتداء الخلق على الإعادة.

﴿فَوَ رَبِّكَ﴾ قسم باسمه تعالى مضاف إلى نبيه ، تحقيقا للأمر ، وتفخيما لشأن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ لنجمعنهم أي الكفار المنكرين للبعث ﴿وَالشَّياطِينَ﴾ عطف أو مفعول معه. لما روي أن الكفرة يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم ، كل مع شيطانه في سلسلة. وهذا وإن كان مخصوصا بالكفار ، ساغ نسبته إلى الجنس البشري بأسره ، فإنهم إذا حشروا ، وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين ، فقد حشروا جميعا معهم ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ من خارجها ﴿جِثِيًّا﴾ على الركب ، جمع جاث : وهو البارك على ركبتيه.

﴿شِيعَةٍ﴾ أمة أو جماعة أو فرقة منهم شايعت دينا وتعاونت على الباطل ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا﴾ أي تكبرا وجرأة وعصيانا ومجاوزة للحد ، أي من كان أعصى وأعتى منهم ، فنطرحهم في جهنم. وفي ذكر الأشد تنبيه على أنه تعالى يعفو عن كثير من أهل العصيان. ولو خص ذلك بالكفرة ، فالمراد أنه يميز طوائفهم أعتاهم فأعتاهم ، ويطرحهم في النار ، على الترتيب ، أو يدخل كلا طبقتها التي تليق بهم.

﴿أَوْلى بِها﴾ أحق بجهنم ، الأشد وغيره منهم ﴿صِلِيًّا﴾ أي أحق بالصلي ، وهو الدخول فيها والاحتراق ، من صلي بالنار : إذا قاس حرها. ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ﴾ وما منكم أحد ، التفات إلى الإنسان ﴿وارِدُها﴾ مارّ بها وهي خامدة ، على الصراط الممدود عليها. وأما قوله : ﴿أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾ أي عن عذابها ﴿حَتْماً﴾ واجبا ﴿مَقْضِيًّا﴾ قضي بوقوعه ، فلا ينقص وعده مطلقا.

سبب النزول : نزول : ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسانُ﴾ :

قال الكلبي : نزلت في أبي بن خلف حين أخذ عظاما بالية ، يفتّها بيده ، ويقول : زعم لكم محمد أنّا نبعث بعد ما نموت.

وقال ابن عباس : نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه.

المناسبة :

بعد أن أمر سبحانه بالعبادة والمصابرة عليها ، ذكر أنها تنجيهم يوم الحشر الذي لا ريب فيه ، فإن إعادة الإنسان أهون من بدء خلقه.

وكذلك لما كان هدف السورة إثبات قدرة الله على الإحياء والإماتة ، وإثبات يوم القيامة ، ذكر هنا بعض شبهات الكفار المكذبين للبعث ، ورد عليها بالأدلة القاطعة.

وذكر أيضا ما يلقاه الكفار من الذل والعذاب ، وأردف ذلك ببيان أن جميع البشر يردون على النار ، فلا ينجو منها إلا من آمن واتقى وعمل صالحا.

التفسير والبيان :

﴿**وَيَقُولُ الْإِنْسانُ : أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا**﴾ أي ويقول الكافر المشرك منكر البعث متعجبا مستبعدا إعادته بعد موته : هل إذا مت وأصبحت ترابا ، سوف أخرج حيا من القبر ، وأبعث للحساب؟! وأسند الكلام لكل مشرك كافر ، وإن لم يقله إلا بعضهم ، لرضاهم بمقالته.

ونظير الآية : ﴿**وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ : أَإِذا كُنَّا تُراباً ، أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ [الرعد ١٣ / ٥] وقوله تعالى : ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ ، فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً ، وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قالَ : مَنْ يُحْيِ**

الْعِظامَ ، وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس ٣٦ / ٧٧ ـ ٧٩].

والدليل على إمكان الإعادة :

﴿أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ أي ألا يتفكر هذا الجاحد في أول خلقه ، فقد خلقناه من العدم ، دون أن يكون شيئا موجودا ، فيستدل بالابتداء على الإعادة ، والابتداء أعجب وأغرب من الإعادة.

والمعنى : أنه تعالى قد خلق الإنسان ، ولم يكن شيئا قبل خلقه ، بل كان معدوما بالكلية ، أفلا يعيده ، وقد صار شيئا ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ، ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم ٣٠ / ٢٧]. وجاء في الحديث الصحيح : «يقول الله تعالى : كذّبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني ، وآذاني ولم يكن له أن يؤذيني ، أما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون علي من آخره ، وأما أذاه إياي فقوله : إن لي ولدا ، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن لي كفوا أحد».

ثم هدد تعالى منكري البعث تهديدا من وجوه قائلا.

١ ـ ٢ : ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ، ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ أي أقسم الرب تبارك وتعالى بذاته الكريمة أنه لا بد أن يحشرهم جميعا وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ، بأن يخرجهم من قبورهم أحياء ويجمعهم إلى المحشر مع شياطينهم الذين أغووهم وأضلوهم. ثم ليحضرنهم حول جهنم بعد طول الوقوف ، جاثين قاعدين على ركبهم ، لما يصيبهم من هول الموقف وروعة الحساب ، كما قال تعالى : ﴿وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً﴾ [الجاثية ٤٥ / ٢٨]. وهذا الإحضار يكون قبل إدخالهم جهنم ، ويكون على أذل صورة لقوله : ﴿جِثِيًّا﴾.

٣ ـ ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا﴾ أي لننتزعن ونأخذن من كل فرقة دينية أو طائفة من طوائف الغي والفساد أعصاهم وأعتاهم وأكثرهم تكبرا وتجاوزا لحدود الله ، وهم قادتهم ورؤساؤهم في الشر.

فهذه وجوه التهديد : أولها ـ الحشر مع الشياطين ، وثانيها ـ الإحضار قعودا حول جهنم في صورة الذليل العاجز ، وثالثها ـ تمييز البعض من البعض ، فمن كان أشدهم تمردا في كفره ، خص بعذاب أعظم ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٨٨] وقال : ﴿وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ١٣].

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا﴾ أي أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى نار جهنم ، ويخلد فيها ، وبمن يستحق تضعيف العذاب ، كما قال سبحانه : ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ ، وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٣٨].

ثم أخبر الله تعالى عن ورود الناس جميعا نار جهنم ، فقال :

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها ، كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا﴾ أي ما منكم من أحد من الناس إلا سوف يرد إلى النار ، والورود : هو المرور على الصراط ، كان ذلك المرور أمرا محتوما ، قد قضى سبحانه أنه لا بد من وقوعه لا محالة. وقيل : الورود : الدنو من جهنم وأن يصيروا حولها ، وهو موضع المحاسبة ، وقيل : الورود : الدخول ، لحديث : «الورود الدخول ، لا يبقى برّ ولا فاجر ، إلا دخلها ، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما ، كما كانت على إبراهيم». والأصح أن الورود : المرور ، للحديث التالي :

روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : يرد الناس جميعا الصراط ، وورودهم قيامهم حول النار ، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم من يمر مثل

البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل ، ومنهم من يمر كعدو الرجل ، حتى إن آخرهم مرا رجل نوره على موضع إبهامي قدميه ، يمر فيتكفّأ به الصراط ، والصراط دحض مزلّة [١] ، عليه حسك كحسك القتاد [٢] ، حافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار ، يختطفون بها الناس. وهذا المروي عن ابن مسعود سمعه عن النبي ﷺ.

وروى ابن جرير عن ابن مسعود أيضا قال : الصراط على جهنم مثل حد السيف ، فتمر الطبقة الأولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم ، ثم يمرون ، والملائكة يقولون : اللهم سلّم سلّم.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا﴾ أي بعد أن مر الخلائق كلهم على الصراط والنار ، ننجي الذين اتقوا ما يوجب النار ، وهو الكفر بالله ومعاصيه ، ننجيهم من الوقوع في النار ، فيمرون على الصراط بإيمانهم وأعمالهم. ونبقي الكافرين والعصاة في النار ، جاثين على ركبهم ، لا يستطيعون الخروج ، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود ، أما العصاة من المؤمنين فيخرجون بعد العذاب على معاصيهم ، فيخرج الله من النار من قال يوما من الدهر : لا إله إلا الله ، ولم يعمل خيرا قط.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات الكريمات ما يأتي :

١ ـ يتعجب الكافر منكر البعث ويستبعد إعادته بعد موته ، ولكن لا داعي لتعجبه ، فإن الله قادر على كل شيء ، ولو تأمل قليلا لأدرك أن من خلق

---

(١) دحض مزلة : بمعنى واحد ، وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر.

(٢) أي عليه شوك كشوك نبات بنجد يقال له : السعدان.

الإنسان من العدم ، قادر على إعادته مرة أخرى ، والإعادة أهون من ابتداء الخلق في ميزان عقل الإنسان ، أما بالنسبة لله فهما سواء عليه.

٢ . الحشر وجمع الخلائق للحساب أمر ثابت أيضا بعد البعث من القبور ، ويحشر كل كافر مقرونا مع شيطان في سلسلة.

٣ . يحضر الله الكفار جاثين على ركبهم حول جهنم ، فهم لشدة ما هم فيه من الأهوال لا يقدرون على القيام.

٤ . يستخرج الله من كل أمة وأهل دين باطل أعتى الناس وأعصاهم ، وهم القادة والرؤساء ، لمضاعفة العذاب عليهم.

٥ . الله تعالى أعلم بمن هو أحق بدخول النار ، من الإنس والجن ، وبمن يخلد فيها ، وبمن يستحق تضعيف العذاب.

٦ . إن ورود جميع الخلائق على النار ، أي المرور على الصراط ، لا الدخول في النار ، أمر واقع لا محالة. وقد فسر ابن عباس وابن مسعود وكعب الأحبار والسّدّي والحسن البصري الورود بالمرور على الصراط. قال الحسن : ليس الورود الدخول ، إنما تقول : وردت البصرة ولم أدخلها ، فالورود : أن يمروا على الصراط ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠١] قالوا : فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده منها. وقوله سبحانه بعد هذه الآية : ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها﴾ ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها ، وقوله عزّوجلّ : ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل ٢٧ / ٨٩]. وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم فيما رواه الشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة : «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد ، تمسّه النار إلا تحلّة القسم» أي لكن تحلة القسم لا بد منها في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها﴾ وهو الجواز على الصراط أو الرؤية أو الدخول دخول سلامة ، فلا يكون في ذلك شيء من مسيس النار.

٧ ـ بنجي الله المتقين ، ويخلصهم من نار جهنم ، ويترك الكافرين فيها قعودا مخلدين على الدوام. والمذهب المقبول : أن صاحب الكبيرة وإن دخلها ، فإنه يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو. وقالت المرجئة : لا يدخل ، وقالت الخوارج : يخلد. والقائلون بأن الورود الدخول ، احتجوا بهذه الآية : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ..﴾ لأنه لم يقل : وندخل الظالمين ، وإنما قال : ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾.

قال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ألم يقل ربنا : إنا نزد النار؟ فيقال : لقد وردتموها فألفيتموها رمادا. وعقب القرطبي عليه قائلا : وهذا القول يجمع شتات الأقوال ، فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها ، فقد أبعد عنها ، ونجّي منها. نجانا الله تعالى منها بفضله وكرمه ، وجعلنا ممن وردها ، فدخلها سالما ، وخرج منها غانما [1].

شبهة أخرى للمشركين بحسن الحال في الدنيا

﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً (٧٤) قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً (٧٥) وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦)﴾

---

(١) تفسير القرطبي : ١١ / ١٣٩.

الإعراب :

﴿بَيِّناتٍ﴾ حال.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا .. وَرِءْياً كَمْ﴾ منصوب بأهلكنا ، أي وكم قرن أهلكنا ، فحذف ﴿قَرْنٍ﴾ لدلالة الكلام عليه. ورئيا يقرأ بالهمز وترك الهمز ، ويقرأ : وريئا على وزن «وريعا» بتقديم الياء على الهمزة. فمن قرأ بالهمز أتى به على الأصل لأنه من «رأيت» ومن قرأ وريا بغير همز ، أبدل من الهمزة ياء ؛ لانكسار ما قبلها ، وجاز انقلاب كل همزة ساكنة ياء إذا كان قبلها كسرة. ومن قرأ وريئا قلب اللام إلى موضع العين ، واللام ياء ، والعين همزة ، كقولهم : قسيّ. وقرئ : وزيا ، والزي معروف ، وأصله : زويّ ، إلا أنه قلبت منه الواو ياء ، لسكونها وانكسار ما قبلها.

﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ لفظه الأمر ، ومعناه الخبر ، كما يأتي لفظ الخبر ومعناه الأمر ، مثل ﴿وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ ..﴾ أي ليرضعن. وجواب ﴿حَتَّى إِذا رَأَوْا ..﴾ قوله : ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ و ﴿إِمَّا الْعَذابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ انتصب كل منهما على البدل من ﴿ما﴾ في قوله تعالى : ﴿رَأَوْا ما يُوعَدُونَ﴾.

البلاغة :

﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً﴾ لف ونشر مرتب ، حيث رجع الأول إلى ﴿خَيْرٌ مَقاماً﴾ والثاني إلى ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

﴿خَيْرٌ مَقاماً﴾ و ﴿شَرٌّ مَكاناً﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ﴾ أي على المؤمنين والكافرين ﴿آياتُنا﴾ من القرآن ﴿بَيِّناتٍ﴾ واضحات المعاني والإعجاز ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ نحن وأنتم ﴿خَيْرٌ مَقاماً﴾ مكانا ومنزلا ﴿نَدِيًّا﴾ أي ناديا ، أي مجتمعا ومجلسا وهو مجتمع القوم يتحدثون فيه ، ومنه دار الندوة لتشاور المشركين. وهم يعنون : نحن ، فنكون خيرا منكم. والمعنى : أنهم لما سمعوا الآيات الواضحات ، وعجزوا عن معارضتها ، أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا ، والاستدلال بذلك على فضلهم وحسن مكانهم عند الله ، لقصور نظرهم على الحال ، وعلمهم بظاهر من الحياة الدنيا.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي كثيرا ما أهلكنا من القرون أي الأمم الماضية ، والقرن : أهل كل عصر ، وهذا رد مع التهديد ﴿أَثاثاً﴾ هو متاع البيت من الفرش والثياب وغيرها.

﴿وَرِءْياً﴾ منظرا ، والمراد نضارة وحسنا ، مشتق من الرؤية ، والمعنى : فكما أهلكناهم لكفرهم ، نهلك هؤلاء.

﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ معناه الإخبار ، أي يمد ، أي يمهله بطول العمر والتمتع به ، والتمكن من التصرف في الحياة ، وهو جواب شرط : ﴿مَنْ كانَ﴾. ﴿مَدًّا﴾ أي يستدرجه في الدنيا. ﴿حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ﴾ هو غاية المد ﴿إِمَّا الْعَذابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ تفصيل للموعود ، فإنه إما العذاب في الدنيا كالقتل والأسر وغلبة المسلمين عليهم ، وإما يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزي والنكال ودخول جهنم ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً﴾ من الفريقين ، بأن عاينوا الأمر على عكس ما قدّروه وهو جواب الشرط ﴿وَأَضْعَفُ جُنْداً﴾ أنصارا أو أعوانا ، أهم وجندهم الشياطين أم المؤمنون وجندهم الملائكة؟.

﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً﴾ يزيد المهتدين بالإيمان بما ينزل عليهم من الآيات. وهي عطف على الجملة الشرطية المحكية بعد القول : ﴿قُلْ : مَنْ كانَ ..﴾ كأنه لما بيّن أن إمهال الكافر وتمتيعه بالحياة الدنيا ليس لفضله ، أراد أن يبيّن أن قصور حظ المؤمن منها ، ليس لنقصه ، بل لأن الله عزوجل أراد به ما هو خير ، وعوضه منه.

﴿وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ﴾ الطاعات التي تبقى آثارها ، ومنها الصلوات الخمس ، وقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر. ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً﴾ فائدة مما متّع به الكفرة من النعم الفانية التي يفتخرون بها ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ مرجعا وعاقبة ، بخلاف أعمال الكفار. والخيرية هنا في مقابلة قولهم : أي الفريقين خير مقاما.

المناسبة :

بعد أن أقام الله تعالى الحجة على مشركي قريش المنكرين للبعث ، أتبعه مع الوعيد والتهديد بذكر شبهة أخرى لهم : هي أنهم قالوا : لو كنتم أنتم على الحق ، ونحن على الباطل ، لكان حالكم في الدنيا أحسن وأطيب من حالنا ؛ لأن الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين في العذاب والذل ، وأعداءه المعرضين عن طاعته في العز والراحة ، ولما كان الأمر بالعكس ، فإنا نحن المتمتعين بالنعمة ورفاهية العيش على الحق ، وأنتم الواقعون في الخوف والذل والفقر على الباطل!!

فرد الله عليهم بأن الكفار السابقين كانوا أحسن منكم حالا ، وأكثر مالا ،

وقد أهلكهم الله بعذاب الاستئصال ، فليس نعيم الدنيا قرينة على محبة الله ، ولا سوء الدنيا علامة على غضب الله.

ثم رد عليهم ردا ثانيا بقوله : ﴿قُلْ : مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ ..﴾ ومضمونه : لا بد أن يأتيهم عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ، وحينئذ سيعلمون أن نعم الدنيا لا تنقذهم من ذلك العذاب.

روي أن قائل هذه المقالة هو النضر بن الحارث وأشباهه من قريش ، حينما رأوا أصحاب النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في خشونة عيش ورثاثة ثياب ، وهم في غضارة العيش ورفعة الثياب.

التفسير والبيان :

﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ إذا تليت على الكفار آيات الله القرآنية واضحات الدلالة والبرهان ، مبينات المقاصد ، صدوا عن ذلك وأعرضوا وقالوا مفتخرين على المؤمنين ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل : أي الفريقين (المؤمنين والكافرين) خير منزلا ومسكنا ، وأكبر جاها ، وأكثر أنصارا؟ والندي : النادي والمجلس ، وهو مجتمع الرجال للحديث ومجلسهم ، والعرب تسمي المجلس النادي ، فكيف نكون على الباطل ، وأولئك الضعفاء الفقراء المختفون المستترون في دار الأرقم على الحق؟ كما أخبر تعالى عنهم في آية أخرى : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ ..﴾ [الأحقاف ٤٦ / ١١]. وهذا اغترار بظاهر الحال في الدنيا ، متوهمين أن من كان غنيا ثريا كان على الحق والصواب ، ومن كان فقيرا كان على الباطل.

فرد الله تعالى عليهم شبهتهم بقوله :

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً﴾ هذا هو الجواب الأول

عن شبهتهم ، أي وكثيرا ما أهلكنا قبلهم من الأمم السابقة المكذبين رسلهم بكفرهم ، وكانوا أحسن من هؤلاء متاعا ومنظرا. والأثاث : المال أجمع ، من الإبل والغنم والبقر والمتاع ، أو متاع البيت خاصة من الفرش واللباس والستائر والبسط والأرائك والسرر (الأسرّة). والرئي : المنظر في تقدير الناس من جهة حسن اللباس أو حسن الأبدان وتنعمها.

والمعنى : أن مظاهر الثراء والنفوذ والكرامة لا تدل على حسن الحال عند الله ، فقد أهلك الله المترفين ، ونجى الفقراء الصالحين. وهذا تهديد ووعيد لكل من يتوهم من العوام وجهلة الأغنياء من المسلمين أن حسن حالهم في الدنيا دليل على رضا الله عنهم وحسن حالهم في الآخرة.

ثم أكد الله تعالى التهديد والوعيد وبالغ فيه ، فقال :

﴿قُلْ : مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا﴾ وهذا هو الجواب الثاني عن شبهة الكفار ، أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل : من كان في الضلالة منّا ومنكم ، ومن كان يخبط في الدنيا على هواه ، فإن الله تعالى جعل جزاءه أن يتركه في ضلالته ، ويدعه في طغيانه ، ويمهله فيما هو ، ويمدّه ويستدرجه ليزداد إثما ، حتى يلقى ربه ، وينقضي أجله.

وهذه سنة الله في استدراج الظالمين والعصاة ، يتركهم الله في ضلالهم ، بل ويزيدهم من نعم الدنيا وملذات الحياة ، إمعانا في إبقائهم على سوء حالهم الذي اتخذوه منهجا لهم ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً﴾ [آل عمران ٣ / ١٧٨] وقال سبحانه : ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ١١٠].

﴿حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ ، فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً﴾ أي حتى إذا شاهدوا رأي العين ما يوعدون به ، إما العذاب في الدنيا الذي يصيبهم بالقتل والأسر ، كما حصل يوم بدر ، وإما مجيء يوم

القيامة بغتة وما يشتمل عليه من العذاب الأخروي ، فحينئذ يعلمون من هو شر مكانا وأضعف جنودا ، على عكس ما كانوا يظنون في الدنيا من خيرية المقام وحسن الندي (المجلس) ، ويتبين لهم حقيقة الأمر ، أنهم هم شر مكانا ، لا خير مكانا ، وأضعف جندا ، لا أقوى ولا أحسن من فريق المؤمنين. وهذا رد على قولهم السابق : ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾. ونظير الآية : ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَما كانَ مُنْتَصِراً﴾ [الكهف ١٨ / ٤٣].

ولما ذكر الله تعالى إمداد أهل الضلالة في ضلالهم ، أخبر عن زيادة الهدى للمهتدين ، فقال:

﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً ، وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ أي إن الله يزيد المهتدين إلى الإيمان توفيقا وهدى للخير ؛ لأن الخير يدعو إلى الخير.

وهذه مقابلة أو مقارنة واضحة بين المؤمنين والكافرين ، فالله يجعل جزاء المؤمنين أن يزيدهم يقينا ، كما يجعل جزاء الكافرين أن يمدهم في ضلالتهم ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً ، وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ، وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ﴾ [التوبة ٩ / ١٢٤ ـ ١٢٥].

وإن الطاعات المؤدية إلى السعادة الأبدية ، لا الأموال والأمتعة والأندية ، خير جزاء ، وخير مرجعا وعاقبة ، وأجدى نفعا لصاحبها.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستدل بالآيات على ما يأتي :

١ ـ إن معايير الدين ومفاهيمه الصحيحة تختلف عن تصورات الجهلة والعوام

من الكفار والعصاة ، فهؤلاء يرون أن الغنى وحسن الحال وكثرة أهل المجلس أو النادي دليل على خيريتهم وأفضليتهم على المؤمنين. وغرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين وإيهامهم أن من كثر ماله فهو المحق في دينه ، وكأنهم لم يروا في الكفار فقيرا ولا في المسلمين غنيا ، ولم يعلموا أن الله تعالى نحّى أولياءه عن الاغترار بالدنيا ، وفرط الميل إليها.

٢ ـ لقد أهلك الله تعالى كثيرا من الأمم والجماعات هم أكثر متاعا وأموالا ، وأحسن منظرا لحسن لباسهم وظهور آثار النعمة على وجوههم وأجسامهم.

٣ ـ من كان والغا في الضلالة ، متأصلا في الكفر ، يتركه الله في طغيان جهله وكفره ، حتى يطول اغتراره ، فيكون ذلك أشد لعقابه ، فليعش ما شاء ، وليوسع لنفسه في العمر ، فمصيره إلى الموت والعقاب ، وهذا غاية في التهديد والوعيد.

٤ ـ ستتكشف الحقائق والأحوال يوم القيامة ، فيظهر أن الكفار شر مكانا وأسوأ منزلا ، وأضعف جندا من المؤمنين ، وهذا رد لقولهم الذي حكاه القرآن : ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

٥ ـ يثبّت الله المؤمنين على الهدى ، ويزيدهم توفيقا ونصرة ، وينزل من الآيات ما يكون سبب زيادة اليقين مجازاة لهم.

٦ ـ الباقيات الصالحات أي أعمال الخير والطاعة المالية والبدنية أفضل عند الله ثوابا وجزاء وأكثر منفعة لأهلها ، وخير مرجعا ، فكل أحد يرد إلى عمله الذي عمله.

مقالة المشركين في البعث والحشر استهزاء وطعنا

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً (٨٠)﴾

الإعراب :

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ رأيت هنا بمعنى علمت ، يتعدى إلى مفعولين ، والذي مع صلته: في موضع المفعول الأول.

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ في موضع المفعول الثاني.

﴿وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ﴾ أي نرث منه ما يقول ، فحذف حرف الجر ، فصار ﴿نَرِثُهُ﴾.

البلاغة :

﴿سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ﴾ مجاز عقلي من إسناد الشيء إلى سببه ، أي نأمر الملائكة بالكتابة.

﴿عَهْداً مَدًّا فَرْداً ضِدًّا عَدًّا وَفْداً وِرْداً إِدًّا﴾ سجع رصين.

المفردات اللغوية :

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا﴾ أي أخبر عن العاص بن وائل ، والفاء جاءت لإفادة معناها وهو التعقيب ، كأنه قال : أخبر أيضا بقصة هذا الكافر ، وأذكر حديثه عقيب حديث أولئك الذي قال فيه لخباب بن الأرت : لأوتين .. حينما قال له : تبعث بعد الموت ، في أثناء مطالبته له بمال ﴿لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً﴾ أي فإذا بعثت جئتني فأعطيك أو أقضيك مالا وولدا ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ أي أعلمه وأن يؤتى ما قاله ، واستغني بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل ، فحذفت. من قولهم : اطلع الجبل : إذا ارتقى إلى أعلاه ، والمعنى : أظهر له علم الغيب ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ بأن يؤتى

ما قاله ، وقيل : عهدا : عملا صالحا ، فإن وعد الله بالثواب عليه كالعهد عليه. والمعنى : أن ما ادّعى أن يؤتاه وتألى عليه ، لا يتوصل إليه بأحد هذين الطريقين : إما علم الغيب ، وإما عهد من عالم الغيب ، فبأيهما توصل إلى ذلك؟

﴿كَلَّا﴾ كلمة زجر أو ردع وتنبيه على أنه مخطئ فيما تصوّره لنفسه ، أي لا يؤتى ذلك ﴿سَنَكْتُبُ﴾ نأمر بكتب ، أو سنظهر له أنا كتبنا قوله. ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا﴾ سنطيل له العذاب الذي يستحقه ، أو نزيد عذابه ونضاعفه له ، لكفره وافترائه واستهزائه على الله ، ولذلك أكده بالمصدر ﴿وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ﴾ نرث منه ما يقول من المال والولد ، أي نسلبه منه بموته ، ونأخذه أخذ الوارث ، والمراد بما يقول : مدلوله ومصداقه : وهو ما أوتيه من المال والولد ﴿وَيَأْتِينا فَرْداً﴾ ويأتينا يوم القيامة لا يصحبه مال ولا ولد ، كان له في الدنيا ، فضلا عن أن يؤتى.

سبب النزول :

أخرج الأئمة منهم أحمد والشيخان (البخاري ومسلم) والترمذي والطبراني وابن حبّان عن خبّاب بن الأرتّ قال : كنت رجلا قينا ـ حدادا ـ وكان لي على العاص بن وائل دين ، فأتيته أتقاضاه ، فقال : لا ، والله ، لا أقضيك حتى تكفر بمحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فقلت : لا ، والله ، لا أكفر بمحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم حتى تموت ثم تبعث ، قال : فإني إذا متّ ثم بعثت جئتني ، ولي ثمّ مال وولد ، فأعطيك ، فأنزل الله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا ..﴾ الآية.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى الدلائل على صحة البعث ، ثم أورد شبهة المنكرين وأجاب عنها ، أورد هنا ما قالوه على سبيل الاستهزاء ، طعنا في القول بالحشر والبعث.

التفسير والبيان :

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا ، وَقالَ : لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً﴾ أي ألا أخبرك بقصة هذا الكافر الذي تجرأ على الله وقال : لأعطينّ في الآخرة مالا وولدا. وإيراد هذه القصة على سبيل التعجب للبشر.

ثم فنّد الله تعالى قوله بعدم اعتماده على دليل غيبي أو عهد من الله ، فقال : ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ أي إن دعواه تلك تعتمد على أحد أمرين : إما علم الغيب وإما عهد من الله ، فهل اطلع على الغيب حتى يعلم أنه في الجنة ، أو أخذ العهد الموثق من الله بذلك؟ والعهد عند الله للرحمة : أن يدخل المؤمن الجنة إذا قال : لا إله إلا الله ، وعمل الصالحات. وقوله : ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ إشارة إلى أن الحصول على علم الغيب أمر صعب شاق ؛ لأن الله لا يطلع على غيبه إلا من ارتضى من رسول.

ثم هدده تعالى بقوله :

﴿كَلَّا ، سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ ، وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا ، وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر لما قبلها ، وتأكيد لما بعدها ، ولم ترد في النصف الأول من القرآن. والإتيان بسين التسويف في قوله : ﴿سَنَكْتُبُ﴾ مع أنه يكتب من غير تأخير لمحض التهديد من المتوعد.

أي ليس الأمر على ما قال ، بل سنحفظ ما يقول ، فنجازيه به في الآخرة ، ونزيده عذابا فوق عذابه ، ونمده بالعذاب مدا في الدار الآخرة على قوله ذلك وكفره بالله في الدنيا ، مكان ما يطلبه من المدد بالمال والولد ، جزاء عمله ، ونميته فنرثه المال والولد الذي يقول : إنه يؤتاه ، ونسلبه إياه ، ويأتينا يوم القيامة فردا لا مال له ولا ولد مما كان معه في الدنيا ، لأنّا نسلبه منه ، فكيف يطمع أن نعطيه؟! وهذا كقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام ٦ / ٩٤].

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه قصة رجل آخر هو العاص بن وائل ، وهي من أعاجيب القصص التي

تدل على سخف الكافر ، وسذاجة تفكيره ، وتمنيه الأماني المعسولة ، وهو سيجد نقيضها تماما في عالم الآخرة.

إنه بالرغم من كفره الشديد بآيات الله ، وإنكاره البعث واستهزائه به ، يتأمل أن يعطى في الآخرة المال الوفير والولد الكثير ، وليس لديه برهان أو وثيقة على ما يقول. ومثل هذا القول يحتاج إلى أحد أمرين : إما الاطلاع على الغيب أو اتخاذ عهد موثق عند الله.

فهل علم الغيب حتى يعلم أنه في الجنة أم لا ، أم عاهد الله تعالى بالتوحيد والعمل الصالح والوعد أن يدخله الجنة؟!!

لم يكن كل ذلك ، لم يطلع على الغيب ، ولم يتخذ عند الرحمن عهدا ، وسيحفظ الله عليه قوله ، فيجازيه به في الآخرة ، وسيزيده عذابا فوق عذاب ، ويسلبه ما أعطاه في الدنيا من مال وولد ، ويأتي منفردا لا مال له ولا ولد ولا عشيرة تنصره ، ثم يزج به في نار جهنم جزاء عمله المنكر وكفره الظاهر.

الرد على عبّاد الأصنام بصيرورتهم لهم أعداء

واتخاذهم الشياطين أولياء

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً (٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (٨٧)﴾

الإعراب :

﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ﴾ عبادة : مصدر إما مضاف إلى الفاعل ، أي سيكفر المشركون بعبادتهم الأصنام ، كقوله تعالى : ﴿وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٣] وإما مضاف إلى المفعول ، أي ستكفر الأصنام بعبادة المشركين.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً يَوْمَ﴾ منصوب على الظرف ، وعامله إما : ﴿لا يَمْلِكُونَ﴾ وإما ﴿نَعُدُّ﴾. و ﴿وَفْداً﴾ حال ، أي وافدين ، ووفد : واحدهم وافد كصحب وصاحب ، وركب وراكب ، وهو اسم جمع وليس بتكسير.

﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً مَنِ﴾ إما مرفوع على البدل من واو ﴿يَمْلِكُونَ﴾ وإما منصوب على الاستثناء المنقطع.

البلاغة :

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً .. وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ : بين المتقين الأبرار والمجرمين الأشرار مقابلة.

﴿وَفْداً وِرْداً﴾ : جناس غير تام ، لتغير الحرف الثاني.

المفردات اللغوية :

﴿وَاتَّخَذُوا﴾ أي كفار مكة ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الأوثان ﴿آلِهَةً﴾ يعبدونهم ﴿عِزًّا﴾ منعة وقوة ، أي ليتعززوا بهم حيث يجعلونهم شفعاء عند الله بألا يعذبوا ﴿كَلَّا﴾ ردع وإنكار لتعززهم بالأصنام ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ﴾ سيجحد الآلهة عبادتهم ، ويقولون : ما عبدتمونا ، أي ينفون عبادتهم ، كما في آية أخرى : ﴿ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص ٢٨ / ٦٣] ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة ٢ / ١٦٦]. ﴿ضِدًّا﴾ أعداء وأعوانا عليهم. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ سلطانهم عليهم ، أو قيضنا لهم قرناء ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ تهيجهم إلى المعاصي وتغريهم بالتسويلات وتحبيب الشهوات. والأزّ والهز والاستفزاز : شدة الإزعاج والإغراء على المعاصي. والمراد : تعجيب رسول الله ﷺ من أقاويل الكفر وتماديهم في الغي ، وتصميمهم على الكفر بعد وضوح الحق ، على ما نطقت به الآيات المتقدمة.

﴿فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ لا تطلب العجلة بهلاكهم أو تعذيبهم ﴿إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أيام آجالهم عدا. والمعنى : لا تعجل بهلاكهم فإنه لم يبق لهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة.

﴿نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾

بإيمانهم ﴿إِلَى الرَّحْمنِ﴾ أي إلى دار كرامته وهي الجنة ﴿وَفْداً﴾ جمع وافد ، أي هم كما يفد الوافدون إلى الملوك لطلب الحوائج ، مكرّمين مبجّلين ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ بكفرهم ﴿وِرْداً﴾ جمع وارد أي مشاة عطاشى مهانين ، يساقون باحتقار وإذلال كما تساق البهائم.

﴿لا يَمْلِكُونَ﴾ أي الناس ﴿عَهْداً﴾ هو شهادة أن لا إله إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، أي التبري من الحول والقوة وعدم رجاء أحد إلا الله.

المناسبة :

بعد الكلام عن الحشر والنشر والبعث ، ردّ الله تعالى على عبّاد الأصنام الذين اتخذوا أصنامهم آلهة ، ليعتزوا بها يوم القيامة ، ويكونوا لهم شفعاء وأنصارا ينقذونهم من الهلاك ، فأبان تعالى أنهم سيكونون لهم أعداء. ثم بيّن سبب الضلال وهو وسوسة الشياطين ، وطلب إلى رسوله ألا يستعجل بطلب عذاب المشركين ، فما هي إلا آجال أو أنفاس معدودة ثم يهلكون.

ثم قارن تعالى بين وفد المتقين القادمين إلى الجنة ، وورد المشركين المشاة بإهانة إلى النار.

التفسير والبيان :

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ أي عجبا لهؤلاء الكفار بآيات الله ، يتمنون على الله الأماني ، ويتألون على الله تعالى ، مع أنهم كفروا وأشركوا بالله ، واتخذوا من دون الله آلهة ، ليكونوا لهم أنصارا وأعوانا ، وشفعاء عند ربهم يقربونهم إليه.

ولكن ليس الأمر كما زعموا ولا كما طمعوا ، فقال تعالى :

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ ، وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي ليس الأمر كما ظنوا وتأملوا في أنها تنقذهم من عذاب الله ، بل ستجحد يوم القيامة هذه الأصنام المتخذة آلهة عبادة الكفار لها ، يوم ينطقها الله سبحانه ؛ لأن الأصنام جمادات

لا تعلم العبادة ، ويكونون أعداء لهم ، وأعوانا عليهم ، بخلاف ما ظنوا فيهم ، فيقولون : ما عبدتمونا ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا : رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ ، فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ ، إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٨٦] ، وقال سبحانه : ﴿ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص ٢٨ / ٦٣] ، وقال عزّ وجلّ : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ، وَرَأَوُا الْعَذابَ ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ﴾ [البقرة ٢ / ١٦٦].

وبعد بيان حال هؤلاء الكفار مع الأصنام في الآخرة ، ذكر تعالى حالهم مع الشياطين في الدنيا ، فإنهم يسألونهم وينقادون لهم ، فقال :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي ألم تعلم أننا سلطنا الشياطين على الكفار ، وخلينا بينهم وبينهم ، ومكناهم من إضلالهم ، فهم يحركونهم إلى فعل المعاصي ، ويهيجونهم ويغرونهم ويغوونهم ، كما قال تعالى : ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ، وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ﴾ [الإسراء ١٧ / ٦٤].

وهذا إثارة لعجب الرسول صلّى الله عليه وسلّم من حال الكفار وإصرارهم على الكفر ، وتسلية له عن صدودهم وإعراضهم ، وتهوين الأمر على نفسه.

﴿فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ، إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي فلا تعجل يا محمد على هؤلاء بأن تطلب من الله إيقاع العذاب بهم وإهلاكهم وإبادتهم بسبب تصميمهم على الكفر وعنادهم ، إنما نعد لهم أوقاتا معدودة ، ونؤخرهم لأجل معدود مضبوط هو انتهاء آجالهم ، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله ، أي فليس بينك وبين عذابهم إلا أوقات محصورة معدودة ، وكل آت قريب ، قال تعالى : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٤٢] الآية ، وقال

سبحانه : ﴿فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ [الطارق ٨٦ / ١٧] ، وقال عزّ وجلّ : ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٤].

ثم أبان سبحانه ما سيظهر في يوم القيامة من الفصل بين المتقين وبين المجرمين في كيفية الحشر ، فقال :

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً﴾ أي واذكر أيها الرسول لقومك ، يوم نحشر جماعة المتقين وافدين ركبانا إلى جنة الله ودار كرامته ، والوفد : هم القادمون ركبانا ، مراكبهم من نور من مراكب الدار الآخرة ، عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «والذي نفسي بيده إن المتقين إذا خرجوا من قبورهم ، استقبلوا بنوق بيض ، لها أجنحة ، عليها رحال الذهب» ثم تلا هذه الآية.

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ أي ونحث المجرمين المكذبين على السير طردا إلى جهنم ، مشاة عطاشا ، كالإبل ترد الماء.

﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ أي لا يملك أحد عند الله الشفاعة لغيره ، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً﴾ [النبأ ٧٨ / ٣٨] ، و ﴿مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ : وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها ، بأن كان صالح الاعتقاد والقول والعمل ، وكان في الدنيا هاديا مصلحا. أما شفاعة الآلهة المزعومة فهي أمان زائفة ، وأوهام فارغة ، فهي لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا.

روى ابن أبي حاتم عن الأسود بن يزيد قال : قرأ عبد الله بن مسعود هذه الآية : ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ ثم قال : اتخذوا عند الله عهدا ، فإن الله يقول يوم القيامة : من كان له عند الله عهد فليقم ، قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، فعلّمنا ، قال : قولوا : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب

والشهادة ، إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا ألا تكلني إلى عمل يقربني من الشر ، ويباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لي عندك عهدا نؤديه إليّ يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد.

وهذا مأخوذ من معنى حديث [1] تبين منه أن المراد بالعهد كلمة الشهادة. ودلت الآية على ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ اتخذ المشركون بالله آلهة عبدوها من دون الله ، ليكونوا لهم أعوانا وأنصارا وشفعاء ، يقربونهم من الله ، ويمنعونهم من عذاب الله تعالى.

٢ ـ ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا ، فستجحد هذه الأصنام عبادة المشركين لها ، أو ينكرون هم أنفسهم أنهم عبدوا الأصنام ، وستكون هذه الأصنام أعوانا في خصومتهم وتكذيبهم ، ويكونون لهم أعداء ، فتقول بإنطاق الله لهم : يا ربّ عذب هؤلاء الذين عبدونا من دونك.

٣ ـ سلط الله الشياطين على الكافرين بالإغواء والإغراء بالشر ، والإخراج من الطاعة إلى المعصية.

٤ ـ لا داعي أيها الرسول أن تطلب العذاب لقومك المشركين ، فما بينهم وبين العذاب إلا أوقات قصيرة معدودة.

٥ ـ يحشر الله المتقين من قبورهم ركبانا معززين مكرّمين ، ويساق المجرمون الكفار المكذبون سوقا مشاة حفاة أفرادا عطاشا كالإبل التي ترد الماء ، وفي هذا

(١) ذكره الرازي في تفسيره : ٢١ / ٢٥٣ ، والقرطبي أيضا : ١١ / ١٥٤ ، وسيأتي نصه.

مهانة وذلّ ، ودليل على أن أهوال يوم القيامة تختص بالمجرمين ؛ لأن المتقين من الابتداء يحشرون في حال من التكريم ، فهم آمنون من الخوف ، فكيف يجوز أن تنالهم الأهوال؟!

٦ . لا يملك أحد عند الله الشفاعة لغيره ، إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا فهو يملك الشفاعة [١] ، والعهد : شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، والقيام بحقها ، فقد تظاهرت الأخبار بأن أهل الفضل والعلم والصلاح يشفعون ، فيشفّعون ، قال ابن مسعود : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأصحابه : «أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا؟ قيل : يا رسول الله ، وما ذاك؟ قال : يقول كل صباح ومساء : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمدا عبدك ورسولك ، فلا تكلني إلى نفسي ، فإنك إن تكلني إلى نفسي تباعدني من الخير ، وتقرّبني من الشر ، وإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لي عندك عهدا توفينيه يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد.

فإذا قال ذلك طبع الله عليها طابعا ، ووضعها تحت العرش ، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين الذين لهم عند الله عهد؟ فيقوم فيدخل الجنة».

---

(١) وحينئذ يكون الاستثناء متصلا ؛ لأن مَنِ في موضع رفع على البدل من واو يَمْلِكُونَ أي لا يملك أحد عند الله الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ، فإنه يملك. ويصح جعل الاستثناء منقطعا ، بمعنى لكن ، أي لا يملك هؤلاء الكفار الشفاعة لأحد ، لكن المسلمون الذين اتخذوا عند الرحمن عهدا ، فإنهم يملكون الشفاعة.

الرد على من نسب الولد إلى الله تعالى

﴿وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (٨٩) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (٩١) وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (٩٣) لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً (٩٥)﴾

الإعراب :

﴿إِدًّا﴾ ، ﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ .. هَدًّا ، أَنْ دَعَوْا ٩﴾ : ﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ : كاد واسمها وخبرها وصف منصوب لقوله تعالى : ﴿إِدًّا﴾. و ﴿هَدًّا﴾ : منصوب على المصدر ، و ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً﴾ : في موضع نصب على المفعول لأجله ، أي : وتخر الجبال هدّا لأن دعوا للرحمن ولدا. ويصح جعله مرفوعا بأنه فاعل : ﴿هَدًّا﴾ أو مجرورا بدلا من هاء ﴿مِنْهُ﴾.

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ ... كُلُ﴾ : مبتدأ ، و ﴿آتِي﴾ : خبره ، ووحّده حملا على لفظ كل. وقد يحمل على المعنى مثل : ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ﴾ [النمل ٢٧ / ٨٧]. و ﴿عَبْداً﴾ : حال من ضمير ﴿آتِي﴾ وهو عامله ، وهو اسم فاعل من ﴿آتِي﴾ يقال : أتى فهو آت.

البلاغة :

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا﴾ التفات إلى الخطاب للمبالغة في الذم ، وتسجيل الجرأة على الله عليهم.

المفردات اللغوية :

﴿وَقالُوا﴾ أي اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة بنات الله. ﴿جِئْتُمْ﴾ فعلتم.

﴿إِدًّا﴾ منكرا عظيما. والإدّة : الشدة. يقال : أدّني الأمر وآدني : أثقلني وعظم علي. ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشققن مرة بعد أخرى ، التفطر : التشقق. ﴿وَتَخِرُّ﴾ تسقط وتنهدم. ﴿هَدًّا﴾ أي تهدّ هدّا أو مهدودة. والمعنى : أن هول هذه الكلمة وعظمها بحيث لو تصوّر بصورة محسوسة ، لم تتحملها هذه الأجرام العظام ، وتفتّت من شدتها.

﴿وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ أي ما يليق به ذلك. ﴿إِنْ كُلُّ ...﴾ ما كل.

﴿عَبْداً﴾ منقادا خاضعا ذليلا يوم القيامة. ﴿لَقَدْ أَحْصاهُمْ﴾ حصرهم وأحاط بهم ، فلا يخرجون عن علمه وقدرته. ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ عدّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم ، فإن كل شيء عنده بمقدار. ﴿فَرْداً﴾ منفردا بلا مال ولا نصير.

المناسبة :

بعد أن ردّ الله تعالى على عبدة الأوثان ، عاد إلى الرد على من أثبت له ولدا كاليهود الذين قالوا : عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله : ﴿وَقالَتِ الْيَهُودُ : عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ، وَقالَتِ النَّصارى : الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ [التوبة ٩ / ٣٠] ، وبعض مشركي العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، وكل ذلك إفك مفترى.

التفسير والبيان :

﴿وَقالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا﴾ أي وقال الكفار (اليهود والنصارى والمشركون من العرب الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله) : إن الله اتخذ ولدا ، فردّ الله تعالى عليهم : لقد جئتم بهذا القول شيئا منكرا ، وقلتم قولا عظيم الجرم والإثم. والإدّ : الداهية والأمر المنكر الشنيع الفظيع.

﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا﴾ أي تقارب السموات أن تتشقق منه ، وأن تتصدع وتخسف الأرض ، وتسقط بصوت شديد ، وتنهدم الجبال هدما شديدا تتضعضع منه ، لشدة نكرانه ، إعظاما للربّ وإجلالا ، لأنهن مخلوقات على توحيده ، وأنه لا شريك له ولا نظير ولا ولد

ولا صاحبة. قال ابن عباس وكعب : فزعت السموات والأرض والجبال ، وجميع المخلوقات إلا الثقلين (الإنس والجن) ، وكادت أن تزول ، وغضبت الملائكة فاستعرت جهنم ، وشاك الشجر ، واكفهرت الأرض وجدبت حين قالوا : اتخذ الله ولدا. وقال محمد بن كعب : لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة ؛ لقوله تعالى : ﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا ، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً﴾.

وهذا تهويل عظيم ، وأنه موجب غضب الله وسخطه ، ولكن لولا حكمة الله وحلمه وأنه لا يبالي بكفر الكافر ، لقامت القيامة ، واستؤصل الكفار.

وسبب ذلك :

﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً ، وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ أي لأجل أنهم نسبوا الولد إلى الله ، ولا يصلح له ولا يليق به اتخاذ الولد ، لجلاله وعظمته ، فإن هذا نقص ، يتعالى الله ويتنزه عنه ؛ لأن جميع الخلائق عبيد له.

لهذا قال مؤكدا إنكار هذه الفرية :

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً﴾ أي كل واحد من الخلق من الملائكة والإنس والجن لا بدّ له أن يأتي إلى الله يوم القيامة مقرّا بالعبودية ، خاضعا ذليلا ، معلنا أنه مملوك لله ، فكيف يكون أحد المخلوقات ولدا له؟!

﴿لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً﴾ أي قد علم الله عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة ، وعدّ أشخاصهم وأحوالهم كلها ، فهم تحت سلطانه وأمره وتدبيره ، وكل شيء عنده بمقدار ، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة ، لا ناصر له ولا مال معه ، ولا مجير له إلا الله وحده لا شريك له ،

فيحكم في خلقه بما يشاء ، وهو العادل الذي لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون. وقوله ؛ ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ تأكيد لما سبق.

فقه الحياة أو الأحكام :

موضوع هذه الآيات : تقرير التوحيد ، وإثبات العبودية الخالصة لله ، وإنكار اتخاذ الله ولدا : ﴿قُلْ : هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص ١١٢ / ١ - ٤].

ومع هذا زعم اليهود والنصارى وبعض العرب القائلين بأن الملائكة بنات الله : أن لله ولدا ، وحاشا لله أن يتخذ ولدا ، إذ لا حاجة به إليه ، وهو منزه عن النقص والشريك والنظير والولد ، وتعدّ هذه المقالة منكرا عظيما ، وأمرا فظيعا ، وجرما شنيعا.

حتى لتكاد تزول الأكوان ، فتنشق السموات ، وتتصدع الأرض ، وتسقط الجبال بصوت شديد ، رفضا لهذا القول ، وإنكارا له ، وغضبا لله عزّوجلّ ؛ لأنها خلقت وأسست على الإقرار بتوحيد الله ؛ ولأن الولد يقتضي الحدوث ، ولا ولد إلا من والد ، والله سبحانه تعالى تنزه عن ذلك وتقدس.

وما كل من في السموات والأرض إلا وهو يأتي يوم القيامة مقرّا لله بالعبودية ، خاضعا ذليلا ، كما قال تعالى : ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ﴾ [النمل ٢٧ / ٨٧] أي ذليلين صاغرين ؛ لأن الخلق كلهم عبيده ، فكيف يكون واحد منهم ولدا له عزّوجلّ ؟ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا.

وهذه الآية : ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً﴾ دليل على أنه لا يجوز أن يكون الولد مملوكا للوالد ، فإن الله تعالى أبان المنافاة بين الأولاد والملك ، فإذا ملك الوالد ولده بنوع من التصرفات ، عتق عليه

فورا. أخرج مسلم في صحيحة : «لا يجزي ولد والدا إلا أن يجده مملوكا ، فيشتريه ، فيعتقه».

ولا يخفى على الله أحد من خلقه ، فإنه تعالى علم عددهم ، وعدهم عدا دقيقا ، وكل واحد يأتيه يوم القيامة واحدا منفردا لا ناصر له ، ولا مال معه لينفعه ؛ كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٨٨ ـ ٨٩] فلا ينفعه إلا ما قدّم من عمل صالح.

وفي قوله تعالى : ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً﴾ إشارة إلى أنكم أيها المشركون لا ترضون لأنفسكم باستعباد أولادكم ، والكل عبيده ، فكيف رضيتم له ما لا ترضون لأنفسكم؟! وإذا كنتم أيضا لا ترضون لأنفسكم البنات ، فكيف تنسبون البنات إلى الله؟ في قولكم : الملائكة بنات الله ، والأصنام بنات الله.

والخلاصة : إن هذه الآيات المقررة لنفي اتخاذ الإله ولدا ، تلتقي مع موضوع سورة الإخلاص المتقدمة : ﴿قُلْ : هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ ومع الحديث المتقدم الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تبارك وتعالى : كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن لي كفوا أحد».

محبة المؤمنين وتيسير الذكر المبين وإهلاك المجرمين

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (٩٨)﴾

المفردات اللغوية :

﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ الودّ : المودة والمحبة ، والمعنى : سيحدث لهم في القلوب مودة من غير تودد منهم ، يحبهم الناس ، ويتحابون فيما بينهم ، ويحبهم الله تعالى ، أي يرضى عنهم. ﴿يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ أنزلناه بلغتك العربية ، والباء بمعنى على ، أو على أصله لتضمن «يسرنا» معنى (أنزلنا). ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ الصائرين إلى التقوى بالإيمان والعمل الصالح. ﴿وَتُنْذِرَ﴾ تخوف ﴿لُدًّا﴾ جمع ألدّ : وهو الشديد الخصومة ، المجادل بالباطل ، واللد : هم كفار مكة. ﴿وَكَمْ﴾ أي كثيرا. ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ أي أمة من الأمم الماضية ، وهو تخويف للكفرة وتجسير للرسول ﷺ على إنذارهم. ﴿هَلْ تُحِسُّ﴾ تجد. ﴿رِكْزاً﴾ صوتا خفيا؟ لا ، والمعنى : فكما أهلكنا أولئك نهلك هؤلاء.

سبب النزول :

أخرج ابن مردويه والديلمي عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ لعلي كرم الله وجهه : «اللهم اجعل لي عندك عهدا ، واجعل لي في صدر المؤمنين ودّا ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية».

المناسبة :

بعد أن رد الله تعالى على أصناف الكفار ، وأبان أحوالهم في الدنيا والآخرة ، ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين ، وأوضح أنه سيغرس محبتهم في قلوب العباد ، من غير تودد منهم ، ولا تعرض لأسباب الوداد من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف أو غير ذلك.

ثم استأنف تعالى بيان تيسير القرآن بلسان النبي ﷺ ، لما تضمنه في هذه السورة من دلائل التوحيد والنبوة والحشر والنشر ، وليبشر به وينذر.

ثم ختم السورة بموعظة بليغة وإنذار بإهلاك المشركين كما أهلك من قبلهم من الأمم ، فإنهم إذا علموا أنه لا بدّ من زوال الدنيا ، والموت ، خافوا ذلك ، وخافوا أيضا سوء العاقبة في الآخرة ، فكانوا إلى الحذر من المعاصي أقرب.

التفسير والبيان :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ أي إن الذين صدقوا بالله ورسله ، وعملوا صالح الأعمال من المفروضات والتطوعات ، وأحلوا الحلال وحرموا الحرام ، وفعلوا ما يرضي الله ، سيغرس الله محبتهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة. والصالحات : هي الأعمال التي ترضي الله عَزَّوَجَلَّ ، لمتابعتها الشريعة المحمدية.

أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : «إذا أحبّ الله عبدا نادى جبريل : إني قد أحببت فلانا فأحبّه ، فينادي في السماء ، ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض. وإذا أبغض الله عبدا نادى جبريل : إني قد أبغضت فلانا ، فينادي في السماء ، ثم ينزل له البغضاء في الأرض» فاتفق الحديث مع الآية في إنزال المحبة في الأرض للعباد الصالحين ، وأن هذه المحبة والمودة في القلوب تكون بإحداث الله دون تعرض للأسباب المؤدية إلى إيجاد المودات من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف أو غير ذلك.

ثم استأنف الله تعالى كلامه لبيان موقع هذه السورة ، لما فيها من التوحيد والنبوة والحشر والنشر ، والرد على الفرق الضالة المضلة ، فقال : ﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا﴾ أي يسرنا القرآن لك بإنزالنا له على لغتك ، وفصلناه وسهلناه ، لتبشر به المتصفين بالتقوى ، المستجيبين لله ، المصدقين لرسوله ، بأن لهم الجنة بالطاعة ، وتنذر به القوم الألداء ، الشديدي الخصومة والجدل ، العوج عن الحق ، المائلين إلى الباطل ، بان لهم النار بالكفر والعصيان.

ثم ختم تعالى السورة بموعظة بليغة قائلا :

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ، هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ، أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ أي كثيرا ما أهلكنا قبل العرب المشركين من الأمم والجماعات من الناس ، لكفرهم بآيات الله وتكذيب رسله ، فهل ترى منهم أحدا ، أو تسمع لهم صوتا؟!

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات ما يأتي :

١ ـ إذا أحب الله عبدا لتقواه ، ورضاه عنه باتباعه شرع الله ودينه ، كتب له المحبة والمودة في قلوب عباده الصالحين ، وعند الملائكة المقربين ، وإن كان مكروها عند الظلمة والكفار والفساق.

قال هرم بن حيّان : ما أقبل أحد بقلبه على الله تعالى إلا أقبل الله تعالى بقلوب أهل الإيمان إليه حتى يرزقه مودّتهم ورحمتهم.

والنموذج الأول لذاك هو رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، والنماذج التي بعده هم كبار صحابته ، قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن عوف ؛ جعل الله تعالى له في قلوب العباد مودة ، لا يلقاه مؤمن إلا وقّره ، ولا مشرك ولا منافق إلا عظّمه.

ومن كان محبوبا في الدنيا فهو كذلك في الآخرة ؛ فإن الله تعالى لا يحب إلا مؤمنا تقيا ، ولا يرضى إلا خالصا نقيا ، جعلنا الله تعالى منهم بمنّه وكرمه.

٢ ـ نزل القرآن الكريم بلسان العرب ولغتهم ، ليسهل عليهم فهمه.

٣ ـ عذب الله كثيرا من الأمم والجماعات عذاب الاستئصال ؛ لكفرهم بالله ، وتكذيبهم رسله الكرام ، وأكرم الله الأمم بالنبي محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، فرفع عنهم عذاب الإبادة والاستئصال.

٤ . في الآيتين الأخيرتين وعد لرسول الله ﷺ بالنصر والغلبة على المشركين العرب من قومه ، ووعيد لأولئك الكافرين وأمثالهم بالعقاب والعذاب والذل والهوان.

٥ . تنحصر مهمة النبي ﷺ في التبشير والإنذار ، وفي الآية حث له عليهما ، أي تبشير من أطاعه بالجنة ، وإنذار من عصاه بالنار.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

سورة طه

مكية ، وهي مائة وخمس وثلاثون آية.

التسمية :

سميت (سورة طه) لابتداء السورة بالنداء بها ﴿**طه ، ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى**﴾ وهو اسم من أسماء النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم ، وفي ذلك تكريم له ، وتسلية عما يلقاه من إعراض قومه.

مناسبتها لما قبلها :

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه هي :

أولا ـ أن طه نزلت بعد سورة مريم ، كما روي عن ابن عباس.

ثانيا ـ أنه ذكر في سورة مريم قصص عدد من الأنبياء والمرسلين (عشرة) مثل زكريا ويحيي وعيسى وإبراهيم ، وموسى الذي ذكرت قصته موجزة مجملة ، فذكرت في هذه السورة موضحة مفصلة ، كما وضحت قصة آدم عليه‌السلام الذي لم يذكر في سورة مريم إلا مجرد اسمه فقط.

ثالثا ـ أنه ذكر في آخر سورة مريم تيسير القرآن باللسان العربي ، لسان محمد صلى‌الله‌عليه‌وسلم للتبشير والإنذار ، وابتدئ ذكر هذه السورة بتأكيد هذا المعنى.

ما اشتملت عليه السورة :

موضوع هذه السورة كموضوعات سائر السور المكية وهو إثبات أصول الدين

من التوحيد والنبوة والبعث. وكانت بداية السورة ذات إيحاء وتأثير عجيب ، من خلال الحديث عن سلطان الله وعظمته وقدرته وشمول علمه ، وقد أدرك هذا عمر بن الخطاب ﷺ حين تلاوتها في بداية إسلامه ، كما هو معروف في قصة إسلامه.

وتضمنت السورة ما يأتي :

١ ـ القرآن الكريم تذكرة لمن يخشى رب الأرض والسموات العلى ، وتثبيت لشخصية النبي ﷺ في قيامه بواجب الدعوة والتبليغ ، والإنذار والتبشير ، وعدم الالتفات لمكائد المشركين [الآيات : ١ ـ ٨].

٢ ـ البيان الجلي لقصة موسى وتكليم الله له ، وإلقائه صغيرا في اليم في صندوق ، وإرساله مع أخيه هارون إلى فرعون الطاغية الجبار ، وجداله بالحسنى لإثبات ربوبية الله وحده ، ومبارزته السحرة ، وتأييد الله له وانتصاره المؤزر ، وإيمان السحرة بدعوته ، ومعجزة انفلاق البحر وعبور بني إسرائيل فيه ، وإهلاك فرعون وجنوده ، وكفران بني إسرائيل بنعم الله الكثيرة عليهم ، وحديث السامري وإضلاله بني إسرائيل باتخاذ العجل إلها لهم ، وغضب موسى من أخيه هارون ، الآيات [٩ ـ ٩٨].

٣ ـ الإشارة لفائدة القصص القرآني ، وتوضيح جزاء من أعرض عن القرآن [٩٩ ـ ١٠١].

٤ ـ بيان حالة الحشر الرهيبة ، وإبادة الجبال ، وأوصاف المجرمين يوم القيامة ، والحساب العادل [١٠٢ ـ ١١٢].

٥ ـ عربية القرآن ووعيده وعصمة رسوله من نسيانه [١١٣ ـ ١١٤].

٦ ـ إيراد قصة آدم عليه‌السلام مع إبليس في الجنة [١١٥ ـ ١٢٢].

٧ ـ تأكيد بيان الجزاء في الدنيا والآخرة لمن أعرض عن القرآن ، بالعيشة الضنك في الدنيا ، والعمى في الآخرة عن الحجة المنقذة من العذاب [١٢٤ ـ ١٢٧].

٨ ـ العظة والاعتبار بهلاك الأمم السابقة وتأخير عذاب المشركين إلى يوم القيامة [١٢٨ ـ ١٢٩].

٩ ـ توجيهات ربانية للنبي ﷺ وأمته في الصبر على الأذى ، وتنزيه الله تعالى في الليل والنهار ، وعدم الافتتان بزهرة الحياة الدنيا لدى الآخرين ، وأمر الأهل بإقامة الصلاة ومتابعة التنفيذ [١٣٠ ـ ١٣٢].

١٠ ـ طلب المشركين إنزال آيات مادية من الله ، وإعذارهم بعد إرسال الرسول وإنزال القرآن ، ثم وعيدهم بالعذاب المنتظر يوم القيامة [١٣٣ ـ ١٣٥].

القرآن سبب السعادة

﴿طه (١) ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى (٣) تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى (٤)الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى (٥) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّرى (٦) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى (٧) اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى (٨)﴾

الإعراب :

﴿طه ، ما أَنْزَلْنا .. إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ ما أنزلنا : إما جواب القسم ؛ لأن قوله تعالى : ﴿طه﴾ جار مجرى القسم ، وإما أن يكون ﴿طه﴾ بمعنى : يا رجل ، أي يا رجل ما أنزلنا عليك القرآن

لتشقى ، ولام ﴿لِتَشْقى﴾ لام النفي ، أو لام الجحود. و ﴿تَذْكِرَةً﴾ منصوب على الاستثناء المنقطع.

﴿تَنْزِيلاً﴾ منصوب على المصدر. ﴿الرَّحْمنُ﴾ مبتدأ ، أو مرفوع على المدح أي هو الرحمن. و ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾ خبران للمبتدأ.

﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى﴾ أي وأخفى من السر ، كقولهم : الله أكبر ، أي أكبر من كل شيء.

﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ... اللهُ﴾ مبتدأ مرفوع ، أو بدل من ضمير ﴿يَعْلَمُ﴾ وخبر المبتدأ : جملة : ﴿لَهُ الْأَسْماءُ﴾.

البلاغة :

﴿مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ التفات من ضمير التكلم إلى الغيبة ، تفننا في الكلام ، وتفخيما للمنزل من وجهين : إسناد إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن ، والتنبيه على أنه واجب الإيمان به.

المفردات اللغوية :

﴿طه﴾ هذه الحروف المقطعة نزلت للتنبيه والتحدي بإعجاز القرآن البياني ، ما دام مركبا من الحروف التي تتكون منها لغة العرب نفسها. أو هو اسم من أسماء النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، أو معناه : يا رجل ، كما روي عن ابن عباس وكبار جماعة التابعين.

﴿ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ يا محمد ﴿لِتَشْقى﴾ لتتعب بما فعلت بعد نزوله من طول قيامك بصلاة الليل ، أي خفف عن نفسك. ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ لكن أنزلناه للتذكير والعظة لمن يخشى؟ لمن يخاف الله. ﴿الْعُلى﴾ جمع عليا ، مؤنث الأعلى ، كالكبرى مؤنث الأكبر.

﴿الْعَرْشِ﴾ في اللغة : سرير الملك ، وهو هنا كناية عن الملك ، أو هو مخلوق الله أعلم به ، وهذا هو الأصح. ﴿اسْتَوى﴾ استولى عليه ، بدليل قول الشاعر :

استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

والأصح أن الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، والإيمان به واجب ، كما قال الإمام مالك ، فهو استواء يليق بجلال الله تعالى. ﴿وَما بَيْنَهُما﴾ من المخلوقات. ﴿وَما تَحْتَ الثَّرى﴾ التراب الندي ، وهنا يراد مطلق التراب ، والمراد : الأرضون السبع ؛ لأنها تحت التراب. ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ﴾ في ذكر أو دعاء ، فالله غني عن الجهر به. ﴿وَأَخْفى﴾ من السر ، وهو حديث النفس والخاطر الذي يدور في الذهن ، دون التفوه به ، فلا تجهد نفسك بالجهر. ﴿لَهُ الْأَسْماءُ﴾ الصفات والأسماء التسعة والتسعون الوارد بها الحديث. والحسنى : مؤنث الأحسن. والذي

فضلت به أسماؤه في الحسن على سائر الأسماء : دلالتها على معاني التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والأفعال التي هي النهاية في الحسن ، كما قال الزمخشري.

سبب النزول :

قال مقاتل : قال أبو جهل ، والوليد بن المغيرة ، والنضر بن الحارث ، ومطعم بن عدي للنبي ﷺ : إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك ، فقال ﷺ : «بل بعثت رحمة للعالمين»

قالوا : بل أنت تشقى ، فأنزل الله الآية ردا عليهم ، وتعريفا لمحمد ﷺ بأن دين الإسلام هو سبب كل سعادة ، وما فيه المشركون هو الشقاء بعينه.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان أول ما أنزل الله عليه الوحي يقوم على صدور قديمه إذا صلى ، فأنزل الله : ﴿**طه ، ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى**﴾.

التفسير والبيان :

﴿**طه**﴾ هذه الحروف المقطعة التي يبتدأ بها في أوائل السورة لتنبيه المخاطب إلى ما يلقى بعدها ، ولتحدي العرب بالإتيان بمثل القرآن ، ما دام مركبا من حروف اللغة التي ينطقون بها ويكتبون. وقيل : هو اسم للنبي ﷺ ، ومعناه : طأ الأرض يا محمد ، قال ابن الأنباري : وذلك أن النبي ﷺ كان يتحمل مشقة الصلاة ، حتى كادت قدماه تتورمان ، ويحتاج إلى التروح ، فقيل له : طأ الأرض ، أي لا تتعب نفسك في الصلاة جدا ، حتى تحتاج إلى المراوحة بين قدميك.

﴿**ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى ، إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى**﴾ أي لم ننزل القرآن عليك لتتعب نفسك بسبب تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وفرط تحسرك على أن يؤمنوا ، فإن إيمانهم ليس إليك ، بل أنزلناه لتبلغ وتذكر ، فحسبك التبليغ

والتذكير ، ولا تلتفت بعدئذ لإعراض المعاندين ، ولا ترهق نفسك وتتعبها بحملهم على قبول دعوتك.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ [الكهف ١٨ / ٦]. فقوله : ﴿لِتَشْقى﴾ لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا.

روى جويبر عن الضحاك قال ، ومعه مقاتل : لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ ، قام به هو وأصحابه ، فقال المشركون من قريش : ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى ، فأنزل الله تعالى : ﴿طه ، ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى ، إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى﴾ فليس الأمر كما زعمه المبطلون ، بل من آتاه الله العلم ، فقد أراد به خيرا ، كما ثبت في الصحيحين عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين».

وما أنزلناه إلا تذكرة لتذكر به من يخاف عذاب الله ، وينتفع بما سمع من كتاب الله الذي جعلناه رحمة ونورا ودليلا إلى الجنة ، وليس عليك جبرهم على الإيمان ، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ﴾ [الشورى ٤٢ / ٤٨] ، و ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية ٨٨ / ٢٢].

وفي هذا إيناس للنبي ﷺ على إعراض قومه عن دعوته ، وضيق نفسه من تصميمهم على الكفر.

روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن ثعلبة بن الحكم قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة ، إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده : إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي».

وكلمة ﴿إِلَّا﴾ في الآية : إما استثناء منقطع بمعنى : لكن ، أو متصل

والتقدير : ما أنزلنا عليك القرآن لتحمل متاعب التبليغ إلا ليكون تذكرة.

وإنما خص ﴿لِمَنْ يَخْشى﴾ بالتذكرة ؛ لأنهم المنتفعون بها ، وإن كان القرآن عاما في الجميع ، وهو كقوله : ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة ٢ / ٢]. ودليل العموم قوله تعالى : ﴿تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ ، لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان ٢٥ / ١].

ووجه التذكير بالقرآن : أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يعظهم به وببيانه.

﴿تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماواتِ الْعُلى﴾ أي هذا القرآن الذي جاءك يا محمد نزل عليك تنزيلا من خالق الأرض والسموات العليا ، والمراد بهما جهة السفل والعلو ، الأرض بانخفاضها وكثافتها ، والسموات في ارتفاعها ولطافتها.

والمراد بالآية : إخبار العباد عن كمال عظمة منزل القرآن ، ليقدروا القرآن حق قدره.

﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾ أي ومنزل القرآن هو الرحمن المنعم بجلائل النعم ودقائقها ، وهو الذي علا وارتفع على العرش ، ولا يعلم البشر كيف ذلك ، بل نؤمن به على طريقة السلف الصالح الذين يؤمنون بالصفات من دون تحريف ولا تأويل ، ومن غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ، فهو استواء يليق بجلال الله وعظمته ، بلا كيف ولا انحصار ، كقوله تعالى : ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح ٤٨ / ١٠] لأن الله تعالى ليس بجسم ولا يشبه شيئا من الحوادث ، والعرش : شيء مخلوق ، لا ندري حقيقته.

ويرى الخلف تأويل الصفات ، فيراد بالاستواء : الاستيلاء والقهر والتصرف الكامل ، والعرش : هو الملك ، واليد : القدرة.

﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَما تَحْتَ الثَّرى﴾ أي إن الله

منزل القرآن هو أيضا مالك السموات والأرض وما بينهما من الموجودات ، ومالك كل سيء ومدبره ، ومتصرف فيه ، ومالك ما تحت التراب من شيء. فله الكون كله ملكا وتدبيرا وتصرفا.

﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى﴾ أي إن تجهر بدعاء الله وذكره ، فالله تعالى عالم بالجهر والسر ، وما هو أخفى منه مما يخطر بالبال ، أو يجري في حديث النفس ، فالعلم بكل ذلك سواء بالنسبة لله عزّجلّ . والمعنى : إن تجهر بذكر الله ودعائه ، فاعلم أنه غني عن ذلك ، فإنه يعلم السر وما هو أخفى من السر.

وأما إجراء الأدعية والأذكار على اللسان ، فلمساعدة القلب على ذلك ، ولتصور المعنى ، وشغل الحواس بالمطلوب وصرفها عن التفكر في غير ذلك ، كما قال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً ، وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف ٧ / ٢٠٥].

﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ إن صفات الكمال المتقدمة هي لله المعبود الحق الذي لا إله غيره ولا رب سواه ، وله أحسن الأسماء والصفات الدالة على كل الكمال والتقديس والتمجيد ، وهي التسعة والتسعون التي ورد بها الحديث الصحيح ، والتي تقدم ذكرها في سورة الأعراف [الآية : ١١٠] وله أيضا الأفعال الصادرة عن كمال الحكمة والصواب.

وبه يتبين أن هذه الآيات وصفت منزل القرآن على الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بأنه خالق الأرض والسماء ، وأنه الرحمن صاحب النعم ، وأنه الذي استوى على العرش وصاحب التصريف في الكون ، وأن له الكون كله ملكا وتدبيرا وتصرفا ، وأنه العالم بكل شيء ، سواء عنده السر والجهر ، وأنه الله الذي لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى والصفات العليا والأفعال السديدة.

فهل بعد إيراد هذه الصفات من يدعي أن القرآن من عند غير الله ، وهل يصح اتخاذ صنم من حجر أو خشب أو معدن شريكا لله؟

لذلك كله بادر عمر بن الخطاب في جاهليته بعقل متفتح إلى الإسلام والإيمان ، لما قرأت عليه أخته هذه الآيات.

وقد نزلت سورة طه قبل إسلام عمر رضي الله عنه .

إسلام عمر :

روى ابن إسحاق في سيرته : أن عمر قبل إسلامه كان شديد العداوة للإسلام ، وقد خرج في يوم متوشحا سيفه ، يريد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فلقيه نعيم بن عبد الله. فقال : أين تريد يا عمر؟ فقال : أريد محمدا هذا الصابئ ، الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها فأقتله ، فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض ، وقد قتلت محمدا؟! أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم؟!

فقال : وأي أهل بيني؟ قال : ختنك (زوج أختك) وابن عمك سعيد بن زيد ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما.

قال : فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب بن الأرت ، معه صحيفة فيها أول سورة يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حس عمر ، تغيب خباب في مخدع لهما ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة ، فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر قراءة خباب ، فلما دخل قال : ما هذه الهينمة (الكلام الخفي الذي لا يفهم) الذي سمعت؟

قالا له : ما سمعت شيئا ، قال : بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على

دينه. وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها.

فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك.

ولما رأى عمر ما صنع ، ندم وارعوى ، وقال لأخته : أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤونها آنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد.

فقالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال لها : لا تخافي ، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها ، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه ، فقالت له : يا أخي ، إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر.

فقام عمر واغتسل فأعطته الصحيفة وفيها طه فلما قرأ منها صدرا ، قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع خباب خرج إليه ، فقال له :

يا عمر ، والله ، إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته أمس ، وهو يقول : «اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب» فالله يا عمر ، فقال عمر : دلني يا خباب على محمد حتى آتيه. فأسلم و رضي الله عنه .

هذا ما ذكره ابن إسحاق مطولا ، وروى القصة بإيجاز الدارقطني في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : خرج عمر متقلدا بسيف ؛ فقيل له : إن ختنك وأختك قد صبوا [١] ، فأتاهما عمر وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب ، وكانوا يقرءون طه فقال : أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرؤه . وكان عمر رضي الله عنه يقرأ الكتب . فقالت له أخته : إنك رجس ولا يمسه إلا

(١) يقال : صبا : خرج من دين إلى دين ، وبابه «خضع».

المطهرون ، فقم فاغتسل أو توضأ ، فقام عمر ﷺ وتوضأ وأخذ الكتاب فقرأ طه.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ ليس إنزال القرآن العظيم لإتعاب النفوس وإضناء الأجسام ، وإنما هو كتاب تذكرة ينتفع به الذين يخشون ربهم. وفي هذا رد على كفار قريش ـ كما تقدم في سبب النزول ـ الذين قالوا : ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى ، فأنزل الله تعالى طه.

ويوضح ذلك ما قاله الكلبي : لما نزل على النبي ﷺ الوحي بمكة ، اجتهد في العبادة ، واشتدت عبادته ، فجعل يصلي الليل كله زمانا حتى نزلت هذه الآية ، فأمره الله تعالى أن يخفف عن نفسه ، فيصلي وينام ، فنسخت هذه الآية قيام الليل ، فكان بعد هذه الآية يصلي وينام.

وهكذا لم يكن إنزال القرآن لإتعاب النفس في العبادة ، وإذاقتها المشقة الفادحة ، وإنما القرآن كتاب يسر ، وما بعث النبي ﷺ إلا بالحنيفية السمحة.

٢ ـ الله تعالى منزل القرآن هو خالق الأرض والسموات العليا ، وهو الرحمن المنعم بجلائل النعم ودقائقها الذي اعتلى عرشه ، فكان مطلق التصرف في الخلق والكون ، وله جميع ما في السموات وما في الأرض وما بينهما من الموجودات وما تحت الأرض من معادن وذخائر وأموال وغير ذلك ، والأرضون سبع والسموات سبع أيضا ، وهو العالم بكل شيء ، يستوي عنده السر والجهر وما هو أخفى من السر ، قال ابن عباس : السر : ما حدث به الإنسان غيره في خفاء ، وأخفى منه : ما أضمر في نفسه مما لم يحدث به غيره.

وهو سبحانه الإله الوحيد في هذا الكون ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، له الأسماء الحسنى التسع والتسعون ، والصفات العليا ، والأفعال الحميدة الحكيمة السديدة.

وقد وحد الله نفسه سبحانه ؛ وذلك أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم دعا المشركين إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فكبر ذلك عليهم ، فلما سمعه أبو جهل يذكر الرحمن ، قال للوليد بن المغيرة : محمد ينهانا أن ندعو مع الله إلها آخر ، وهو يدعو الله والرحمن ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾ وأنزل : ﴿قُلِ : ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ ، أَيًّا ما تَدْعُوا ، فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ [الإسراء ١٧ / ١١٠] وهو واحد وأسماؤه كثيرة ؛ ثم قال ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾.

قصة موسى عليه‌السلام

ـ ١ ـ

تكليم ربه إياه (أو مناجاة موسى) وابتداء الوحي إليه في الوادي المقدس

﴿وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (٩) إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً (١٠) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَاتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى (١٦)﴾

الإعراب :

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ إِنِّي﴾ بالكسر على الابتداء ؛ لأن النداء في معنى القول ، وإن : تكسر بعد القول ؛ لأنها في تقدير الابتداء. وتقرأ بالفتح أني لوقوع ﴿نُودِيَ﴾ عليها ، أي نودي يا موسى بأني ، فحذف الياء تخفيفا. و ﴿أَنَا﴾ تأكيد لياء المتكلم.

﴿طُوىً﴾ من قرأ بتنوين ، جعله منصرفا اسما للمكان غير معدول ، كجعل وصرد ، ومن لم ينون جعله ممنوعا من الصرف إما للتأنيث والتعريف ، أو للتعريف والعدل عن طاو كعدول عمر عن عامر. وإعرابه : بدل من الوادي في كلا الوجهين.

﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ﴾ بدل مما يوحى.

﴿لِذِكْرِي﴾ إما مضاف إلى المفعول ، أي لتذكرني ، وإما مضاف إلى الفاعل ، أي لأذكرك.

﴿أَكادُ أُخْفِيها أُخْفِيها﴾ إما أن الهمزة فيه همزة السلب ، أي أريد إخفاءها ، مثل : أشكيت الرجل ، إذا أزلت شكايته ، وإما أن المعنى : أكاد أخفيها عن نفسي ، فكيف أظهرها لكم. ولام ﴿لِتُجْزى﴾ متعلقة ب ﴿أُخْفِيها﴾.

﴿فَتَرْدى﴾ إما منصوب جوابا للنهي بالفاء ، بتقدير (أن) مثل : ﴿لا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ ..﴾ [طه ٢٠ / ٨١] وإما مرفوع على تقدير : فإذا أنت تردى ، مثل ﴿يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ﴾ [النساء ٤ / ٧٣].

البلاغة :

﴿وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى﴾؟ للتشويق والحث على الإصغاء ، وهو استفهام تقرير.

﴿لِتَشْقى يَخْشى أَخْفى تَسْعى﴾ سجع حسن.

المفردات اللغوية :

﴿وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ﴾ تشويق لسماع قصته بقصد التأسي به ، والحديث : ما يبلغ الإنسان من الكلام ، سواء بالسمع أو بالوحي. وهو استفهام تقرير.

﴿إِذْ رَأى﴾ ظرف للحديث ؛ لأنه حدث ، أو مفعول لفعل مقدر وهو اذكر. ﴿لِأَهْلِهِ﴾ لامرأته. ﴿امْكُثُوا﴾ هنا ، والمكث : الإقامة ، قال ذلك في أثناء مسيره من مدين إلى مصر.

﴿آنَسْتُ﴾ أبصرت. ﴿آتِيكُمْ﴾ أجيئكم. ﴿بِقَبَسٍ﴾ بشعلة من النار مقتبسة على رأس فتيلة أو عود وقال : ﴿لَعَلِّي﴾ لعدم الجزم بوفاء الوعد. ﴿هُدىً﴾ هاديا يدلني على الطريق ، وكان أخطأها لظلمة الليل.

﴿فَلَمَّا أَتاها﴾ أتى النار ، وجد نارا بيضاء تتقد في شجرة خضراء. ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أي للتواضع والأدب. ﴿الْمُقَدَّسِ﴾ المطهر أو المبارك ، وهو تعليل للأمر باحترام البقعة. ﴿اخْتَرْتُكَ﴾ اصطفيتك للنبوة من قومك. ﴿لِما يُوحى﴾ إليك مني ، أو للوحي ، واللام تحتمل التعلق بكل من الفعلين. ﴿أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ دال على أن الأمر مقصور على تقرير التوحيد الذي هو منتهى العلم ، والأمر بالعبادة التي هي كمال العمل. ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ لتكون ذاكرا لي ، خصها بالذكر ، لما فيها من تذكر المعبود ، وشغل القلب واللسان بذكره ، وقيل: لذكر صلاتي ، لما روي أنه ﷺ قال فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي عن أنس : «من نام عن صلاة ، أو نسيها ، فليصلها إذا ذكرها» ، إن الله تعالى يقول : ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ كائنة لا محالة. ﴿أَكادُ أُخْفِيها﴾ أبالغ في إخفائها ولا أظهرها بأن أقول : إنها آتية ، أو أريد إخفاء وقتها عن الناس ، ويظهر لهم قربها بعلاماتها. ﴿لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى﴾ أي لتجزى فيها كل نفس بما تسعى من خير أو شر. ﴿فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها﴾ لا يصرفنك عن الإيمان بها. ﴿هَواهُ﴾ ما تهواه نفسه في إنكارها. ﴿فَتَرْدى﴾ فتهلك إن صددت عنها.

المناسبة :

لما عظم الله تعالى حال القرآن وحال الرسول فيما كلفه به من التبليغ ، أتبع ذلك بما يقوي قلب رسوله ﷺ في الإبلاغ من ذكر أحوال الأنبياء عليهم‌السلام كما قال تعالى : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ﴾ [هود ١١ / ١٢٠]. وبدأ بقصة موسى ليأتم به في تحمل أعباء النبوة ، وتبليغ الرسالة ، والصبر على مقاساة الشدائد ، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل ، وكان موسى أشد الناس صبرا على تحمل مكاره قومه. وفي سياق هذه القصة تسلية للنبي ﷺ لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوة.

التفسير والبيان :

﴿وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى﴾ أي وهل بلغك خبر موسى وقصته مع فرعون وملئه ، وكيف كان ابتداء الوحي إليه ، وتكليمه إياه؟ وبدئ بالاستفهام لتثبيت الخبر ، وتقريره في نفس المخاطب ، فذلك أسلوب مؤثر في إلقاء الكلام العربي.

قال المفسرون : استأذن موسى عليه السلام شعيبا في الرجوع إلى والدته ، فأذن له ، فخرج ، فولد له ابن في الطريق في ليلة شاتية مثلجة ، وكانت ليلة الجمعة ، وقد حاد عن الطريق ، فقدح موسى عليه السلام النار ، فلم تور المقدحة شيئا ، فبينا هو يزاول ذلك ، إذ نظر نارا من بعيد عن يسار الطريق ، فظن أنها نار من نيران الرعاة ، من جانب جبل الطور الواقع عن يمينه [1] ، كما قال تعالى :

﴿إِذْ رَأى ناراً ، فَقالَ لِأَهْلِهِ : امْكُثُوا ، إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً﴾ أي هل أتاك خبر موسى حين رأى نارا ، وكانت رؤيته للنار في ليلة مظلمة لما خرج مسافرا من مدين إلى مصر ، والصحيح كما قال الرازي أنه رأى نارا ، لا تخيل نارا ، ليكون صادقا في خبره ؛ إذ الكذب لا يجوز على الأنبياء.

فقال لزوجه وولده وخادمه مبشرا لهم : أقيموا مكانكم ، إني رأيت نارا من بعيد ، لعلني أوافيكم منها بشعلة مضيئة أو بشهاب ، أو جذوة كما في آية أخرى ، لعلكم تستدفئون (أو تصطلون) بها ، مما يدل على وجود البرد ، أو أجد عند النار من يهديني إلى الطريق ويدلني عليها ، كما قال تعالى : ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ، لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص ٢٨ / ٢٩]. والهدى : ما يهتدى به ، وهو اسم مصدر ، فكأنه قال : أجد على النار ما أهتدي به من دليل أو علامة. ومعنى الاستعلاء على النار : أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها ، ولأن المصطلين بها إذا أحاطوا بها كانوا مشرفين عليها.

﴿فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ : يا مُوسى ، إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ، فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً﴾ أي فلما أتى النار التي آنسها ، واقترب منها نودي من قبل الرب تبارك وتعالى ، كما قال : ﴿نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ

---

(١) تفسير الرازي ٢١ / ١٥

الشَّجَرَةِ : أَنْ يا مُوسى : إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ [القصص ٢٨ / ٣٠]. وقال هاهنا : ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أي نودي : يا موسى ، إن الذي يكلمك ويخاطبك هو ربك ، فاخلع حذاءك ؛ لأن ذلك أبلغ في التواضع ، وأقرب إلى التشريف والتكريم ، وحسن التأدب ، إنك بالوادي المطهر المسمى ﴿طُوىً﴾ من أرض سيناء.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى﴾ أي وأنا الله الذي اخترتك للرسالة والنبوة ، فاستمع سماع قبول واستعداد ووعي لما ينزل عليك من الوحي ، كما قال تعالى : ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي﴾ [الأعراف ٧ / ١٤٤] أي على جميع الناس الموجودين في زمانك.

ثم ذكر الموحى به فقال تعالى :

﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا ، فَاعْبُدْنِي ، وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ أي إن الذي يناديك هو الله ، وهو تأكيد لما سبق ، وهذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له. ووحدني وقم بعبادتي من غير شريك ؛ لأن اختصاص الألوهية به سبحانه موجب لتخصيصه بالعبادة ، والمعنى : أنا الإله الحق الواحد ، المستحق للعبادة دون سواي.

وأد الصلاة المفروضة على النحو الذي آمرك به ، مستكملة الأركان والشروط لتذكرني فيها وتدعوني دعاء خالصا إلي. وخص الصلاة بالذكر ، لكونها أشرف طاعة وأفضل عبادة. أو المعنى : أقم الصلاة عند تذكرك بالواجب وذكرك لي ؛ لما رواه الإمام أحمد عن أنس عن رسول الله ﷺ قال : «إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها ، فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله تعالى قال : ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾» وفي الصحيحين عن أنس أيضا قال : قال رسول‌الله ﷺ : «من نام عن صلاة أو نسيها ، فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك».

وأخرج الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله

ﷺ : «من نسي صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾».

واقتصر الحديث على حالتي النوم أو النسيان ؛ لأن شأن المؤمن ألا يقصر في واجبه بأداء الصلاة ، فإذا تركها عمدا كان قضاؤها ألزم وأوجب ؛ إذ لا كفارة لها إلا أداؤها أو قضاؤها.

ثم أخبر عن الساعة أو مجيء يوم القيامة ومصير الخلائق بعد توحيد الله وعبادته ، باعتبارها مقر الحساب على الأعمال ، فقال :

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى﴾ أي إن الساعة قائمة لا محالة ، وكائنة لا بد منها ، أكاد أخفيها من نفسي ، فكيف يعلمها غيري ، فاعمل لها الخير من عبادة الله والصلاة ، ولأن مجيء الساعة أمر حتم لازم لأجزي كل عامل بعمله ، ولتجزى كل نفس بما تسعى فيه من أعمالها ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور ٥٢ / ١٦] وقال سبحانه : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة ٩٩ / ٧ ـ ٨].

والله أخفى الساعة أي القيامة ، وأجل الإنسان ، ليعمل الإنسان بجد ونشاط ، ولا يؤخر التوبة ، ويترقب الموت كل لحظة. وكلمة ﴿أَكادُ﴾ أي أقارب ، وهي زائدة ، أي إن الساعة آتية أخفيها.

﴿فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها ، وَاتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى﴾ أي فلا يصرفنك يا موسى عن الإيمان بالساعة (القيامة) والتصديق بها ، والاستعداد لها من لا يصدق بها من الكفرة ، واتبع أهواءه وتصوراته المغلوطة ، بالانهماك في الملذات المحرمة الفانية ، فإنك إن تفعل ذلك تهلك.

والخطاب ليس مقصورا على موسى الرسول عليه‌السلام ، وإنما بدئ به لتعليم غيره ، فهو شامل جميع الناس البالغين العقلاء.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستفاد من الآيات ما يأتي :

١ ـ ضرورة تعلم قصص الأنبياء والاطلاع عليها للعبرة والعظة ، وقد حث القرآن على ذلك في مطلع الإخبار عن قصة موسى عليه‌السلام ، بصيغة الاستفهام الذي هو استفهام إثبات وإيجاب. ولفظ الاستفهام ﴿وَهَلْ أَتاكَ﴾ وإن كان لا يجوز على الله تعالى ، لأنه ليس بحاجة إليه ، لكن المقصود به كما تقدم تقرير الجواب في قلب النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وهذه الصيغة أبلغ في ذلك ، كما يقول المرء لصاحبه على سبيل التشويق ولفت النظر والانتباه : هل بلغك خبر كذا؟ فيتطلع السامع إلى معرفة الخبر.

٢ ـ على الزوج واجب الإنفاق على الأهل (المرأة) من غذاء وكساء ومسكن ووسائل تدفئة وقت البرد ، لذا بادر موسى عليه‌السلام إلى الذهاب في الليلة المظلمة الشاتية لإحضار شعلة نار أو جذوة (جمر من النار) للدفء ، وللحاجة الشديدة إليه ، وبخاصة حالة النفساء.

٣ ـ كان ذهاب موسى عليه‌السلام من أجل استحضار النار سببا في تكليم الله له ، وابتداء الوحي عليه ، وإيتائه النبوة والرسالة.

٤ ـ اقتضى أدب الخطاب الإلهي تكليفه بخلع نعليه ، ففعل فورا. جاء في الخبر : أن موسى عليه‌السلام خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي.

لذا وجب خلع النعال في أثناء الصلاة أو عند دخول المسجد إذا كان فيها نجاسة أو قذر ، فإن كانت طاهرة جازت الصلاة فيها ، حتى لقد قال بعض العلماء : إن الصلاة في النعلين أفضل ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف ٧ / ٣١].

وكيفية تطهير النعلين من النجاسة على التفصيل الآتي : إن تحقق فيهما نجاسة مجمعا على تنجيسها كالدم والعذرة (الغائط) من بول بني آدم لم يطهرها إلا الغسل بالماء عند مالك والشافعي وأكثر العلماء ، وإن كانت النجاسة مختلفا فيها كبول الدواب وأرواثها الرطبة ، فيطهرها المسح بالتراب عند الأوزاعي وأبي ثور ، وقال أبو حنيفة : يزيل النجاسة اليابسة الحك والفرك ، ولا يزيل الرطبة إلا الغسل ، أما البول فلا يجزئ فيه إلا الغسل. وعند المالكية قولان ، أرجحهما أن المسح يطهر ، وقال الشافعي : لا يطهر شيئا من ذلك كله إلا الماء.

٥ ـ حسن الاستماع واجب مطلوب في الأمور المهمة ، وأهمها الوحي المنزل من عند الله. وقد مدح الله من يحسن استماع كلام الله ، فقال : ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ ، فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ﴾ [الزمر ٣٩ / ١٨] وذم من يعرض عن الاستماع فقال : ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ الآية [الإسراء ١٧ / ٤٧] فمدح المنصت لاستماع كلام الله مع حضور العقل ، وأمر عباده بذلك أدبا لهم ، فقال : ﴿وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ ، فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٢٠٤] وقال هاهنا : ﴿فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى﴾ لأن بذلك ينال الفهم عن الله تعالى.

قال وهب بن منبه : من أدب الاستماع : سكون الجوارح وغض البصر ، والإصغاء بالسمع ، وحضور العقل ، والعزم على العمل ، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى ، وهو أن يكف العبد جوارحه ، ولا يشغلها ، فيشتغل قلبه عما يسمع ، ويغض طرفه ، فلا يلهو قلبه بما يرى ، ويحصر عقله ، فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه ، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم.

٦ ـ اشتمل أول الوحي على موسى على أصلين في العقيدة وهما الإقرار بتوحيد الله ، والإيمان بالساعة (القيامة) وعلى أهم فريضة بعد الإيمان وهي الصلاة.

وكان إخفاء الساعة للتهويل والتخويف ، وترك المماطلة والتسويف في الإقبال على التوبة والعمل الصالح ، فإن الإنسان إذا جهل وقت الساعة كان منها على حذر وخوف. وهذا أيضا سبب إخفاء الله وقت الموت.

وإقامة الصلاة واجب في الوقت المخصص لها ، ويجب قضاؤها كما دلت الأحاديث النبوية المتقدمة في حالتي النوم والنسيان. وأما من ترك الصلاة متعمدا ، فالجمهور أيضا على وجوب القضاء عليه ، وإن كان عاصيا آثما بتأخيرها عن وقتها ، فالمتعمد آثم ، والناسي والنائم غير آثمين. وحجة الجمهور قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [البقرة ٢ / ٤٣] ولم يفرق بين أن يكون في وقتها أو بعده ، وهو أمر يقتضي الوجوب. وأيضا فقد ثبت الأمر بقضاء النائم والناسي ، مع أنهما غير آثمين ، فالعامد أولى. ثم إن النسيان هو الترك ، قال الله تعالى : ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة ٩ / ٦٧] و ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر ٥٩ / ١٩] سواء كان مع ذهول أو لم يكن ؛ لأن الله تعالى لا ينسى ، وإنما معناه تركهم. وكذلك الذكر يكون بعد نسيان وبعد غيره ، قال الله تعالى لا ينسى ، وإنما معناه تركهم. وكذلك الذكر يكون بعد نسيان وبعد غيره ، قال الله تعالى في الحديث القدسي المتفق عليه عن أبي هريرة : «إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي» وهو تعالى لا ينسى ، فيكون ذكره بعد نسيان ، وإنما معناه : علمت ، فكذلك يكون معنى قوله ﷺ : «إذا ذكرها» أي علمها.

وأيضا فإن ديون الآدميين إذا كانت متعلقة بوقت ، ثم جاء الوقت ، لم يسقط قضاؤها بعد وجوبها ، وهي مما يسقطها الإبراء ، فإذا شغلت الذمة بدين وجب إبراء الذمة منه ، أداء أو قضاء ، وديون الله أحق بالوفاء.

ثم إن ترك يوم من رمضان متعمدا بغير عذر يوجب القضاء ، فكذلك الصلاة [1].

---

(١) تفسير القرطبي : ١١ / ١٧٨.

ومذهب المالكية : أن من ذكر صلاة وقد حضر وقت صلاة أخرى ، بدأ بالتي نسي إذا كان خمس صلوات فأدنى ، وإن فات وقت هذه. وإن كان أكثر من ذلك بدأ بالتي حضر وقتها.

وهذا هو مذهب الحنفية إلا أنهم قالوا : الترتيب عندنا واجب في اليوم والليلة إذا كان في الوقت سعة للفائتة ولصلاة الوقت. فإن خشي فوات الوقت بدأ بها ، فإن زاد على صلاة يوم وليلة لم يجب الترتيب عندهم.

وقال الشافعي : الاختيار أن يبدأ بالفائتة ما لم يخف فوات هذه ، فإن لم يفعل وبدأ بصلاة الوقت أجزأه.

وذكر الأثرم أن الترتيب عند أحمد واجب في صلاة ستين سنة فأكثر ، وقال : لا ينبغي لأحد أن يصلي صلاة ، وهو ذاكر لما قبلها ؛ لأنها تفسد عليه.

ودليل تقديم الفائتة قبل الحاضرة : ما روي في الصحيح عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ فاتته العصر يوم الخندق ، حتى غربت الشمس ، فصلى العصر بعد غروب الشمس ، ثم صلى بعدها المغرب. وروى الترمذي عن ابن مسعود : أن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق ، حتى ذهب من الليل ما شاء الله تعالى ، فأمر بالأذان بلالا فقام فأذن ، ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ثم أقام فصلى المغرب ، ثم أقام فصلى العشاء.

واختلف العلماء إذا ذكر فائتة في مضيق وقت حاضرة على ثلاثة أقوال :

ـ فذهب مالك والليث والزهري : إلى أنه يبدأ بالفائتة وإن خرج وقت الحاضرة.

وذهب الحسن البصري والشافعي وفقهاء الحديث والمحاسبي وابن وهب من المالكية : إلى أنه يبدأ بالحاضرة.

ـ وقال أشهب : يتخير فيقدم أيتهما شاء.

وأما من ذكر صلاة وهو في صلاة : فإن كان وراء الإمام ، فكل من قال بوجوب الترتيب ومن لم يقل به يقول : يتمادى مع الإمام حتى يكمل صلاته. ثم اختلفوا فقال أبو حنيفة وأحمد : يصلي التي ذكر ، ثم يصلي التي صلى مع الإمام ، إلا أن يكون بينهما أكثر من خمس صلوات.

وقال مالك : من ذكر صلاة وهو في صلاة قد صلى منها ركعتين ، سلم من ركعتين ، فإن كان إماما انهدمت عليه وعلى من خلفه وبطلت. ولو ذكرها في صلاة قد صلى منها ثلاث ركعات ، أضاف إليها رابعة وسلم ، وصارت نافلة غير فاسدة.

والفائتة بسبب النوم يبدأ عقب الصحو بصلاتها ، لحديث مسلم والدار قطني عن أبي قتادة : «ليس في النوم تفريط ، إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى ، فمن فعل ذلك فليصلها حين يتنبه لها ، فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها» والصحيح ترك العمل بإعادة الصلاة في الجملة الأخيرة ؛ لحديث الدار قطني عن عمران بن حصين : «أينهاكم الله عن الربا ويقبله منكم».

- ٢ -

انقلاب عصا موسى حية (المعجزة الأولى)

﴿وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى (١٧) قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى (١٨) قالَ أَلْقِها يا مُوسى (١٩) فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى (٢٠) قالَ خُذْها وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى (٢١)﴾

الإعراب :

﴿وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ ما﴾ : مبتدأ ، و ﴿تِلْكَ﴾ : خبره ، و ﴿بِيَمِينِكَ﴾ : في موضع نصب على الحال ، أي ما تلك كائنة بيمينك ، مثل : ﴿وَسارَ بِأَهْلِهِ﴾ أي سار غير منفرد.

﴿سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى سِيرَتَهَا﴾ منصوب ب ﴿سَنُعِيدُها﴾ بتقدير حذف حرف جر ، أي : سنعيدها إلى سيرتها ، فحذف حرف الجر ، فاتصل الفعل به فنصبه ، أي منصوب بنزع الخافض.

البلاغة :

﴿قالَ : هِيَ عَصايَ ، أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها ، وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي﴾ إطناب ، وكان مقتضى الجواب : هي عصاي ، ولكنه استرسل في الجواب ، تلذذا بالخطاب.

المفردات اللغوية :

﴿وَما تِلْكَ﴾؟ استفهام يتضمن تنبيها لما يريه فيها من العجائب ﴿يا مُوسى﴾ تكرار لزيادة الاستئناس والتنبيه ﴿أَتَوَكَّؤُا﴾ أعتمد عليها في المشي إذا عييت ، أو عند الوقوف على رأس القطيع ونحو ذلك ﴿وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي﴾ وأخبط ورق الشجر بها على رؤوس غنمي ، ليسقط ، فتأكله ﴿مَآرِبُ﴾ منافع وحاجات أخر ، جمع مأربه ، كحمل الزاد والسقاء وطرد الهوام.

﴿حَيَّةٌ﴾ ثعبان عظيم لآية أخرى ، والحية في الأصل : تطلق على الصغير والكبير والذكر والأنثى. والثعبان : العظيم من الحيات ، والجان : الصغير منها ﴿تَسْعى﴾ تمشي على بطنها سريعا ﴿خُذْها﴾ بأن يدخل يده في فمها فتعود عصا ﴿وَلا تَخَفْ﴾ لما رآها حية تسرع وتبتلع الحجر والشجر ، خاف وهرب منها ﴿سِيرَتَهَا الْأُولى﴾ أي إلى حالتها الأولى وهي كونها عصا.

المناسبة :

بعد مناجاة الله لموسى ، بدأ تعالى بذكر براهين نبوته ، لتصديق رسالته ، وأولها انقلاب العصا حية ، أي انقلاب الجماد حيوانا ، وبالعكس ، وتلك آيات باهرات ومعجزات قاهرات أحدثها الله فيها لأجله ، وليست من خواصها.

التفسير والبيان :

معجزة العصا لموسى هي البرهان الأول الخارق للعادة الدال على أنه لا يقدر

على مثل هذا إلا الله عَزَّجَلَّ ، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل ، قال تعالى : ﴿وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى؟﴾ هذا السؤال عن العصا سؤال تقرير ، سأله الله تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو العليم به ، للتنبيه على كمال قدرة الله ، والتأمل بما يحدثه من خوارق العادات ، والتأكد من أنها هي عصاه الحقيقية التي يعرفها ، وأنها هي التي ستتحول حية تسعى ، وإلا فقد علم الله ما هي.

والمعنى : أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها ، فسترى ما نصنع بها الآن؟!

فأجابه موسى بالمطلوب وزاد عليه ؛ لأنه استمتع بخطاب الله تعالى ، فقال : ﴿قالَ : هِيَ عَصايَ﴾ قال موسى : هي عصاي ، وبه تم المراد ، ولكن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكر فائدتين لها ، وأجمل الكلام في الجملة الثالثة ، ليسأله ربه : وما هذه المآرب.

﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها ، وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي ، وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى﴾ هذه عصاي أعتمد عليها في حال المشي ، وأخبط بها الشجر وأهزه ليسقط منه الورق لتأكله الغنم ، ولي فيها مصالح ومنافع وحوائج أخرى غير ذلك ، كحمل الزاد والسقي وطرد السباع عن الغنم ، وغير ذلك ، فمنافع العصا كثيرة معروفة.

فأمره الله بإلقائها لتظهر المعجزة :

﴿قالَ : أَلْقِها يا مُوسى﴾ قال تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ألق هذه العصا التي في يدك يا موسى.

﴿فَأَلْقاها ، فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى﴾ فألقاها موسى على الأرض ، فإذا هي قد صارت في الحال حية عظيمة ، ثعبانا طويلا ، يتحرك حركة سريعة ، وفي آية أخرى : فإذا هي تهتز كأنها جان ، وهو أسرع الحيات حركة ، ولكنه صغير ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جانٌّ ، وَلَّى مُدْبِراً ، وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل ٢٧ / ١٠] لما ظهر لها من سرعة الحركة والقوة ، لا لصغرها ، فتبين أن هذه الحية في غاية الكبر وفي غاية سرعة الحركة. وقوله ﴿تَسْعى﴾ تمشي وتضطرب.

ثم أمره تعالى بالعودة إلى مكانه ، فرجع موسى وهو شديد الخوف ، فقال :

﴿قالَ : خُذْها وَلا تَخَفْ ، سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى﴾ قال له ربه : خذها بيمينك ، ولا تخف منها ، سنعيدها بعد أخذك لها إلى حالتها الأولى التي تعرفها قبل ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ قوله تعالى : ﴿وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى﴾ خطاب من الله تعالى لموسى وحيا ؛ لأنه قال : ﴿فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى﴾. ولا بد للنبي في نفسه من معجزة يعلم بها صحة نبوة نفسه ، فأراه في العصا وفي نفسه ما أراه لذلك.

٢ ـ في جواب موسى في هذه الآية دليل على جواز كون الجواب على السؤال بأكثر مما سئل. جاء في الحديث الذي أخرجه أصحاب السنن الأربعة وابن أبي شيبة عن أبي هريرة : سئل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عن ماء البحر للتوضؤ به ، فقال : «هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته». وسألته صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم امرأة عن الصغير حين رفعته إليه ، فقالت : ألهذا حج؟ قال : «نعم ، ولك أجر» أخرجه مسلم عن ابن عباس.

٣ ـ قوله تعالى : ﴿وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ ..﴾ خطاب من الله تعالى لموسى بلا واسطة ، لا يلزم منه أن يكون موسى أفضل من محمد ؛ لأن الله تعالى خاطب أيضا محمدا عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج في قوله : ﴿فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى﴾ [النجم ٥٣ / ١٠] إلا أن الفرق بينهما أن الذي ذكره مع موسى عليه‌السلام أفشاه الله إلى الخلق ، والذي ذكره مع محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كان سرا لم يطلع عليه أحدا من الخلق.

٤ ـ قال ابن عباس : إمساك العصا سنة للأنبياء وعلامة للمؤمن. وقال الحسن البصري : فيها ست خصال : سنة للأنبياء ، وزينة الصلحاء ، وسلاح على الأعداء ، وعون للضعفاء ، وغم للمنافقين ، وزيادة في الطاعات.

ومنافع العصا كثيرة ، منها اتخاذها قبلة في الصحراء ، وقد كان للنبي ﷺ عنزة [١] تركز له فيصلي إليها ، وكان إذا خرج يوم العيد أمر بالحربة ، فتوضع بين يديه ، فيصلي إليها ، وذلك ثابت في الصحيح. وفي الصحيحين : أنه ﷺ كان له مخصرة [٢].

والإجماع منعقد على أن الخطيب يخطب متوكئا على سيف أو عصا. وكان ابن مسعود صاحب عصا النبي ﷺ وعنزته ؛ وكان يخطب بالقضيب ، وعلى ذلك الخلفاء وكبراء الخطباء ؛ وعادة العرب العرباء الفصحاء اللسن البلغاء : أخذ المخصرة والعصا والاعتماد عليها عند الكلام ، وفي المحافل والخطب.

٥ ـ لقد تحولت العصا الملقاة من يد موسى حية كبيرة سريعة الحركة بفعل الله عزّوجلّ القادر على خرق العوائد ، فقلب الله أوصافها وأعراضها ، كذلك عادت الحية عصا إلى حالتها الأولى بفعل الله تعالى ، وكل ذلك كان معجزة لموسى عليه‌السلام وبرهانا حسيا قطعيا على نبوته.

وإنما أظهر الله هذه الآية لموسى ، لئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون.

وكان خوف موسى عند انقلابها لأول مرة حية ـ بعد أن علم أنه مبعوث من عند الله إلى الخلق ـ بمقتضى الطبع الإنساني الذي يخاف من الحيات لسميتها

---

(١) العنزة : مثل نصف الرمح أو أكبر شيئا ، وفيها سنان مثل سنان الرمح. والعنزة والحربة والنيزك والآلة بمعنى واحد.

(٢) المخصرة : ما يختصره الإنسان بيده ، فيمسكه من عصا أو عكازة أو مقرعة أو قضيب ، وقد يتكئ عليها.

وخطرها ؛ لأنه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط. وعند الفزع الشديد قد يذهل الإنسان عن بعض خواصه. قال الشيخ أبو القاسم الأنصاري رحمه الله تعالى : وذلك الخوف من أقوى الدلائل على صدقه في النبوة ؛ لأن الساحر يعلم أن الذي أتى به تمويه ، فلا يخافه البتة.

.٣٠

اليد البيضاء (المعجزة الثانية)

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً (٣٥)﴾

الإعراب :

﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ بيضاء : حال من ضمير ﴿تَخْرُجْ﴾ و ﴿آيَةً﴾ إما منصوبة على الحال بدلا من ﴿بَيْضَاءَ﴾ أي تخرج مبينة عن قدرة الله تعالى ، وإما منصوبة بتقدير فعل ، أي آتيناك آية أخرى.

﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً لِي﴾ في موضع نصب ظرف ل . ﴿اجْعَلْ﴾ أو صفة ل ﴿وَزِيراً﴾ فلما تقدم صار منصوبا على الحال.

﴿هَارُونَ أَخِي هَارُونَ﴾ منصوب على البدل من قوله : ﴿وَزِيراً﴾ وهو ممنوع من الصرف للعلمية (التعريف) والعجمة ، و ﴿أَخِي﴾ عطف بيان ، أو بدل.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً كَثِيراً﴾ منصوب لأنه صفة لمصدر محذوف ، أي نسبحك تسبيحا كثيرا.

﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ يقرأ بوصل الهمزة وقطعها ، فالوصل دعاء وطلب وهو كالأمر ، والقطع فعل مضارع مجزوم ؛ لأنه جواب ﴿اجْعَلْ﴾ على تقدير شرط مقدر ، فهو مجزوم بجواب الطلب.

البلاغة :

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ استعارة ، استعار جناح الطير بجنب الإنسان.

﴿بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ فيه احتراس : وهو أن يؤتى بشيء يرفع توهم غير المراد ، فلو اقتصر على ﴿بَيْضَاءَ﴾ لأوهم أن ذلك من برص أو بهق ، فاحترس بقوله ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿وَاضْمُمْ﴾ الضم : الجمع ﴿يَدَكَ﴾ اليمنى بمعنى الكف ﴿إِلَى جَنَاحِكَ﴾ إلى جنبك الأيسر تحت العضد ، علما بأن أصل الجناح للطائر ، ثم أطلق على اليد والعضد والجنب ، وهذا هو المراد هنا ﴿تَخْرُجْ﴾ خلاف ما كانت عليه من الأدمة ﴿بَيْضَاءَ﴾ مشعة كشعاع الشمس تعشي البصر ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ من غير عاهة أو قبح كالبرص الذي تنفر الطباع منه ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ معجزة ثانية غير العصا.

﴿لِنُرِيَكَ﴾ أي فعلنا ذلك لنريك بها ﴿مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ هي صفة : ﴿آيَاتِنَا﴾ أي من آياتنا العظمى الدالة على قدرتنا وعلى رسالتك. وإذا أراد عودها إلى حالتها الأولى ، ضمها إلى جناحه كما تقدم ، ثم أخرجها ﴿اذْهَبْ﴾ رسولا ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ ومن معه بهاتين الآيتين وادعه إلى العبادة ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ جاوز الحد في كفره ، وعتوه وتجبره ، حتى ادعى الألوهية ﴿اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ أي وسعه لتحمل أعباء الرسالة والصبر على مشاقها ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ سهل لي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ أزل تلك العقدة التي في لساني ، حدثت في احتراقه بجمرة وضعها بفيه وهو صغير ، لئلا ينفر مني الناس ويستخفوا بي ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ يفهموا قولي عند تبليغ الرسالة.

﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً﴾ معينا ، والأزر : القوة أو الظهر ، يقال : آزره : أي قواه وأعانه ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أي اجعله شريكا معي في النبوة والرسالة ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً﴾ أي تسبيحا كثيرا ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ أي ونذكرك ذكرا كثيرا ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً﴾ عالما بأحوالنا ، فأنعمت بالرسالة ، ولا نريد بالطاعة إلا رضاك.

المناسبة :

بعد أن ذكر تعالى معجزة العصا الدالة على صدق رسالة موسى عليه السلام ، وهي المعجزة الأولى ، ذكر المعجزة الثانية وهي معجزة اليد البيضاء التي تنقلب مشعة كشعاع الشمس ، تعشي البصر.

وبعد هاتين الآيتين أمره الله بالذهاب إلى فرعون ، لتبليغ رسالة ربه ودعوته إلى عبادة الله ، فدعا موسى عليه السلام ربه بأربعة أمور : شرح صدره ، وتيسير أمره ، وحل عقدة لسانه ، وجعل أخيه هارون نبيا وزيرا له ، لتقويته ، وتعاونه معه في أداء مهمة التبليغ ، وذكر الله وعبادته ، فصار مطلوب موسى ثمانية أمور ، أربع منها وسائل ، وأربع أخرى هي غايات.

التفسير والبيان :

هذا برهان ثان لموسى عليه السلام على نبوته ، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه أو في جناحه (جنبه) معبرا عن الجنب بالجناح ، فقال :

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى﴾ أي واضمم يا موسى يدك اليمنى أو كفك إلى جناحك (وهو جنبك تحت العضد) واجعلها تحت الإبط الأيسر ، تخرج بيضاء لامعة ذات نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر ، من غير عيب كبرص أو أذى أو شين. علما بأن جلد موسى كان أسمر. معجزة أخرى غير العصا ، ثم ردها فعادت كما كانت بلونها. وإذا حاول السحرة إبطال معجزة العصا ، فإنه لم يحاول أحد إبطال معجزة اليد.

وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها ، تخرج تتلألأ ، كأنها فلقة قمر. قال الحسن البصري : أخرجها والله كأنها مصباح ، فعلم موسى أنه قد لقي ربه عزّ وجلّ .

قال الله تعالى في مكان آخر : ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ، فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ﴾ [القصص ٢٨ / ٣٢] ، وعبر تعالى عن الجناح أيضا بالجيب ، فقال : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ، تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل ٢٧ / ١٢] ، ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [القصص ٢٨ / ٣٢].

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى﴾ فعلنا هذا لنريك بهاتين الآيتين بعض دلائل قدرتنا على كل شيء في السموات والأرض والمخلوقات الموجودات.

وبعد أن أظهر تعالى له هذه الآية أمره بالذهاب إلى فرعون ، وبين العلة في ذلك ، وهي أنه طغى ، فقال :

﴿اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى﴾ أي اذهب رسولا إلى فرعون ملك مصر الذي خرجت فارا منه ، ومعك ما رأيته من آياتنا الكبرى ، وادعه إلى توحيد الله وعبادته ، ومره بأن يحسن إلى بني إسرائيل ، فإنه كفر وتجاوز قدره والحدود كلها ، فآثر الحياة الدنيا وادعى أنه الرب الأعلى.

ولما أمر الله تعالى موسى عليه‌السلام بالذهاب إلى فرعون ، وكان ذلك تكليفا شاقا ، سأل ربه أمورا ثمانية ، ثم ختمها بعلة سؤال تلك الأشياء ، فقال :

١ ـ ﴿قالَ : رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ قال موسى : رب وسع لي صدري وأزل عنه الضيق فيما بعثتني به ، فإنه أمر عظيم وخطب جسيم ، وسبب هذا السؤال قوله : ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٣] ، فسأل الله تعالى أن يبدل ذلك الضيق بالسعة ، ليحتمل أذى الناس وأعباء الرسالة.

٢ ـ ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أي سهل علي القيام بما كلفتني به من تبليغ الرسالة ، وقوني على مهمتي ، فإن لم تكن أنت عوني ونصيري وإلا فلا طاقة لي بذلك.

٣ . ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ أي وأطلق لساني بالنطق ، وأزل ما فيه من العقدة والعي ليفهموا قولي وكلامي بتبليغ الرسالة. وقد كان في لسانه رتة (حبسة) أو لثغة حين عرض عليه وهو صغير التمرة والجمرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه ، فكان فيه لكنة ، وذلك حين نتف شعرة من ذقن فرعون وهو صغير ، فغضب ، وتوجس منه شرا ، فقالت امرأته : إنه صغير لا يدري شيئا ، فأتت له بجمرة وبلحة ، فوضع الجمرة على لسانه.

وروي أن الحسين رضي الله عنه كان في لسانه رتة ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «إن هذه ورثها من عمه موسى».

٤ . ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي﴾ أي واجعل لي عونا ومساعدا لي في بعض أموري ، من أهل بيتي هارون أخي ، اجعله رسولا ، ليتحمل معي أعباء الرسالة. ودعم الأنبياء تقتضيه حاجة نشر الدين ، لذا قال عيسى عليه السلام : ﴿مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ ، قالَ الْحَوارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ﴾ [آل عمران ٣ / ٥٢].

٥ ـ ٦ : ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أي يا رب أحكم به قوتي ، واجعله شريكي في أمر الرسالة ، حتى نؤدي المطلوب على الوجه الأكمل ونحقق أفضل الغايات. والحاصل أنه شفع له كي يكون نبيا مثله ليعينه ، ويشد به أزره (قوته) ويجعله ناصرا له ؛ لأنه لا اعتماد على القرابة.

٧ ـ ٨ : ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ أي لكي نزهك كثيرا عما لا يليق بك من الصفات والأفعال ، ونذكرك كثيرا وحدك دون أن نشرك معك غيرك. قال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا.

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً﴾ أي إنك يا رب كنت عليما بأحوالنا وأحوال

غيرنا ، في اصطفائك لنا ، وإعطائك إيانا النبوة ، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون الطاغية الجبار الذي ادعى الألوهية ، فنمتثل أمرك ، ولك الحمد على ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ إن إخراج موسى عليه السلام يده من جيبه أو جناحه بيضاء لامعة تضيء كضوء الشمس والقمر وأشد ضوءا : هي المعجزة الثانية بعد معجزة العصا.

٢ ـ أرسل الله موسى رسولا إلى فرعون الطاغية الذي ادعى الألوهية ، وآزرته فئته الباغية في ذلك الادعاء ، وأيد الله موسى بالعصا واليد ، وأراه ما يدل على أنه رسول.

٣ ـ دعا موسى ربه ، والدعاء نوع من العبادة ، لتيسير القيام بمهمته وتحقيقه أحسن الغايات ، وقد أجابه ربه لكل ما طلب لقوله تعالى : ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى﴾ ، فشرح صدره وأزال عنه الضيق والغم ، ويسر أمره وقواه ، وانحل أكثر العقد من لسانه ، وإن بقي منها شيء قليل ، لقوله تعالى حكاية عن فرعون : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٥٢] وجعل له أخاه هارون نبيا ليعاونه في أداء الرسالة ، والتعاون ضروري لإنجاح المقصود ، وآزره وأحكم قوته به ، وشاركه في مهمته ، وكانا كثيرا ما يسبحان الله وينزهانه عما لا يليق به من نقص كادعاء ولد أو شريك معه ، ويذكرانه وحده لا شريك له ، عملا بما دعا به موسى عليه السلام.

٤ ـ إن الله تعالى عالم بخفيات الأمور ، عالم بموسى وأخيه وبأحوال فرعون وغير ذلك ، مدرك ما تعرض له موسى في الصغر ، فأحسن إليه ، ونصره على فرعون وملئه.

- ٤ -

نعم الله الثمان على موسى قبل النبوة

﴿قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)﴾

الإعراب :

﴿أَنِ اقْذِفِيهِ .. فَاقْذِفِيهِ أَنِ اقْذِفِيهِ﴾ في موضع نصب على البدل من ﴿ما﴾. وهاء ﴿اقْذِفِيهِ﴾ لموسى ، وهاء ﴿فَاقْذِفِيهِ﴾ للتابوت.

﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فُتُوناً﴾ إما منصوب على المصدر (مفعول مطلق) مثل : ضربت ضربا ، وإما منصوب بحذف حرف الجر ، أي فتناك بفتون ، ومعناه : وفتناك بأنواع من الفتن.

البلاغة :

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ استعارة تبعية ، شبه اختياره للمحبة والرسالة والتكريم والتكليم بمن يختاره الملك للمهام الجليلة ، لما يرى فيه من المقومات والخصال الحميدة ، لئلا يكون أحد أقرب منزلة منه إليه.

المفردات اللغوية :

﴿سُؤْلَكَ﴾ مسئولك ، أي مطلوبك ﴿مَنَنَّا﴾ أنعمنا ﴿إِذْ﴾ للتعليل ﴿أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ﴾ ألهمنا أو في المنام ، لما ولدتك وخافت أن يقتلك فرعون في جملة من يولد ، كما أوحى إلى مريم ، وإلى النحل ، وإلى الحواريين وليس وحيا على جهة النبوة ﴿ما يُوحى﴾ في أمرك ﴿اقْذِفِيهِ﴾ ألقيه واطرحيه أي ألقي موسى الصغير في التابوت ﴿فَاقْذِفِيهِ﴾ فألقي التابوت ﴿فِي الْيَمِّ﴾ البحر ، والمراد هنا نهر النيل ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ الشاطئ ، والأمر هنا بمعنى الخبر ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ وهو فرعون ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ أي محبة كائنة مني ، لتصبح محبوبا بين الناس ، فأحبك فرعون وكل من رآك ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي﴾ وتربى على رعايتي وحفظي لك بمرأى مني.

﴿إِذْ تَمْشِي﴾ إذ للتعليل ﴿أُخْتُكَ﴾ مريم ، لتتعرف على خبرك ، وقد أحضروا مراضع وأنت لا تقبل ثدي واحدة منهن ﴿يَكْفُلُهُ﴾ يضمه إلى نفسه ويصبح كافلا له ، فأجيبت ، فجاءت بأمه ، فقبل ثديها ﴿تَقَرَّ عَيْنُها﴾ تسر بلقائك ﴿وَلا تَحْزَنَ﴾ بفراقك وأنت بفراقها وفقد شفقتها ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً﴾ هو القبطي بمصر الذي استغاثه عليه الإسرائيلي ، فاغتممت لقتله خوفا من فرعون ﴿الْغَمِّ﴾ غم قتله ، خوفا من عقاب الله تعالى ، والغم : الكدر الحادث من خوف شيء أو فوات مقصود ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ اختبرناك بأنواع من الابتلاء ، فخلصناك مرة بعد أخرى. والفتون : الابتلاء والاختبار بالمحن ، ثم تخليصه منها. وهو إجمال لما ناله في سفره من الهجرة عن الوطن ، وترك الأصحاب ، والمشي راجلا على حذر ، وفقد الزاد ، وأجر نفسه ، وغير ذلك أثناء مسيره من مصر إلى مدين ، ومدين : على ثماني مراحل من مصر ، وهي جنوب فلسطين (١).

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ﴾ أقمت في أهل مدين عشر سنين ، بعد مجيئك إليها من مصر عند شعيب النبي وتزوجك بابنته ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ﴾ قدرته في علمي لأن أكلمك وأكلفك بالرسالة ، وهو أربعون سنة ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ اخترتك بالرسالة والمحبة. وكرر : ﴿يا مُوسى﴾ للتنبيه على غاية القصة وهي التكليم.

المناسبة :

بعد أن سأل موسى ربه أمورا ثمانية ، ذكر تعالى هنا أنه أجابه إليها ، ليتمكن

---

(١) خرج موسى عليه‌السلام من مصر إلى أرض مدين وهو شاب ، بعد قتل القبطي في مصر ، وفي هذه الرحلة أقام بمدين وتزوج بابنة شعيب عليه‌السلام ، وقضى عشر سنين فأكثر. ثم بعد بعثته عليه‌السلام عاد إلى مصر لإخراج بني إسرائيل من ذل العبودية ودعوة فرعون إلى دينه.

من تبليغ رسالته ، ثم ذكره بنعمه السالفة عليه قبل النبوة ، وعد له ثماني نعم عظام وهي : إلهام أمه صنع صندوق وإلقاؤه وهو رضيع في النيل : ﴿إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾. وإلقاء محبة الله عليه بحيث لا يراه أحد إلا أحبه : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾. وحفظ الله له ورعايته : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي﴾. وعودته إلى أمه للرضاع والحضانة : ﴿فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها﴾. ونجاته من القصاص بقتل القبطي : ﴿فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ﴾. وابتلاؤه بالفتن : ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾. ومقاساته الفقر والغربة مع أهل مدين : ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾. وتكليم الله له واختياره للنبوة والرسالة والهداية : ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى ، وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾.

التفسير والبيان :

أجاب الله تعالى في هذه الآيات دعاء موسى عليه السلام ، وذكره بنعمه السالفة عليه ، فقال :

﴿قالَ : قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى﴾ أي قال الله عزّ وجلّ لموسى : قد أعطيتك ما سألته من الأمور الثمانية ، من شرح الصدر ، وتيسير الأمر ، وحل العقدة ، ونبوة هارون ، وشد أزره به ، وإشراكه في أمر الرسالة ، والتمكين من التسبيح الكثير ، والتذكر الكثير لله عزّ وجلّ .

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى﴾ أي ولقد أحسنا وتفضلنا عليك بنعم سابقة كثيرة قبل النبوة وهي :

١ ـ ﴿إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى ، أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ، فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ، فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ، يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ أي مننا عليك حين ألهمنا أمك لإنقاذك من فرعون ، أن تضعك في تابوت (صندوق من خشب أو غيره) ثم تطرح هذا التابوت في البحر (اليم) وهو هنا نهر النيل ، وأمرنا النيل

بإلقائك على الشط قبالة منزل فرعون ، فأخذك فرعون عدو الله وسيصير عدوا لك في المستقبل. فبينا فرعون جالس على رأس بركة بالساحل إذ بالصندوق ، فأمر به ، فأخرج ، ففتح ، فإذا صبي جميل صبيح الوجه ، فأحبه حبا شديدا هو وزوجته ، كما قال تعالى :

٢ . ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ أي ألقيت عليك محبة كائنة مني في قلوب العباد ، لا يراك أحد إلا أحبك ، فأحبك فرعون وزوجه التي قالت : ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ، لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ [القصص ٢٨ / ٩].

٣ . ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي﴾ أي ولتتربى بمرأى مني وفي ظل رعايتي.

٤ . ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ، فَتَقُولُ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ؟ فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ﴾ أي خرجت أختك تمشي على الشاطئ ، تسير بسير التابوت ، تتابعه بنظراتها لترى في أي مكان يستقر ، فوجدت فرعون وامرأته يطلبان له مرضعة ، فقالت : هل أدلكم على من يربيه ويحفظه؟ فجاءت بالأم ، فقبل ثديها ، وكان لا يقبل ثدي مرضعة أخرى غيرها ، فرددناك إلى أمك بألطافنا ، ليحصل لها السرور برجوع ولدها إليها ، بعد أن طرحته في البحر ، وعظم عليها فراقه.

٥ . ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً ، فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِ﴾ أي قتلت القبطي الذي وكزته حين استغاث بك الإسرائيلي ، وكان قتلا خطأ ، فنجيناك من الغم الحاصل عندك من قتله خوفا من العقوبة ، بالفرار إلى مدين ، فنجوت من الحبس والقتل والتعذيب.

٦ . ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ أي اختبرناك مرة بعد مرة بما أوقعناك فيه من المحن المذكورة ، قبل أن يصطفيك الله لرسالته ، حتى صلحت للقيام بالرسالة لفرعون ولبني إسرائيل.

٧ ـ ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي فأقمت ومكثت سنين مع أهل مدين بأرض العرب على ثماني مراحل من مصر ، عانيت فيها من الفقر والغربة الشيء الكثير ، حتى آجرت نفسك لشعيب لترعى غنمه مدة عشر سنين كانت مهر امرأتك.

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى﴾ أي أتيت في وقت سبق في قضائي وقدري أن أكلمك وأجعلك نبيا.

٨ ـ ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أي اخترتك برسالاتي وبكلامي لإقامة حجتي ، وجعلتك رسولا بيني وبين خلقي لتبليغ الدين ، والهداية إلى التوحيد والشرع القويم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ لما سأل موسى عليه‌السلام ربه الأمور الثمانية ، أجاب سؤله ، وحقق مطلوبه ومرغوبه ، فضلا من الله ونعمة ، ورحمة ومنة.

٢ ـ وبعد إجابة دعائه ، ذكره الله بما أنعم عليه من النعم الثماني التي أنعم بها عليه ، قبل سؤاله ، وتتلخص في حفظه سبحانه له من شر الأعداء والقتل من ابتداء حياته ، وحين شبابه.

٣ ـ كان الإيحاء من الله لأم موسى بصنع الصندوق وقذفه في البحر إلهاما أو رؤيا رأتها في المنام ، فقد اتفق الأكثرون على أن أم موسى عليه‌السلام ما كانت من الأنبياء والرسل ، فلا يجوز أن يكون المراد من هذا الوحي هو الوحي الواصل إلى الأنبياء ؛ لقوله تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٧].

وأيضا جاء في القرآن الوحي لا بمعنى النبوة ، قال تعالى : ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل ١٦ / ٦٨] وقال سبحانه : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ﴾ [المائدة ٥ / ١١١].

٤ ـ من عجائب فعل الله وتدبيره وصنعه أن ينجي الله موسى الرضيع من قتل فرعون ، وأن يتربى في بيت فرعون على مائدته ، وأن يكون سببا في هلاك فرعون وإغراقه في البحر مع ملئه وقومه.

٥ ـ معنى محبة الله تعالى لموسى : إيصال النفع إلى عباده ، بتهيئته للرسالة منذ الصغر ، واستمرار ذلك حال الكبر إلى آخر عمره.

٦ ـ ومن تدبير الله الخفي أن موسى الرضيع لم يقبل ثدي أحد من المراضع ، حتى أقبلت أخته المتجاهلة أمره ، فأخذته ووضعته في حجرها وناولته ثديها ، فمصه وفرح به ، فقالوا لها : تقيمين عندنا؟ فقالت : إنه لا لبن لي ، ولكن أدلكم على من يكفله وهم له ناصحون ، قالوا : ومن هي؟ قالت : أمي ، فقالوا : لها لبن؟ قالت : لبن أخي هارون ، وكان هارون أكبر من موسى بسنة ، وقيل : بثلاث ، وقيل : بأربع. وذلك أن فرعون رحم بني إسرائيل فرفع عنهم القتل أربع سنين ، فولد هارون فيها ، كما قال ابن عباس. فجاءت الأم فقبل ثديها.

٧ ـ ليس هناك في الدنيا بعد النبي أشد عاطفة من عاطفة الأم على ولدها ، بخلق الله وتقديره بإفرازها الحنان على ولدها من خلايا خاصة بها ، لذا حزنت أم موسى وقلقت على ابنها بعد إلقائه في البحر ، ولكن الله الرحيم بعباده رد إليها ابنها ، وأقر عينها ، وأزال حزنها وغمها.

٨ ـ لم يكن قتل موسى قبطيا كافرا عمدا ، وإنما كان خطأ ، وقبل النبوة حال الصغر ، قال كعب كما روى مسلم في صحيحة : وكان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة.

٩ . آمن الله موسى من الخوف والقتل والحبس ، واختبره اختبارا عسيرا شاقا في مراحل حياته أثناء الشباب ، حتى صلح للرسالة.

١٠ . أتم موسى عليه السلام عشر سنوات في رعي غنم شعيب الرجل الصالح مهرا لامرأته ، وهو أتم الأجلين. وقال وهب : لبث موسى عند شعيب ثماني وعشرين سنة ، منها عشر مهر امرأته «صفورا» ابنة شعيب ، وثماني عشرة إقامة عنده حتى ولد له عنده.

١١ . بعد مرور موسى بمحن كثيرة حان وقت نبوته ، فجاء في وقت مقدر سابقا في علم الله وقضائه ، موافقا للنبوة والرسالة ؛ لأن الأنبياء لا يبعثون إلا أبناء أربعين سنة.

فاصطفاه الله واختاره لوحيه ورسالته ، وأرسله إلى فرعون وملئه. وتتمة القصة في الآيات التالية.

أخرج البخاري ومسلم في تفسير الاصطفاء عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «التقى آدم وموسى ، فقال موسى : أنت الذي أشقيت الناس ، وأخرجتهم من الجنة ، فقال آدم : وأنت الذي اصطفاك الله برسالته ، واصطفاك لنفسه ، وأنزل عليك التوراة؟ قال : نعم ، قال : فوجدته مكتوبا علي قبل أن يخلقني ، قال : نعم ، فحج آدم موسى».

- ٥ -

التوجيهات لموسى وهارون في دعوة فرعون

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (٤٤) قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى (٤٥) قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى (٤٦) فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)﴾

المفردات اللغوية :

﴿بِآياتِي﴾ بمعجزاتي التسع كالعصا واليد البيضاء ، فإن فرعون لما قال لموسى : فأت بآية ، ألقى العصا ونزع اليد ، وقال : ﴿فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ﴾. ﴿وَلا تَنِيا﴾ لا تفترا ولا تقصرا ﴿فِي ذِكْرِي﴾ أي لا تنسياني حيثما تقلبتما بتسبيح وغيره ، واتخذا ذكري عونا ومددا وتأييدا مني إليكما. قال الزمخشري : ويجوز أن يريد بالذكر : تبليغ الرسالة ، فإن الذكر يقع على سائر العبادات ، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها.

وأما وقت نبوة هارون : فروي أن الله تعالى أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى ، وقيل : سمع بمقبله ، وقيل : ألهم ذلك ، وخوطب مع أخيه موسى لأنه كان تابعا ، وموسى متبوعا.

﴿طَغى﴾ تجاوز الحد بادعائه الربوبية ﴿قَوْلاً لَيِّناً﴾ فيه تلطف وبعد عن الغلظة والشدة ، نحو قوله تعالى : ﴿هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى ، وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى﴾ [النازعات ٧٩ / ١٨ - ١٩]. ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ يتأمل ويتعظ فيؤمن. وقوله : ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾ متعلق باذهبا ، أو قولا ، أي باشرا الأمر على رجاء وطمع منكما أنه يثمر. والفائدة في إرسالهما مع علمه تعالى بأنه - أي فرعون - لا يؤمن : إلزام الحجة وقطع المعذرة ﴿يَخْشى﴾ أي يخاف من بطش

الله وعذابه. وقدم التذكر على الخشية ؛ لأن التذكر للمتحقق ، والخشية للمتوهم ، أي إن لم يتحقق صدقكما ، ولم يتذكر ، فلا أقل من أن يتوهمه ، فيخشى. ﴿يَفْرُطَ﴾ يعجل بالعقوبة ﴿أَوْ أَنْ يَطْغى﴾ علينا ، أي يتكبر ويزداد طغيانا ﴿إِنَّنِي مَعَكُما﴾ بالعون والحفظ والنصرة ﴿أَسْمَعُ﴾ ما يقول ﴿وَأَرى﴾ ما يفعل ، بل أسمع وأرى ما يجزي بينكما من قول أو فعل ، فأصرف شره عنكما.

﴿فَأْتِياهُ﴾ قابلاه مواجهة ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ أطلقهم من الأسر ، ودعهم يذهبون معنا إلى الشام ﴿وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾ ولا تبقهم عندك معذبين بالتكاليف الصعبة والأشغال الشاقة كالحفر والبناء وحمل الأثقال ، وقتل الولدان ، وهذا دليل على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم إلى الإيمان ﴿قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي بحجة على صدقنا بالرسالة. وهي جملة مقررة لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة. وإنما وحد الآية وكان معه آيتان ؛ لأن المراد إثبات الدعوى ببرهانها ، فالمراد : جنس الآية ، لا الإشارة إلى وحدة الحجة وتعددها.

﴿وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى﴾ أي السلامة من العذاب في الدارين ، لمن صدق بآيات الله الدالة على الحق ﴿كَذَّبَ﴾ ما جئنا به ﴿وَتَوَلَّى﴾ أعرض عنه. ويلاحظ أنه قدم البشارة بالسلام للترغيب وعملا بسياسة اللين المأمور بها ، ثم جاء التصريح بالوعيد والتوكيد فيه ؛ لأن العقاب مؤيد والتهديد مهم.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى النعم الثماني على موسى في مقابل طلباته الثمانية ، ذكر هنا الأوامر والنواهي أو التوجيهات التي ينفذها هو وأخوه هارون ، كالتعليمات التي تعطى للرسل والسفراء والقناصل لدى الذهاب في مهمة إلى دولة أخرى ، للتوصل إلى نجاح المهمة ، وأداء الرسالة على أكمل وجه ، والخلاصة : أنه لما قال تعالى : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ عقبه بذكر ما لأجله اصطنعه ، وهو الإبلاغ والأداء.

التفسير والبيان :

هذه هي الأوامر والنواهي الصادرة من الله لموسى وأخيه ، فقال تعالى : ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي﴾ أي اذهب يا موسى مع أخيك إلى فرعون وقومه بحججي وبراهيني ومعجزاتي التي جعلتها لك آية وعلامة على

النبوة ، وهي التسع آيات التي أنزلت عليك ، ولا تضعفا ، ولا تفترا عن ذكر الله ، ولا عن تبليغ الرسالة إليهم ، فإن ذكر الله عون وقوة وسلطان ، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي عن عمارة بن دسكرة : «إن عبدي كل عبدي : الذي يذكرني وهو مناجز قرنه» أي نظيره في الشجاعة والحرب. والذكر يقع على كل العبادات ، وتبليغ الرسالة من أعظمها ، وذلك بأن يبينا لهم أن الله أرسلهما مبشرين ومنذرين ، وأنه لا يرضى منهم بالكفر ، ويذكرا لهما أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب.

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ اذهبا إلى فرعون ، وأبطلا دعواه الألوهية بالحجة والبرهان ؛ لأنه جاوز الحد في الكفر والتمرد ، وتجبر على الله وعصاه ، حين قال : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات ٧٩ / ٢٤].

وبدأ بفرعون لأنه الحاكم ، فإذا آمن تبعه الرعية ، ثم بين الله تعالى أسلوب الدعوة ، فقال :

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً ، لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ أي فكلماه كلاما رقيقا لطيفا لا خشونة فيه ، وخاطباه بالقول اللين ، فذلك أدعى به وأحرى أن يفكر فيما تبلغانه ، ويخشى عقاب الله الموعود به على لسانكما. والمراد تركهما التعنيف ، كقولهما : ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ، وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ..﴾ [النازعات ٧٩ / ١٨ ـ ١٩] لأن نفس الحاكم مستعلية قاسية ، لا تقبل القسر والقسوة ، وتلين للمديح والاستعطاف. وكلمة «لعل» هنا لتوقع حصول ما بعدها ، واحتمال تحققه ، فالتوقع فيها من البشر ، أي على أن تكونا راجيين لأن يتذكر أو يخشى. والخطاب وإن كان مع موسى ، فإن هارون تابع له ، فجعل الخطاب معه خطابا مع هارون.

وفي هذه الآية عبرة وعظة وهي أن فرعون في غاية العتو والاستكبار ، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا

بالملاطفة واللين ، كما قال تعالى : ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل ١٦ / ١٢٥].

فأجاب موسى وهارون بقولهما :

﴿قالا : رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى﴾ أي قال موسى وهارون : يا ربنا ، إننا نخاف من فرعون إن دعوناه إلى التوحيد وعبادتك ، أن يعجل ويبادر بعقوبتنا ، ويشتط في أذيتنا ويعتدي علينا ، لتجبره وعتوه وقساوته.

﴿قالَ : لا تَخافا ، إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى﴾ أي قال الله لموسى وهارون : لا تخافا من فرعون ، فإنني معكما بالنصر والتأييد ، والحفظ والعون عليه ، وإنني سميع لما يجري بينكما وبينه ، ولست بغافل عنكما ، وأرى كل ما يقع ، فأصرف شره عنكما. والمراد أنه تعالى حثهما على التبليغ بجرأة وحكمة ، وتكفل لهما بالحفظ والمعونة والنصرة والوقاية من شر فرعون وغضبه. وتدل هذه الآية على أن كونه تعالى سميعا بصيرا صفتان زائدتان على العلم ؛ لأن قوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُما﴾ دل على العلم ، و ﴿أَسْمَعُ وَأَرى﴾ على السمع والبصر.

﴿فَأْتِياهُ فَقُولا : إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ أي فأتياه في مجلسه وقابلاه وقولا له : إن الله أرسلنا إليك. وقوله ﴿رَبِّكَ﴾ إشارة إلى أن الرب الحقيقي هو الله ، وأن دعواك الربوبية لنفسك لا معنى لها.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي أطلق سراح بني إسرائيل من الأسر ، وخل عنهم ، ولا تعذبهم بتذبيح أبنائهم ، واستحياء نسائهم ، وتكليفهم مالا يطيقون من السخرة في أعمال البناء والحفر ونقل الأحجار. وإنما بدأ موسى وهارون بهذا الطلب لأنه أخف وأسهل من الدعوة المباشرة إلى الإيمان بالله تعالى.

﴿قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى﴾ أي قد أتيناك بمعجزة ودلالة وعلامة من ربك على أنا مرسلون لك ، والسلامة والأمن من سخط الله ومن عذابه على من اتبع هدى ربه ، فآمن برسله ، واسترشد بآياته الداعية إلى الحق والخير وترك الظلم والضلال. وهذا ليس بتحية. والعبارة الأخيرة كانت تكتب في مكاتبات النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام.

مثل كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل عظيم الروم ، ونصه : «بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد :

فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، فأسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين».

ولما كتب مسيلمة الكذاب إلى رسول الله ﷺ كتابا صورته :

«من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك ، أما بعد : فإني قد أشركتك في الأمر ، فلك المدر ، ولي الوبر ، ولكن قريش قوم يعتدون».

فكتب إليه رسول الله ﷺ : «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين».

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي إننا وجهنا لك النصح والإرشاد ؛ لأن الله أخبرنا فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم : أن العذاب متمحض خالص لمن كذب بآيات الله وبما ندعو إليه من توحيده ، وتولى عن طاعته ، كما قال تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغى وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا ، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى﴾ [النازعات ٧٩ / ٣٧ ـ ٣٩] ، وقال سبحانه : ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى ، لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى ، الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل ٩٢ / ١٤ ـ ١٦] ، وقال

عَزَّ وَجَلَّ : ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى ، وَلكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة ٧٥ / ٣١ ـ ٣٢].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ ربط الله تعالى بين اصطناع موسى لنفسه ، أي اختياره لوحيه ورسالته ، وبين ما اختاره له ، وهو إبلاغ الرسالة ، وأداء الوحي إلى الناس.

٢ ـ أيد الله تعالى موسى وأخاه هارون عليهما‌السلام بتسع آيات أنزلت على موسى ، لتكون دليلا وآية على النبوة ، ومعجزة تثبت الصدق ، وبرهانا لفرعون وقومه على أن موسى وأخاه هارون أرسلهما الله إليهم.

٣ ـ أمر الله تعالى موسى وهارون بالذهاب إلى دعوة فرعون إلى عبادة الله والإقرار بربوبيته وألوهيته وحده لا شريك له ، وقد خاطب أولا موسى وحده تشريفا له ، ثم كرر الخطاب له مع أخيه للتأكيد.

٤ ـ قوله تعالى : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾ دليل على جواز الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأن ذلك يكون باللين من القول لمن معه القوة ، وضمنت له العصمة ، فنحن أولى بذلك ، وحينئذ يحصل الآمر أو الناهي على مرغوبه ، ويظفر بمطلوبه.

والقول اللين : هو القول الذي لا خشونة فيه.

٥ ـ الخوف من عدوان الظلمة العتاة الجبابرة كفرعون من طبيعة البشر ، لذا لم يكن مستغربا أن يقول موسى وهارون : ﴿إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى﴾ أي أن يشطط في أذيتنا أو يعتدي علينا.

٦ ـ قال العلماء : لما لحقهما ـ أي موسى وهارون ـ ما يلحق البشر من الخوف

على أنفسهما ، عرفهما الله سبحانه أن فرعون لا يصل إليهما ولا قومه. وهذه الآية رد على من قال : إنه لا يخاف ؛ والخوف من الأعداء سنة الله في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم.

لذا حكى القرآن عن موسى : ﴿فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص ٢٨ / ٢١] ، وقال : ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص ٢٨ / ١٨] ، وقال حين ألقى السحرة حبالهم وعصيهم : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى ، قُلْنا : لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى﴾ [طه ٢٠ / ٦٧ ـ ٦٨] ، وقال في الآيات المتقدمة في هذه السورة : ﴿خُذْها وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى﴾.

ومنه حفر النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الخندق حول المدينة تحصينا للمسلمين وأموالهم ، مع كونه من التوكل والثقة بربه بمحل لم يبلغه أحد. ثم كان من أصحابه ما لا يجهله أحد من تحولهم عن منازلهم ، مرة إلى الحبشة ، ومرة إلى المدينة ، تخوفا على أنفسهم من مشركي مكة ، وهربا بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعذيبهم.

قال العلماء : فالمخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله نفوس بني آدم عليه كاذب ، وقد طبعهم على الهرب مما يضرها ويؤلمها أو يتلفها.

٧ ـ العصمة للأنبياء من الله تعالى وحده ، لذا قال لموسى وهارون : ﴿إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى﴾ أي إنه معهما بالنصر والمعونة والقدرة على فرعون. والسماع والبصر : عبارة عن الإدراك الذي لا تخفى معه خافية.

والآية دليل كما تقدم على العلم الإلهي ، وعلى كونه تعالى سميعا وبصيرا.

٨ ـ كان أول مطلب موسى وهارون من فرعون إطلاق سراح بني إسرائيل من الأسر ، وإنقاذهم من السخرة والتعب في العمل ؛ لأن بني إسرائيل كانوا عند فرعون في عذاب شديد ، يذبح أبناءهم ، ويستخدم نساءهم ، ويكلفهم من العمل في الطين واللبن وبناء المدائن ما لا يطيقونه.

٩ ـ كان خطاب موسى وهارون في غاية اللطف واستعمال المنطق ، فقالا له : قد جئناك بآية دالة على نبوتنا ورسالتنا إليك ، ومن اتبع الهدى سلم من سخط الله عَزَّجَلَّ وعذابه ، وليس هذا بتحية ، بدليل أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب.

وأضافا أيضا في كلامهما : إنا قد أوحي إلينا أن العذاب أي الهلاك والدمار في الدنيا ، والخلود في جهنم في الآخرة على من كذب أنبياء الله ، وتولى ، أي أعرض عن الإيمان.

قال ابن عباس : هذه أرجى آية للموحدين ؛ لأنهم لم يكذبوا ولم يتولوا.

ـ ٦٠ ـ

الحوار بين فرعون وموسى حول الربوبية

﴿قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى (٤٩) قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى (٥٠) قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى (٥١) قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (٥٤) مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى (٥٥)﴾

الإعراب :

﴿قالَ : عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي﴾ : ﴿عِلْمُها﴾ : مبتدأ ، و ﴿فِي كِتابٍ﴾ : خبره ، و ﴿عِنْدَ رَبِّي﴾ : ظرف يتعلق بالخبر ، وتقديره : علمها كائن في كتاب عند ربي. ويحتمل أن يكون ﴿عِنْدَ

﴿رَبِّي﴾ في موضع نصب على الحال : لأنه في الأصل صفة لكتاب وهو نكرة ، فلما تقدمت صفة النكرة عليها ، وجب النصب على الحال. ويحتمل أن يكون ﴿فِي كِتابٍ﴾ بدلا من قوله : ﴿عِنْدَ رَبِّي﴾ ويكون ﴿عِنْدَ رَبِّي﴾ خبر المبتدأ.

و ﴿لا يَضِلُّ رَبِّي﴾ أي لا يضل ربي عنه ، فحذف الجار والمجرور ، كما حذفا في آية ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى﴾ [النازعات ٧٩ / ٤١] أي المأوى له.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أو صفة لربي ، أو منصوب على المدح.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا﴾ حال من ضمير أخرجنا ، أي مبيحين لكم الأكل ورعي الأغنام.

البلاغة :

﴿نُعِيدُكُمْ﴾ و ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾ بينهما طباق.

﴿فَأَخْرَجْنا﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم.

﴿مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ﴾ مقابلة ، قابل بين ﴿مِنْها﴾ و ﴿فِيها﴾ وبين الخلق والإعادة.

المفردات اللغوية :

﴿قالَ﴾ : فرعون. ﴿فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى﴾؟ إنما خاطب الاثنين ، وخص موسى بالنداء ؛ لأنه الأصل ، وهارون وزيره وتابعه. ﴿أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ أي منح كل نوع من المخلوقات صورته وشكله الذي يطابق كماله ، ويناسب خواصه ومنافعه ، ومميزاته التي يتميز بها من غيره. ﴿ثُمَّ هَدى﴾ ثم عرفه كيف يرتفق بما أعطي له.

﴿قالَ﴾ فرعون. ﴿فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى﴾ فما حالهم بعد موتهم من السعادة والشقاوة. والبال في الأصل : الفكر ، يقال : خطر ببالي كذا ، ثم أطلق هنا على الحال المعني بها.

و ﴿الْقُرُونِ﴾ الأمم ، مثل قوم نوح وهود ولوط وصالح في عبادتهم الأوثان.

﴿قالَ﴾ موسى. ﴿عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ﴾ أي علم حالهم محفوظ عند ربي في اللوح المحفوظ ، يجازيهم عليها يوم القيامة. والمراد أن حالهم غيب لا يعلمه إلا الله ، وقصد بذلك كما علم الله الذي لا يضيع منه شيء. ﴿لا يَضِلُ﴾ لا يخطئ مكان الشيء ، والضلال : أن تخطئ الشيء في مكانه ، فلم تهتد إليه. ﴿وَلا يَنْسى﴾ ربي شيئا ، والنسيان : عدم تذكر الشيء بحيث لا يخطر ببالك. وهما محالان على الله العالم بالذات.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ أي هو الذي جعل للناس في جملة الخلق. ﴿مَهْداً﴾ وقرئ : مهادا ، أي فراشا ، أي جعل الأرض كالمهد تتمهدونها. والمهد : مصدر سمي به ، والمهاد : اسم ما يمهد كالفراش ، أو جمع مهد.

﴿وَسَلَكَ﴾ سهل. ﴿سُبُلاً﴾ طرقا ، أي جعل لكم فيها طرقا بين الجبال والأودية والبراري ، تسلكونها من أرض إلى أرض لتبلغوا منافعها. ﴿السَّماءِ﴾ مطرا. ﴿فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً﴾ أصنافا وفيه التفات من لفظ الغيبة إلى صيغة المتكلم ، على الحكاية لكلام الله تعالى ، للتنبيه على ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة ، وللإشعار بأنه تعالى مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته. ﴿مِنْ نَباتٍ شَتَّى﴾ شتى صفة. ﴿أَزْواجاً﴾ أي مختلفة الألوان والطعوم ، و ﴿شَتَّى﴾ جمع شتيت ، كمريض ومرضى ، من شت الأمر : تفرق.

﴿كُلُوا﴾ منها. ﴿وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ﴾ فيها ، والأنعام جمع نعم : وهي الإبل والبقر والغنم. والأمر للإباحة وتذكير النعمة. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ المذكور هنا. ﴿لَآياتٍ﴾ لدلالات. ﴿لِأُولِي النُّهى﴾ أصحاب العقول ، جمع نهية ، كغرفة وغرف ، سمي به العقل ؛ لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح.

﴿مِنْها خَلَقْناكُمْ﴾ من الأرض ، فإن التراب أصل خلقة أول آبائكم وأول مواد أبدانكم. ﴿وَفِيها نُعِيدُكُمْ﴾ بالموت ، وتفكيك الأجزاء. ﴿وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ﴾ عند البعث. ﴿تارَةً أُخْرى﴾ مرة أخرى ، كما أخرجناكم عند ابتداء خلقكم.

المناسبة :

بعد مبادرة موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون امتثالا لأمر الله ، ووصولهما إلى قصر فرعون ، والإذن لهما بالدخول بعد انتظار طويل ، وصف الله تعالى الحوار الذي دار بينه وبينهما ، فسألهما سؤال إنكار للرب تكبرا وتجبرا ، بعد أن أثبت نفسه ربا في قوله : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾. فاستدل موسى على إثبات الصانع بأحوال المخلوقات.

التفسير والبيان :

﴿قالَ : فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى﴾ أي إذا كنتما رسولي ربكما إلي ، فأخبراني : من ربكما الذي أرسلكما؟ ويلاحظ أنه أضاف الرب إليهما ، ولم يضفه إلى نفسه

لعدم تصديقه لهما ، ولجحده للربوبية الحقة ، ثم إنه خص موسى بالنداء بعد خطابهما مراعاة لرؤوس الآي ، ولما ظهر له أنه الأصل المتبوع ، وهارون وزيره وأخوه وأراد أن يقول : من هذا الرب الذي بعثك يا موسى وأرسلك؟ فإني لا أعرفه ، وما علمت لكم من إله غيري.

فأجابه موسى :

﴿قالَ : رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ أي قال موسى : ربنا هو الذي أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يليق به ، ويطابق المنفعة المنوطة به ، كاليد للبطش ، والرجل للمشي ، واللسان للنطق ، والعين للنظر ، والأذن للسمع.

ثم أرشدهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم ، فانتفعوا بكل شيء فيما خلق له ، إما اختيارا كالإنسان والحيوان ، وإما طبعا كالنبات والجماد ، كقوله تعالى : ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى﴾ [الأعلى ٨٧ / ٣] أي قدر قدرا ، وهدى الخلائق إليه ، أي كتب الأعمال والآجال والأرزاق ، ثم مشى الخلائق على ذلك ، لا يحيدون عنه ، ولا يقدر أحد على الخروج منه. والآية لإثبات الصانع بأحوال المخلوقات.

﴿قالَ : فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى﴾ بعد أن أخبر موسى فرعون بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق ، وقدر فهدى ، شرع يحتج بالقرون الأولى ، قائلا : إذا كان الأمر كذلك ، فما حال وما شأن الأمم الماضية ، لم يعبدوا ربك ، بل عبدوا غيره من الأوثان وغيرها من المخلوقات؟ فأجاب موسى :

﴿قالَ : عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ ، لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى﴾ قال موسى : إن كل أعمالهم محفوظة عند الله ، مثبتة عنده في اللوح المحفوظ ، يجازي بها ، لا يخطئ في علم شيء من الأشياء ، ولا ينسى ما علمه منها ، فعلم الله محيط بكل

شيء. أما علم المخلوق فيعتريه الأمران : عدم الإحاطة بالشيء ، ونسيانه بعد علمه ، والله منزه عن ذلك.

وقصد فرعون بالسؤال عن الأمم الماضية أن يصرف موسى عن البراهين القوية ، فيتبين للناس صدقه ، ويشغله بالتواريخ والحكايات ، لكن موسى تنبه لهذا ، فأجاب عن إثبات الإله بأوجز عبارة وأحسن معنى ، وفوض أمر الماضي إلى علام الغيوب.

وبعد أن ذكر موسى الدليل الأول العام الذي يتناول جميع المخلوقات من الإنسان وسائر الحيوانات وأنواع النبات والجمادات ، ذكر بعدئذ أدلة خاصة وهي ثلاثة :

أولها ـ قوله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً﴾ أي ربي الذي جعل الأرض ممهدة كالفراش ، تعيشون فيها بيسر وسهولة ، وقرارا تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها وتسافرون على ظهرها.

ثانيها ـ ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً﴾ أي جعل لكم فيها طرقا تسلكونها وسهلها لكم ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً ، لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٣١] ، وقال سبحانه : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً ، وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ١٠] ، وقال عزّوجلّ : ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً ، لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً﴾ [نوح ٧١ / ١٩ ـ ٢٠].

ثالثها ـ ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى﴾ أي وأنزل من السحاب مطرا ، أخرجنا به أنواعا من أصناف النبات المختلفة ، من زروع وثمار حامضة وحلوة ومرة ، وذات ألوان وروائح وأشكال مختلفة ، بعضها صالح للإنسان ، وبعضها للحيوان ، لذا قال :

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى﴾ أي خلقنا أصناف النبات ، بعضه للإنسان ، وبعضه لطعام الحيوان ، فكلوا وتفكهوا مما يناسبكم ، وارعوا أنعامكم (الإبل والبقر والغنم) في الأخضر واليابس ، إن فيما ذكرت لكم لدلالات وحججا وبراهين لذوي العقول السليمة المستقيمة ، على أن الخالق لا إله إلا هو ، ولا رب سواه.

وبعد أن ذكر الله تعالى منافع الأرض والسماء ، بين أنها غير مطلوبة لذاتها ، بل هي وسائل إلى منافع الآخرة ، فقال :

﴿مِنْها خَلَقْناكُمْ ، وَفِيها نُعِيدُكُمْ ، وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى﴾ أي من الأرض مبدؤكم ، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب ، والنطفة المتولدة من الغذاء مرجعها إلى الأرض ، لأن الغذاء الحيواني من النبات ، والنبات من امتزاج الماء والتراب.

وإلى الأرض مصيركم بعد موتكم ، فتدفنون فيها ، وتتفرق أجزاؤكم حتى تصير من جنس الأرض ترابا.

وسوف نخرجكم من قبوركم في الأرض مرة أخرى بالبعث والنشور ، والمعنى : من الأرض أخرجناكم ، ونخرجكم بعد الموت من الأرض تارة أخرى. والغرض من الآية هنا تنزيه الرب نفسه وتذكير فرعون بأصله وأنه من تراب عائد إليه ، فلا يغتر بدنياه وملكه ، وليعلم أن أمامه يوما شديد الأهوال ، يسأل فيه عن كل شيء ، ويحاسب على أعماله.

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿فِيها تَحْيَوْنَ ، وَفِيها تَمُوتُونَ ، وَمِنْها تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٢٥] ، وقوله سبحانه : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ، فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ، وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء ١٧ / ٥٢].

وجاء في الحديث المروي عند أصحاب السنن : أن رسول الله ﷺ حضر جنازة ، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب ، فألقاها في القبر ، وقال : منها خلقناكم ، ثم أخذ أخرى وقال : وفيها نعيدكم؟ ثم أخرى وقال : ومنها نخرجكم تارة أخرى.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ لم يؤمن فرعون بدعوة موسى وهارون ، وظل على كفره ، وتساءل تكبرا وتجبرا وزورا وبهتانا ، مع كونه عارفا بالله تعالى ، وقال : ﴿فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى﴾؟

٢ ـ تدل الآية المذكورة على أنه يجوز حكاية كلام المبطل ؛ لأنه تعالى حكى كلام فرعون في إنكاره الإله ، وحكى شبهات منكري النبوة ، وشبهات منكري الحشر ، لكن يجب قرن الجواب بالسؤال ، لئلا يبقى الشك.

٣ ـ وتدل الآية أيضا على أن المحق يجب عليه استماع كلام المبطل ، والجواب عنه من غير إيذاء ولا إيحاش ، كما فعل موسى بفرعون هنا ، وكما أمر الله تعالى رسوله في قوله : ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل ١٦ / ١٢٥] ، وقال سبحانه : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ ، فَأَجِرْهُ ، حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ﴾ [التوبة ٩ / ٦].

٤ ـ كان جواب موسى لفرعون : إن الله تعالى يعرف بصفاته ، فهو خالق العالم ، وهو الذي خص كل مخلوق بهيئة وصورة معينة. قال مجاهد : أعطى كل شيء صورة ؛ لم يجعل خلق الإنسان في خلق البهائم ، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان ، ولكن خلق كل شيء فقدره تقديرا. وقال الشاعر :

وله في كل شيء خلقة ... وكذاك الله ما شاء فعل

أراد بالخلقة : الصورة.

٥ ـ الله هو المختص بعلم الغيب في الماضي والحاضر والمستقبل ، فلما سأل فرعون عن حال وشأن الأمم الغابرة ، أجابه موسى وأعلمه أن علمها عند الله تعالى ، أي إن هذا من علم الغيب الذي سألت عنه ، وهو مما استأثر الله تعالى به لا يعلمه إلا هو ، وما أنا إلا عبد مثلك ؛ لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب ، وعلم أحوال القرون مكتوبة عند الله تعالى في اللوح المحفوظ.

٦ ـ هذه الآية : ﴿قالَ : عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ ..﴾ ونظائرها تدل على تدوين العلوم وكتبها لئلا تنسى ، فإن الحفظ قد تعتريه الآفات من الغلط والنسيان. وقد لا يحفظ الإنسان ما يسمع ، فيقيده لئلا يذهب عنه. جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه ، فهو موضوع عنده : إن رحمتي تغلب غضبي». وفي صحيح مسلم أيضا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر بكتب الخطبة التي خطب بها في الحج لأبي شاه ـ رجل من اليمن ـ لما سأله كتبها. وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «قيدوا العلم بالكتابة». وأسند الخطيب عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل من الأنصار لا يحفظ الحديث : «استعن بيمينك».

وأما النهي عن كتابة الأحاديث ، فكان ذلك متقدما ، فهو منسوخ بأمره صلى الله عليه وآله وسلم بالكتابة ، وإباحتها لأبي شاه وغيره.

قال أبو بكر الخطيب : ينبغي أن يكتب الحديث بالسواد ، ثم الحبر خاصة ، دون المداد [١] ؛ لأن السواد أصبغ الألوان ، والحبر أبقاها على مر الدهور ، وهو آلة ذوي العلم ، وعدة أهل المعرفة.

---

(١) الحبر والمداد في اللغة سواء. ولعل المراد به المداد الذي لا لون له أو لونه باهت.

٧ ـ دل قوله تعالى : ﴿لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى﴾ على أن الله عالم بكل المعلومات ، وهو اللفظ الأول ، وعلى بقاء ذلك العلم أبد الآباد ، وهو إشارة إلى نفي التغير ، وهو اللفظ الثاني.

٨ ـ من نعم الله تعالى أن جعل الأرض رغم كرويتها الكلية ممهدة كالفراش ، وقرارا للاستقرار عليها ، لتصلح للعيش عليها.

٩ ـ ظاهر آية ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ..﴾ يدل على أنه سبحانه إنما يخرج النبات من الأرض بواسطة إنزال الماء ، فيكون للماء فيه أثر ، وهذا التأثير على تقدير أن الله تعالى هو الذي أعطى الماء هذه الخواص والطبائع ، فيكون الماء المنزل سبب خروج النبات في الظاهر.

١٠ ـ إن إخراج أصناف من النبات المختلفة الأنواع والألوان من الأرض دليل واضح على قدرة الله تعالى ووجود الصانع. وإن جعل بعض النبات صالحا للإنسان وآخر للحيوان : ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ﴾ من أجل النعم على الإنسان ، ومما يقتضي التأمل والتفكير عند ذوي العقول الصحيحة.

١١ ـ ما أعظم خيرات الأرض ، وما أحوج الناس إليها! فالله خلقنا منها ، ويعيدنا إليها بعد الموت ، ويخرجنا منها للبعث والحساب. أما كيفية الإخراج من الأرض فهو أن الله تعالى خلق أصلنا وهو آدم عليه‌السلام من التراب ، فكنا تبعا له ، وأما استمرار الخلق فهو أن تولد الإنسان من النطفة ودم الطمث ، وهما يتولدان من الأغذية ، والغذاء إما حيواني أو نباتي ، والحيواني ينتهي إلى النبات ، والنبات إنما يحدث من امتزاج الماء والتراب.

ـ ٧ ـ

اتهام موسى بالسحر

﴿وَلَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَأَبى (٥٦) قالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً (٥٨) قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)﴾

الإعراب :

﴿مَكاناً سُوىً مَكاناً﴾ بدل منصوب من ﴿مَوْعِداً﴾ ولا يجوز نصبه بقوله ﴿مَوْعِداً﴾ ؛ لأن ﴿مَوْعِداً﴾ قد وصف بقوله : ﴿لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ﴾ والمصدر إذا وصف لا يعمل ويجوز أن يجعل ﴿مَكاناً﴾ منصوبا بنزع الخافض : في.

سوى : يقرأ بكسر السين وبضمها ، فمن قرأ بالكسر ، فلأن «فعل» لم يأت في الوصف إلا نادرا نحو : قوم عدى ، ولحم زيم. والضم أكثر ؛ لأن «فعل» في الوصف كثير ، نحو : لكع وحطم.

﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ .. يَوْمُ﴾ : خبر ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾ على تقدير حذف مضاف ، أي موعدكم وقت يوم الزينة ، ولا يجوز أن يكون ﴿يَوْمُ﴾ ظرفا ؛ لأن العرب لم تستعمله مع الظرف استعمال سائر المصادر ، ولهذا قال تعالى : ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود ١١ / ٨١] بالرفع إذ يراد به هنا المصدر ، ولو قلت : إن خروجكم الصبح ، لم يجز فيه إلا النصب ، أي وقت الصبح.

وموعد مصدر بمعنى الوعد في الأظهر.

والموعد : يكون مصدرا وزمانا ومكانا بلفظ واحد ، ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ﴾ معطوف بالرفع على ﴿يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ أي موعدكم وقت يوم الزينة ، وموعدكم وقت حشر الناس ، فحذف المضاف أيضا.

البلاغة :

﴿سُوىً ضُحًى ...﴾ سجع حسن.

المفردات اللغوية :

﴿أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها﴾ بصرنا فرعون آيات معهودة هي الآيات التسع المختصة بموسى. ﴿فَكَذَّبَ﴾ بها وزعم أنها سحر. ﴿وَأَبى﴾ امتنع أن يوحد الله تعالى أو أبي الإيمان والطاعة ، لعتوه. ﴿لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا﴾ مصر ، ليصبح لك الملك فيها. بسحر مثله يعارضه. ﴿مَوْعِداً﴾ ميعادا معينا لذلك. ﴿لا نُخْلِفُهُ﴾ لا نخلف ذلك الوقت في الاجتماع فيه ، إذا جعل (موعد) هنا هو الزمان ، وإذا جعل مصدرا أي لا نخلف ذلك الموعد. ﴿سُوىً﴾ أي وسطا ، تستوي إليه مسافة الجائي من الطرفين.

﴿قالَ﴾ موسى. ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ يوم عيد كان لهم ، يتزينون فيه ويجتمعون ، ويوم : بضم الميم ، وقرأ الحسن بالنصب ، فمن رفع فعلى أنه خبر المبتدأ ، والمعنى : وقت موعدكم يوم الزينة ، ومن نصب فعلى الظرف ، معناه : موعدكم يقع يوم الزينة. والسؤال وقع عن مكان الموعد ، وطابقه من حيث المعنى ذكر الزمان ، وإن لم يطابق لفظا ؛ لأنهم لا بد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان معين مشهود باجتماع الناس في ذلك اليوم ، فبذكر الزمان علم المكان.

﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ يجمعون. ﴿ضُحًى﴾ وقت ارتفاع شمس النهار.

المناسبة :

بعد سؤال فرعون عن رب موسى ، ذكر الله تعالى أنه بصره بالآيات الدالة على توحيد الله ، مثل ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ وقوله : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً﴾ والدالة على نبوة موسى مثل العصا واليد البيضاء ، فكذب بكل هذا ، واتهم موسى بالسحر ، وطلب المبارزة مع السحرة ، وتحديد مكان اللقاء وموعد الاجتماع.

التفسير والبيان :

﴿وَلَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَأَبى﴾ أي وتالله لقد بصرنا فرعون وعرفناه آياتنا الدالة على قدرتنا وتوحيدنا وعلى نبوة موسى ، كالآيات التسع [1].

---

(١) وهي العصا ، واليد ، وفلق البحر ، والحجر ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، ونتق الجبل.

وغيرها من الحجج والبراهين ، فعاين ذلك وأبصره ، ولكنه كذب بها ، وأبى الاستجابة للإيمان والحق ، كفرا وعنادا وبغيا ، كما قال تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾ [النمل ٢٧ / ١٤] وقال سبحانه : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ ، وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ [الإسراء ١٧ / ١٠٢].

ثم ذكر الله تعالى شبهة فرعون وصفة تكذيبه ، فقال :

﴿قالَ : أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى﴾ أي قال فرعون لموسى مستنكرا معجزة العصا واليد : هل جئت يا موسى من أرض مدين لتخرجنا من أرضنا مصر بما أظهرته من السحر ، وهو قلب العصا حية؟ توهم الناس بأنك نبي يجب عليهم اتباعك ، حتى تتوصل بذلك إلى أن تغلب على أرضنا وتخرجنا منها. وإنما ذكر فرعون الإخراج من الأرض لتنفير قومه عن إجابة موسى ، وحملهم على السخط على موسى والغضب منه ، والعمل على طرده وإخراجه من مصر.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ أي لنعارضنك بمثل ما جئت به من السحر ، فإن عندنا سحرا مثل سحرك ، فلا يغرنك ما أنت فيه.

﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً﴾ أي حدد لنا يوما معلوما ومكانا معلوما ، نجتمع فيه نحن وأنت ، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر ، لا نخلف ذلك الوعد من قبل كل منا. وقد فوض فرعون تعيين الموعد إلى موسى إظهارا لكمال اقتداره.

وليكن المكان مكانا مستويا ظاهرا لا ارتفاع فيه ولا انخفاض ، ليظهر فيه الحق ، أو مكانا وسطا بين الفريقين ، حتى لا يكون عذر في التخلف.

﴿قالَ : مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ، وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ أي قال موسى

عليه السلام : موعد الاجتماع يوم العيد (عيد النيروز) الذي يتزين فيه الناس ، وفي وقت الضحى ، ليكون الاجتماع عاما في يوم يفرغ فيه الناس من أعمالهم ، ويجتمعون جميعا ، ويتحدثون بنتيجة المبارزة ، فتظهر الدعوة ، وتعلو كلمة الحق ، ويزهق الباطل ، وليكون الضوء غالبا ، وفي نشاط أول النهار ، فلا يشكوا في المعجزة ، ويشاهدوا قدرة الله على ما يشاء ، ومعجزات الأنبياء ، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية.

واختيار هذا الوعد دليل على الثقة بالنصر ، وسبيل لإيضاح الحجة.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ لم يبق عذر لفرعون في كفره ، بعد إرسال موسى وهارون رسولين إليه ، وتأييدهما بالمعجزات الدالة على نبوة موسى ، وإبدائهما البراهين والدلائل والحجج على وحدانية الله وقدرته ، وهذا يدل على أنه كفر عنادا ؛ لأنه رأى الآيات عيانا لا خبرا ، واقتنع بها في أعماق نفسه ، كما قال سبحانه : ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾ [النمل ٢٧ / ١٤].

٢ ـ حاول فرعون تأليب قومه وتحريضهم على معاداة موسى وطرده ، باتهامه بأنه بحسب عقلية الحاكم يريد إخراج الناس من مصر ، والاستيلاء على السلطة.

٣ ـ وحاول أيضا إبطال المعجزات النبوية بالسحر ، ظنا منه أن ما جاء به موسى من الآيات سحر يوهم الناس به لاتباعه والإيمان به ، فإذا عورض السحر بمثله ، تبين للناس أن ما أتى به موسى ليس من عند الله.

٤ ـ طلب فرعون من موسى تعيين يوم معلوم ومكان معروف لا يخلف فيه أحد الطرفين الوعد ، إيهاما للناس بمدى الثقة به ، وبكمال اقتداره ، وإنهاء دعاوى موسى في يوم مشهود للجميع.

وكان اقتراحه أن يكون المكان مكانا سوى أي مكانا مستويا متوسطا بين الطرفين ، حتى لا يكون عذر في التخلف.

٥ ـ اختار موسى يوم العيد (يوم الزينة) لتعلو كلمة الله ، ويظهر دينه ، ويكبت الكفر ، ويزهق الباطل ، أمام الناس قاطبة في المجمع العام ، ليشيع الخبر ، ويتناقل جميع أهل المدن والقرى والحضر والأعراب قصة الأمر العجيب ، ونبأ المعجزة الكبرى. ثم عين موسى عليه‌السلام من اليوم وقتا معينا بقوله : ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ أي في ضحوة الناس بعد طلوع الشمس ، حيث تكون الرؤية واضحة ، والنفوس مستعدة نشيطة ، ولأنه أول النهار ، فلو امتد الأمر فيما بينهم كان في النهار متسع. وكان ذلك بالصدفة مناسبا للسحرة ، لتسخين الحبال والأدوات المعبأة بالزئبق.

ـ ٨ ـ

جمع فرعون السحرة وتحذير موسى لهم

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى (٦٠) قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى (٦١) فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوى (٦٢) قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى (٦٤)﴾

الإعراب :

﴿إِنْ هذانِ لَساحِرانِ إِنْ﴾ إما مخففة من الثقيلة لم تعمل ، وإما بمعنى «ما» واللام بمعنى «إلا» أي ما هذان إلا ساحران. وهذان الوجهان على مذهب الكوفيين. ومن قرأ بالتشديد

﴿إِنْ﴾ أتى به على لغة بني الحارث بن كعب ، فإنهم يقولون : مررت برجلان ، وقبض منه درهمان ، وهي لغة من يأتي في المثنى بالألف في أحواله الثلاث.

وقيل : إن بمعنى «نعم» أي نعم هذان لساحران ، لكن فيه ضعف ، لدخول اللام في الخبر ، وهو قليل في كلامهم. وقرئ «إن هذين لساحران».

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ قرئ : أجمعوا بقطع الهمزة ووصلها ، ففي قراءة القطع نصب ﴿كَيْدَكُمْ﴾ ب ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ على تقدير حذف حرف الجر ، أي فأجمعوا على كيدكم. فحذف حرف الجر ، فاتصل الفعل به فنصبه ، يقال : أجمع على كذا : إذا عزم عليه ، فحذف الجار من الآية ، كما في آية : ﴿وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ﴾ [البقرة ٢ / ٢٣٥] أي على عقدة النكاح.

وعلى قراءة فاجمعوا بوصلها ، لم يفتقر إلى تقدير حذف حرف الجر ؛ لأنه يتعدى بنفسه.

﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ مصدر في موضع الحال ، أي ائتوا مصطفين ، أو مفعول به ، أي ائتوا إلى صف ، والأول أوجه.

المفردات اللغوية :

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ﴾ أدبر وانصرف عن المجلس. ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي جمع ذوي كيده من السحرة ، والكيد : ما يكاد به من السحرة وأدواتهم. ﴿ثُمَّ أَتى﴾ أي أتى بالموعد بهم. ﴿قالَ لَهُمْ مُوسى﴾ وهم اثنان وسبعون مع كل واحد حبل وعصا. ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أي هلاك لكم. ﴿لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ بأن تدعوا آياته سحرا ، وتشركوا أحدا مع الله. والافتراء : الاختلاق والكذب. ﴿فَيُسْحِتَكُمْ﴾ يهلككم. ﴿بِعَذابٍ﴾ شديد من عنده. ﴿وَقَدْ خابَ﴾ خسر. ﴿مَنِ افْتَرى﴾ كذب على الله ، كما خاب فرعون ، فإنه افترى واحتال ليبقى الملك معه ، فلم ينفعه.

﴿فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ فتفاوض السحرة وتشاوروا في أمر موسى ، حين سمعوا كلامه. ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوى﴾ بالغوا في إخفاء الكلام بينهم. ﴿قالُوا﴾ لأنفسهم. ﴿وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى﴾ المثلى : مؤنث أمثل بمعنى أشرف ، أي يذهبا بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب ، بإظهار مذهبه وإعلاء دينه ، لقوله تعالى حكاية لقول فرعون : ﴿إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [غافر ٤٠ / ٢٦].

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ بهمزة القطع من أجمع أي أحكموا كيدكم الذي يكاد به ، وبهمزة الوصل من جمع ، أي لم ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أي مصطفين ؛ لأنه أهيب في صدور الرائين. ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى﴾ فاز اليوم من غلب.

المناسبة :

بعد اتفاق موسى وفرعون على موعد المبارزة وهو يوم عيد لهم ، ذكر الله تعالى ما قام به فرعون من تدبير أمره بجمع السحرة وآلاتهم ، ثم ذكر ما حذرهم به موسى من عذاب شديد إن أقدموا على إبطال آيات الله ، فأوقع الخلاف بينهم ، وعقدوا المشاورات في خطتهم ، فاتفقوا على وحدة الصف أمام موسى وهارون اللذين يريدان الغلبة والتفوق على دينهم الذي هو في زعمهم أفضل الأديان.

التفسير والبيان :

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ ، فَجَمَعَ كَيْدَهُ ، ثُمَّ أَتى﴾ أي انصرف فرعون وشرع في جمع السحرة من مدائن مملكته ، فجمع ما يكيد به من سحره وحيله وآلاته وأنصاره ، وقد كان السحر شائعا عندهم ، ثم أقبل في الموعد المعين ، وجلس في مكان خاص به مع كبار أعوانه ، كجناح العروض العسكرية المخصص اليوم لرئيس الدولة ، وجاء موسى مع أخيه هارون ، وجاءت السحرة ووقفوا صفوفا ، وبدأ فرعون يحرضهم ويستحثهم ويعدهم ، فتجرءوا أن يطلبوا منه الأجر ، كما قال تعالى: ﴿قالُوا لِفِرْعَوْنَ : أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ ، قالَ : نَعَمْ ، وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٤٢] وعدهم فرعون بالجزاء المادي والأدبي ليتفانوا في إجادة عملهم ، ويتغلبوا على موسى عليه السلام .

وشرع موسى في الإعلان عن رسالته ، فقال :

﴿قالَ لَهُمْ مُوسى : وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً ، فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى﴾ أي قال موسى لفرعون والسحرة : الهلاك والعذاب لكم إن اختلقتم على الله كذبا وزورا ، بأن تزعموا أن الذي جئت به ليس بحق ، وأنه سحر ، فيستأصلكم الله بعذاب شديد من عنده ، وقد خسر وهلك من افترى على الله أي كذب كان.

فأعرضوا عن قوله :

﴿فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوى﴾ أي لما سمع السحرة كلام موسى تناظروا وتشاوروا وتفاوضوا فيما بينهم في ذلك ، وتناجوا فيما بينهم سرا عن موسى وأخيه ، وقرروا ما يأتي:

﴿قالُوا : إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما ، وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى﴾ أي قالت السحرة : إن موسى وهرون لساحران يريدان إخراجكم أيها المصريون من أرضكم مصر بصناعة السحر ، كما يريدان التغلب للاستيلاء على جميع المناصب ، ولتكون لهما الرياسة في كل شيء ، ومآل ذلك أن تنقضي سنتكم في الحياة ، ويعصف بمنهجكم في العيش الحر العزيز الكريم ، وتسلب خيراتكم ، ويزول مذهبكم الأمثل الحسن.

قالوا ذلك متأثرين بما قاله فرعون ، ومرددين ما يشيعه ، مستخدمين أساليب ثلاثة للتنفير منهما ، وهي تكذيب نبوتهما ووصفهما بالسحرة ، والكشف عن نواياهما البعيدة بطرد السكان الأصليين من أرضهم مصر ، والاستيلاء على جميع المناصب والرياسات.

فيجب علينا الوقوف صفا واحدا أمام هذا الخطر ، فقالوا :

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ، ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ، وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى﴾ أي فاعزموا على تقديم جميع خبراتكم ومهاراتكم ، ولا تتركوا أقصى ما تستطيعون عليه من الكيد والحيلة ، وقفوا صفا واحدا ، وألقوا ما لديكم دفعة واحدة ، لتبهروا الأبصار ، وتعظم هيبتكم ، وتغلبوا هذين الرجلين ، فإنه قد فاز اليوم بالمطلوب من غلب منا ومنهما.

وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض ، بقصد التحريض وشد العزائم ، لبذل أقصى الجهود للفوز بالمطلوب.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ بدأت استعدادات فرعون في جمع السحرة ، وإعداد الحيل كما هي عادة التهيؤ للمبارزة ، قال ابن عباس : كانوا اثنين وسبعين ساحرا ، مع كل ساحر منهم حبال وعصي.

٢ ـ لما أتى فرعون وسحرته في الموعد المعين قال موسى لفرعون والسحرة : الهلاك والعذاب لمن اختلق الكذب على الله ، وأشرك به ، ووصف المعجزات بأنها سحر ، فيستأصلكم الله بعذاب شديد من عنده ، وقد خسر وهلك ، وخاب من الرحمة والثواب من ادعى على الله ما لم يأذن به. وهذا شعار الأنبياء ، وهو الصدق في الدعوة ، وانتهاز الفرص المناسبة لإعلان دعوتهم.

٣ ـ تشاور السحرة سرا فيما بينهم ، وقالوا : إن كان ما جاء به سحرا ، فسنغلبه ، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر. وهذا حق وصدق لا شيء فيه.

٤ ـ ثم أعلنوا قرارهم بأن موسى وأخاه هارون ساحران عظيمان ، يريدان إخراج الناس من مصر بسحرهما ، وإفساد دينهم ، وإزالة مذهبهم الحسن ، كما قال فرعون عن موسى : ﴿إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ، أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ﴾ [غافر ٤٠ / ٢٦]. وهذا كله من دعاية فرعون وتحريضه.

٥ ـ ثم حرضوا بعضهم قائلين : اعزموا وجدوا في تجميع أنواع الكيد والحيلة ، وأقصى فنون السحر ، وأحكموا أمركم ، وقفوا صفا واحدا ، ليكون أشد لهيبتكم ، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة ، لتبهروا الأبصار ، وتغلبوا موسى وأخاه ، وقد فاز اليوم من غلب. وهذا شأن كل من الفريقين المتبارزين ، يحرص كل منهما على الفوز والانتصار ، ويتأثران بالتأييد الشعبي وبحماس المتفرجين واللاعبين أنفسهم ، كما هو معروف.

. ٩ .

المبارزة بين موسى والسحرة وإعلان إيمانهم بالله تعالى

﴿قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى (٦٥) قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى (٦٧) قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (٦٨) وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى (٧٠) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى (٧١) قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)﴾

الإعراب :

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى مُوسى﴾ فاعل أوجس ، وهاء ﴿نَفْسِهِ﴾ تعود إلى موسى ؛ لأنه في تقدير التقديم ، و ﴿نَفْسِهِ﴾ في تقدير التأخير. و ﴿خِيفَةً﴾ مفعول أوجس. وأصل خيفة «خوفة» لأنها من الخوف ، فانقلبت الواو ياء لسكونها ، وانكسار ما قبلها.

﴿تَلْقَفْ﴾ التاء إما لتأنيث ﴿ما﴾ وهي العصا ، حملا على المعنى ، كأنه قال : ألق العصا تلقف ما صنعوا ، وإما أن تكون التاء للمخاطب ، أي تلقف أنت. وهو مجزوم بجواب الأمر ، بتقدير حذف حرف الشرط. ومن قرأ بالرفع ، كان حالا من ﴿ما﴾ أو من ضمير ﴿فِي يَمِينِكَ﴾. وما في قوله ﴿إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ﴾ إما اسم موصول بمعنى الذي اسم إن ، والعائد محذوف ، أي إن الذي صنعوه ، و ﴿كَيْدُ﴾ خبر إن ، وإما أن تكون ﴿ما﴾ كافة ، و ﴿كَيْدُ﴾ عند من قرأ بالنصب منصوب ب ﴿صَنَعُوا﴾. ومن قرأ كيد سحر أي كيد ذي سحر ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

«من خلاف» حال.

﴿وَالَّذِي فَطَرَنا﴾ : إما مجرور بالعطف على ﴿ما جاءَنا﴾ أي «على الذي جاءنا وعلى الذي فطرنا» وإما مجرور بالقسم ، وجوابه محذوف ، لدلالة ما تقدم عليه.

وما في ﴿إِنَّما تَقْضِي﴾ إما بمعنى الذي في موضع نصب اسم «إن» والعائد محذوف ، أي : إن الذي تقضيه. وهذه : خبر «إن». وإما أن تكون «ما» كافة ، وهذه : في موضع نصب على الظرف ، أي إنما تقضي في هذه الحياة الدنيا. والحياة الدنيا صفة ﴿هذِهِ﴾ في كلا الوجهين.

﴿وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ما﴾ إما في موضع نصب بالعطف على ﴿خَطايانا﴾ وإما مبتدأ مرفوع ، وخبره محذوف ، تقديره : ما أكرهتنا عليه مغفور لنا. و ﴿مِنَ السِّحْرِ﴾ متعلق ب ﴿أَكْرَهْتَنا﴾.

﴿فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى جَنَّاتُ .. الدَّرَجاتُ﴾ مرفوع بالظرف ؛ لأنه جرى خبرا عن المبتدأ ، وهو أولئك ، و ﴿جَنَّاتُ﴾ بدل مرفوع من ﴿الدَّرَجاتُ﴾ أي أولئك لهم جنات عدن. و ﴿خالِدِينَ﴾ حال من الهاء والميم في ﴿لَهُمُ﴾ والعامل فيه : اللام ، أي الاستقرار ، أو معنى الإشارة.

البلاغة :

﴿بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أي فألقوا فإذا حبالهم. ﴿وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ﴾ ثم قال : ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً﴾ فيه إيجاز بالحذف ، وهو : فألقى موسى عصاه ، فتلقفت ما صنعوا من السحر ، فألقي السحرة سجدا. وحسن الحذف في الموضعين لدلالة المعنى عليه.

﴿يَمُوتُ﴾ و ﴿يَحْيى﴾ بينهما طباق.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً﴾ و ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ﴾ بينهما مقابلة : وهي أن يؤتى بمعينين أو أكثر ، ثم يؤتى بما يقابل ذلك.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى﴾ فيه مؤكدات هي : إن ، وأنت ، وتعريف الخبر : ﴿الْأَعْلى﴾ ولفظ العلو الدال على الغلبة ، وصيغة التفضيل ﴿الْأَعْلى﴾.

المفردات اللغوية :

﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى﴾ قال السحرة ذلك مراعاة للأدب ، وخيروه بين أن يلقي عصاه أو يلقوا عصيهم. وأن وما بعده : منصوب بفعل مضمر ، أو مرفوعبخبر محذوف ، أي اختر إلقاءك أولا أو إلقاؤنا ، أو الأمر إلقاؤك ، أو إلقاؤنا. ﴿قالَ : بَلْ أَلْقُوا﴾ مقابلة أدب بأدب ، وعدم مبالاة بسحرهم ، وليستنفدوا أقصى وسعهم ، ثم يظهر الله سلطانه ، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه.

﴿فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ ..﴾ أي فألقوا ، وكلمة ﴿فَإِذا﴾ التحقيق أنها ظرفية متعلقة بفعل المفاجأة ، والجملة ابتدائية ، والمعنى : فألقوا ففاجأ موسى وقت تخيل سعي حبالهم وعصيهم من سحرهم ، وذلك بأنهم لطخوها بالزئبق ، فلما ضربت عليها الشمس ، اضطربت ، فخيل إليه أنها تتحرك. و ﴿أَنَّها تَسْعى﴾ بدل اشتمال ، أي أنها حيات تسعى على بطونها.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً﴾ أحس بشيء من الخوف ، من جهة أن سحرهم من جنس معجزته ، أن يلتبس أمره على الناس ، فلا يؤمنوا به.

﴿قُلْنا : لا تَخَفْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى﴾ قلنا له : لا تخف ما توهمت فإنك أنت الأعلى عليهم بالغلبة ، وهذا الأخير تعليل للنهي وتقرير لغلبته ، مؤكدا بالاستئناف وحرف التحقيق : «إن» وتكرير الضمير وتعريف الخبر ولفظ العلو الدال على الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل.

﴿وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ﴾ وهي العصا ، ولم يقل : عصاك ، تحقيرا لها ، أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم ، أو تعظيما لها ، أي لا تحتفل بكثرة هذه الأشياء وعظمها ، فإن في يمينك ما هو أعظم منها أثرا ، فألقه. ﴿تَلْقَفْ﴾ تبتلع بقوة وسرعة وبقدرة الله تعالى ، والخطاب على إسناد الفعل إلى السبب ﴿إِنَّما صَنَعُوا﴾ إن الذي زوروا وافتعلوا ﴿كَيْدُ ساحِرٍ﴾ أي كيد سحري لا حقيقة له ، أي ذي سحر ، أو إضافة قصد بها البيان مثل : علم فقه. وإنما وحد الساحر ؛ لأن المراد به الجنس المطلق. ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ أي هذا الجنس. ﴿حَيْثُ أَتى﴾ بسحره ، أي أينما كان ، وأينما أقبل.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً﴾ خروا ساجدين لله تعالى ، أي فألقى فتلقفت ، فتحقق عند السحرة أنه ليس بسحر ، وإنما هو من آيات الله ، ومعجزة من معجزاته ، فألقاهم ذلك على وجوههم سجدا لله ، توبة عما صنعوا وتعظيما لما رأوا ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى﴾ قدم هارون لكبر سنه ، أو لروي الآية ، روي أنهم رأوا في سجودهم الجنة ومنازلهم فيها. ﴿قالَ : آمَنْتُمْ لَهُ﴾ قال فرعون : آمنتم لموسى ، واللام لتضمين الفعل معنى الاتباع. ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أنا في الإيمان له. ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ إن موسى لمعلمكم أو لأستاذكم الذي علمكم السحر ، وأنتم تواطأتم على ما فعلتم. ﴿مِنْ خِلافٍ﴾ في موضع النصب على الحال أي لأقطعنها من حال مختلفة : اليد اليمنى والرجل اليسرى. ومن : ابتدائية. ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي عليها ، شبه تمكن المصلوب بالجذوع بتمكن المظروف بالظرف ، وهو أول من صلب. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا﴾ يريد نفسه ورب موسى لقوله : ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾. ﴿أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى﴾ أي أدوم عذابا. وهل نفذ فيهم تهديده؟

الآيات لم تذكر ذلك ، لكن ذكر المفسرون أنه أنفذ فيهم وعيده ، فقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم ، فماتوا على الإيمان ، فقال ابن عباس : كانوا في أول النهار سحرة ، وفي آخر النهار شهداء بررة.

﴿قالُوا : لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ قال السحرة : لن نختارك. ﴿عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ﴾ على ما جاءنا موسى به من المعجزات الواضحات الدالة على صدقه. ﴿وَالَّذِي فَطَرَنا﴾ خلقنا وأوجدنا من العدم. وهذا عطف على ما جاءنا ، أو قسم ﴿فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ﴾ اصنع ما أنت قاضيه ، أي صانعه ، أو ما قلته أو احكم. ﴿إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا﴾ أي إنما تصنع ما تهواه أو تحكم بما تراه في هذه الدنيا ، فالنصب على الاتساع ، أي فيها ، ثم تجزى عليه في الآخرة ، والآخرة خير وأبقى ، فهو كالتعليل لما قبله ، والتمهيد لما بعده.

﴿لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ تعلما وعملا في معارضة موسى والمعجزة. ﴿وَاللهُ خَيْرٌ﴾ منك ثوابا إذا أطيع. ﴿وَأَبْقى﴾ منك عذابا إذا عصي.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً﴾ إن الأمر من يأت ربه كافرا ، بأن يموت على كفره وعصيانه. ﴿لا يَمُوتُ فِيها﴾ فيستريح. ﴿وَلا يَحْيى﴾ حياة هنيئة فتنفعه. ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ﴾ الفرائض والنوافل. ﴿لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى﴾ المنازل الرفيعة ، جمع عليا مؤنث أعلى.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي جنات أعدت للإقامة. ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ من تحت غرفها. ﴿جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ تطهر من الذنوب والكفر.

قال البيضاوي : والآيات الثلاث ـ أي الأخيرة ـ يحتمل أن تكون من كلام السحرة ، وأن تكون ابتداء كلام الله.

المناسبة :

بعد ذكر الموعد وهو يوم الزينة وذكر مجيئهم صفا ، حدثت المبارزة بين السحرة وموسى ، فخيروه بين بدئه بالإلقاء ، وبدئهم به ، وكان ذلك أدبا منهم وتواضعا ، رزقوا الإيمان ببركته ، فقابلهم موسى أدبا بأدب ، وقدمهم في الإلقاء ؛ لأنه الطريق إلى إزالة الشبهة ، فما كان منهم إلا الإيمان ، لمعرفتهم بأن فعل موسى معجزة وليس سحرا ، وصمدوا على إيمانهم هازئين بتهديد فرعون بالتقطيع والصلب.

التفسير والبيان :

لما بدأت المبارزة ، والتقى الفريقان ، قالت السحرة لموسى :

﴿**قالُوا : يا مُوسى ، إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ ، وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى**﴾ أي قالت السحرة لموسى حين تقابلوا معه : اختر أحد الأمرين : إما أن تلقي أنت أولا ما تريد ، وإما أن نلقي نحن ما معنا من العصي والحبال على الأرض.

وهذا التخيير مع تقديمه في الكلام أدب حسن وتواضع له ، ألهمهم الله به ، ورزقوا الإيمان ببركته ، فقابل موسى عليه السلام أدبهم بأدب ، فقال :

﴿**قالَ : بَلْ أَلْقُوا**﴾ قال لهم موسى : بل ألقوا أنتم أولا ، لنرى سحركم وتظهر حقيقة أمركم ، ولتكون معجزته أظهر إذا ألقوهم ما معهم ، ثم إذا ألقى عصاه فتبتلع ما ألقوه كله ، وليظهر عدم المبالاة بسحرهم.

﴿**فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى**﴾ أي فألقوا ما معهم من الحبال والعصي ، فتوهم موسى ومن رآهم من الناس أنها تتحرك بسرعة كالأفاعي. ففي بدء الكلام حذف ، أي فألقوا ، وقوله : ﴿**فَإِذا**﴾ في رأي الزمخشري أنها إذا المفاجأة ، وتعقبه الرازي فقال : والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصبا لها وجملة تضاف إليها.

وجاء في آية أخرى أنهم لما ألقوا ﴿وَقالُوا : بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ ، إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٤٤] ونظير الآية التي هنا : ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ، وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ، وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف ٧ / ١١٦].

وذلك أنهم حشوها بالزئبق الذي يتأثر بحرارة الشمس ، أو بمادة أخرى تتأثر بالحرارة ، فيخيل للناظر أنها تسعى باختيارها ، وكأن الوادي امتلأ حيات يركب بعضها بعضا.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى﴾ أي أحس موسى بالخوف من أن يغلب ، تأثرا بالطبيعة البشرية. وابتهج فرعون وقومه ، وظنوا أنهم قد نجحوا ، وأن السحرة فازوا على موسى وهارون.

﴿قُلْنا : لا تَخَفْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى﴾ أي قال الله لموسى : لا تخف ، فإنك أنت المستعلي عليهم بالظفر والغلبة.

﴿وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا ، إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ ، وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى﴾ أي وألق يا موسى العصا التي في يمينك ، تبتلع بعد أن تصير حية جميع ما صنعوه من الحبال والعصي ، وسحروا بها أعين الناس ، إن الذي صنعوه ليس إلا سحرا خيالا لا حقيقة له ولا بقاء ، ولا يفوز الساحر حيث أتى من الأرض ، أو حيث احتال ، وأنه لا يحصل مقصوده بالسحر ، خيرا كان أو شرا. وإنما أبهم العصا تهويلا لأمرها ، وأنها ليست من جنس العصي المعروفة.

فقامت المعجزة ، واتضح البرهان ، وظهر الحق ، وبطل السحر ، ودهش الناس الذين ينظرون ، وأدرك السحرة أن السحر لا يفعل هذا أبدا ، وأن هذا خارج عن طاقة البشر ، وأنه من فعل الإله خالق الكون ، فآمنوا كما قال تعالى :

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً ، قالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى﴾ أي فلما ألقى

موسى عصاه ، وابتلعت عصيهم وحبالهم ، علموا أن فعل موسى ليس من قبيل السحر والحيل ، بل هو عن أمر الله القادر على كل شيء ، فسجدوا لله وآمنوا برسالة موسى ، قائلين : آمنا برب العالمين ، رب هارون وموسى ، مفضلين الآخرة على الدنيا ، والحق على الباطل. قال ابن عباس وعبيد بن عمير : كانوا أول النهار سحرة ، وفي آخر النهار شهداء بررة. وروى عكرمة عن ابن عباس أيضا أنه قال : كانت السحرة سبعين رجلا ، أصبحوا سحرة ، وأمسوا شهداء. قال الأوزاعي : لما خر السحرة سجدا ، رفعت لهم الجنة ، حتى نظروا إليها.

الله أكبر! ففعل الله أعجب وأدهش ، والإيمان البسيط سبب للمجد العظيم ، والفضل الكبير ، والنعم الخالدة في جنان الله. وليس المراد بقوله : ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً﴾ أنهم أجبروا على السجود ، وإلا لما كانوا محمودين ، بل إنهم من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا ، قال صاحب الكشاف : ما أعجب أمرهم ، قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود ، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين!!

وإنما قالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى﴾ ولم يقولوا برب العالمين فقط ؛ لأن فرعون ادعى الربوبية في قوله : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى﴾ [النازعات ٧٩ / ٢٤] وادعى الألوهية في قوله : ﴿ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي﴾ [القصص ٢٨ / ٣٨] فلو أنهم قالوا : آمنا برب العالمين فحسب ، لقال فرعون إنهم آمنوا بي ، لا بغيري ، فاختاروا هذه العبارة لإبطال قوله ، والدليل عليه : أنهم قدموا ذكر هارون على موسى ؛ لأن فرعون كان يدعي ربوبيته لموسى ؛ لأنه رباه في صغره كما حكى تعالى عنه : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٨].

ثم إن فرعون لما شاهد السجود والإقرار بالله تعالى ، خاف متابعة الناس لهم واقتداءهم بهم في الإيمان بالله وبرسوله ، فألقى شبهة أخرى في النبي ونبوته ، فقال :

﴿قالَ : آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أي قال فرعون الذي أصر على كفره وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل حين رأى المعجزة الباهرة ، وإيمان من استنصر بهم من السحرة ، وهزيمته الساحقة : هل صدقتموه أو صدقتم قوله واتبعتموه على دينه من غير إذن مني لكم بذلك؟ فلم تؤمنوا عن بصيرة وتفكير ، إنما أنتم أخذتم السحر عن موسى ، فهو معلمكم وأستاذكم ، وأنتم تلاميذه ، واتفقتم وتواطأتم أنتم وإياه علي وعلى رعيتي لتظهروه وتروجوا لدعوته ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ ، لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٢٣].

أراد فرعون بهذا القول أن يدخل الشبهة على الناس ، حتى لا يؤمنوا ، وإلا فإنه قد علم أنهم لم يتعلموا من موسى ، ولا كان رئيسا لهم ، ولا بينه وبينهم صلة أو مواصلة.

ثم لجأ فرعون إلى التهديد والتنفير عن الإيمان قائلا :

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ، وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ، وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى﴾ أي أقسم أني لأمثلن بكم ، فأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، أي بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو عكسه. قال ابن عباس : فكان أول من فعل ذلك ، وهذا تعطيل للمنفعة ، وأيضا لأصلبنكم على جذوع النخل ، زيادة في الإيلام والتشهير ، وإنما اختارها لخشونتها وأذاها ، ولتعلمن هل أنا أشد عذابا لكم أو رب موسى؟

وفي هذا تحد لقدرة الله ، وتحقير لشأن موسى ، وإيماء إلى ماله من سلطة وقهر واقتدار.

ولما صال عليهم بذلك وتوعدهم ، هانت عليهم أنفسهم في الله عزّوجلّ :

. ﴿قالُوا : لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا﴾ أي لن

نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات الواضحة من عند الله تعالى ، والمعجزات الظاهرة كاليد والعصا ، وعلى ما حصل لنا من الهدى واليقين ، ولن نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم ، فهو المستحق للعبادة والخضوع ، لا أنت.

. ﴿فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ ، إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا﴾ أي فافعل ما شئت ، واصنع ما أنت صانع ، إنما لك تسلط ونفوذ علينا في هذه الدنيا التي هي دار الزوال ، بما تريد من أنواع القتل ، ولا سبيل لك علينا فيما بعدها ، ونحن قد رغبنا في دار القرار.

. ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا ، وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ، وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾ أي إننا صدقنا بالله ربنا المحسن إلينا ، ليتجاوز ويستر ويعفو عن سيئاتنا وآثامنا وذنوبنا ، خصوصا ما أجبرتنا عليه من عمل السحر ، لنعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه ، والله خير لنا منك جزاء وأدوم ثوابا ، مما كنت وعدتنا ، وأبقى منك عقابا.

ذكر أن رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين ، اثنان من القبط ، والباقي من بني إسرائيل ، فقالوا لفرعون : أرنا موسى نائما ، فرأوه فوجدوه تحرسه عصاه ، فقالوا : ما هذا بساحر ، الساحر إذا نام بطل سحره ، فأبى إلا أن يعارضوه.

ولم تدل الآيات على تنفيذ فرعون ما هدد به السحرة ، ولكن الظاهر أنه نفذ ذلك ، لقول ابن عباس المتقدم : أصبحوا سحرة ، وأمسوا شهداء بررة.

وتابع السحرة وعظ فرعون ، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم ، ويرغبونه في ثوابه الأبدي الخالد ، فقالوا :

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ، فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ ، لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى﴾ أي إن من يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم ، فعذابه في جهنم ، لا يموت فيها ميتة

مريحة ، ولا يحيا حياة ممتعة ، فهو يألم كما يألم الحي. وهذا من قول السحرة لما آمنوا ، وقيل : ابتداء كلام من الله عَزَّوَجَلَّ .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها ، كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر ٣٥ / ٣٦] وقوله سبحانه : ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى ، ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى﴾ [الأعلى ٨٧ / ١١ - ١٣] وقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَنادَوْا يا مالِكُ ، لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ ، قالَ : إِنَّكُمْ ماكِثُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٧٧].

وأخرج أحمد ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطب ، فأتى على هذه الآية ، فقال : «أما أهلها الذين هم أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وأما الذين ليسوا بأهلها ، فإن النار تميتهم إماتة ، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون ، فيؤتى بهم ضبائر [١] على نهر ، يقال له : نهر الحياة أو الحيوان ، فينبتون كما ينبت الغثاء في حميل السيل». وفي الخبر الصحيح : «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان».

﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ ، فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى﴾ أي ومن يلقى ربه يوم المعاد مؤمن القلب ، قد صدق ضميره بقوله وعمله ، فعمل الطاعات ، فأولئك لهم بإيمانهم وعملهم الصالح الجنة ذات الدرجات والمنازل العالية الرفيعة ، والغرف الآمنة ، والمساكن الطيبة.

أخرج الإمام أحمد والترمذي عن عبادة بن الصامت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : «الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة ، ومنها تخرج الأنهار الأربعة ، والعرش فوقها ، فإذا سألتم الله تعالى ، فاسألوه الفردوس».

---

(١) الضبر : الجماعة ، جمع ضبور ، وضبائر : جمع الجمع.

وفي الصحيحين : «إن أهل عليين ليرون من فوقهم ، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء ، لتفاضل ما بينهم ، قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء؟ قال : بلى ، والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» وفي السنن : «وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما».

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ، وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي تلك الدرجات العلى في جنات إقامة تجري من تحت غرفها الأنهار ، ماكثين فيها أبدا ، وذلك الفوز الذي أحرزوه جزاء من طهر نفسه من دنس الكفر والمعاصي الموجبة للنار ، واتبع المرسلين فيما جاؤوا به من عند الله العلي القدير.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ الأدب الحسن يفيد في الدنيا والآخرة ، فلما خير السحرة موسى بين أن يلقي أولا أو يلقوهم ، أفادهم ذلك في التوفيق للإيمان. ولما قدمهم موسى في الإلقاء وهم الجمع الكثير ، نصره ربه ، فالتقمت عصاه التي تحولت حية جميع ما ألقوه من الحبال والعصي ، وكان ظهور المعجزة أوقع وأتم وأوضح.

وليس أمر موسى بالإلقاء رضى منه بما هو سحر وكفر ؛ إذ لا يقصد منه ظاهر الأمر ؛ فلا يكون نفس الإلقاء كفرا ومعصية ، وإنما هو وسيلة لما بعده ، ليظهر الفرق بين ذلك الإلقاء وبين معجزة الرسول موسى عليه‌السلام ، ولأن الأمر مشروط بتقدير محذوف هو : ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين. ثم إنه قدمهم في الإلقاء على نفسه ، مع أن تقديم إيراد الشبهة على إيراد الحجة غير جائز ؛ ليكون إظهار المعجزة سببا لإزالة الشبهة.

٢ ـ خاف موسى عليه السلام من الحيات ، حسبما يعرض لطباع البشر ، كما خاف لأول مرة حينما كلمه الله بإلقاء عصاه فصارت حية عظيمة. وقيل : خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقي عصاه.

٣ ـ أزال الله الخوف عن قلب موسى بقوله له : ﴿لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى﴾ أي الغالب لهم في الدنيا ، وأنت في الدرجات العلى في الجنة ، للنبوة والاصطفاء الذي آتاك الله به. وبقوله أيضا : ﴿وَأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا﴾ أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم ، وألق العصا التي بيمينك ، فإنها بقدرة الله تلتهم كل ما ألقوا ، وهي أعظم منها كلها ، وهذه على كثرتها أقل شيء ، فإنها تبتلع بإذن الله ما معهم وتمحقه.

٤ ـ اختلف الرواة في عدد السحرة ، والظاهر كما نقل عن ابن عباس وغيره كالكلبي : أنهم كانوا اثنين وسبعين ساحرا ، اثنان منهم من القبط ، وسبعون من بني إسرائيل أكرههم فرعون على ذلك. هذا مع العلم بأن ظاهر القرآن لا يدل على شيء من العدد ، والمهم أنه لا يفوز ولا ينجو الساحر حيث أتى من الأرض ، أو حيث احتال ، ولا يحصل مقصوده بالسحر خيرا كان أو شرا ، وذلك يقتضي نفي السحر بالكلية.

٥ ـ خر السحرة ساجدين لله ، لما رأوا من عظيم الأمر وخرق العادة في العصا ؛ فإنها ابتلعت جميع ما احتالوا به من الحبال والعصي ، وكانت حمل ثلاث مائة بعير ، ثم عادت عصا ، لا يعلم أحد أين ذهبت الحبال والعصي إلا الله تعالى [1].

وفي قوله : ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً﴾ دلالة على أنه ألقى العصا ، وصارت حية ، وتلقفت ما صنعوه ، وفي التلقف دلالة على أن جميع ما ألقوه تلقفته ،

(١) تفسير القرطبي : ١١ / ٢٢٤

وذلك لا يكون إلا مع عظم جسدها وشدة قوتها. وقد حكي عن السحرة أنهم عند التلقف أيقنوا بأن ما جاء به موسى عليه السلام ليس من مقدور البشر من وجوه :

أحدها ـ ظهور حركة العصا على وجه لا يمكن بالحيلة.

وثانيها ـ زيادة عظمها على وجه لا يتم بالحيلة.

وثالثها ـ ظهور الأعضاء عليها من العين والمنخرين والفم وغيرها ، ولا يتم ذلك بالحيلة.

ورابعها ـ تلقف جميع ما ألقوه على كثرته ، وذلك لا يتم بالحيلة.

وخامسها ـ عودها خشبة صغيرة كما كانت ، ولا يتم شيء من ذلك بالحيلة [١].

٦ ـ قوله : ﴿إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ﴾ فيه دلالة على أن ما مع موسى معجزة إلهية ، والذي معهم تمويهات باطلة.

٧ ـ آمن السحرة بما رأوه من المعجزة ، وعرفوا أن رب موسى وهارون هو الرب الحقيقي المستحق للعبادة ، وكان إيمانهم أرسخ من الجبال ، فهان عليهم عذاب الدنيا ، ولم يأبهوا بتهديد فرعون.

٨ ـ لم يملك فرعون إلا أن يعلن بأن موسى كبير السحرة ورئيسهم في التعليم ، وأنه إنما غلبهم لأنه أحذق منهم ؛ ليشبه على الناس ، حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم ، وإلا فقد علم فرعون أنهم لم يتعلموا من موسى ، بل قد علموا السحر قبل قدوم موسى وولادته.

٩ ـ ولجأ أخيرا إلى التهديد بالتقطيع للأيدي والأرجل من خلاف ، لتعطيل المنفعة ، وضم إليه التصليب للإذلال والإهانة ، وزاد في غيه وكفره وعناده أنه أشد عذابا وأدوم أثرا من عذاب رب موسى. وهذا إفك شديد.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٢ / ٨٥

١٠ ـ لم يتراجع السحرة عن إيمانهم بالرغم من شدة التهديد والوعيد وقالوا لفرعون : لن نختارك على ما جاءنا من اليقين والعلم ، ولا على الذي فطرنا ، أي خلقنا ، فافعل ما شئت ، إنما ينفذ أمرك في هذه الدنيا.

إننا صدقنا بالله وحده لا شريك له وما جاءنا به موسى ليغفر الله لنا خطايانا ، أي الشرك الذي كانوا عليه ، ويغفر لنا ما أكرهتنا عليه من السحر ، وثواب الله خير وأبقى.

قال عكرمة وغيره : لما سجدوا أراهم الله في سجودهم منازلهم من الجنة ؛ فلهذا قالوا : ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾.

وكانت امرأة فرعون تسأل من غلب؟ فقيل لها : غلب موسى وهارون ؛ فقالت : آمنت برب موسى وهارون. فأرسل إليها فرعون فقال : انظروا أعظم صخرة ، فإن مضت على قولها فألقوها عليها ؛ فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء ، فأبصرت منزلها في الجنة ، فمضت على قولها فانتزعت روحها ، وألقيت الصخرة على جسدها ، وليس في جسدها روح.

١١ ـ استمر السحرة في وعظ فرعون وغيره وتحذيره من عذاب الآخرة وترغيبه في العمل للجنة ، فقالوا : إن المجرم يدخل النار ، والمؤمن يدخل الجنة ، والمجرم : هو الكافر بدليل مقابلته بالمؤمن في الآية التالية : ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً ..﴾ وصفة الكافر المكذب الجاحد أنه في جهنم لا يموت فيها ولا يحيا. وإذا كان هذا كلام السحرة ، فلعلهم سمعوه من موسى أو من بني إسرائيل ، إذ كان فيهم بمصر أقوام ، وكان فيهم أيضا المؤمن من آل فرعون. ويحتمل أن يكون ذلك إلهاما من الله لهم ، أنطقهم بذلك لما آمنوا.

وقد استدل المعتزلة بهذه الآية على وعيد أصحاب الكبائر ، وقالوا : صاحب الكبيرة مجرم ، وكل مجرم فإن له جهنم لقوله : ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً﴾ ومن

الشرطية تفيد العموم. والجواب أن كلمة المجرم كما بينا يراد بها الكافر ، بدليل مقابلتها بالمؤمن فيما بعد.

وأما من يموت على الإيمان ، ويلقى ربه مصدقا به وبرسله وبالبعث ، ويعمل الصالحات ، أي الطاعات وما أمر به وما نهي عنه ، فله الدرجة الرفيعة التي عجز الوصف عن إدراكها والإحاطة بها. والدرجات العلى هي جنان الخلد والإقامة التي تجري من تحت غرفها وسررها الأنهار من الخمر والعسل واللبن والماء ، ماكثين دائمين ، وذلك جزاء من تطهر من الكفر والمعاصي.

- ١٠ -

إغراق فرعون وجنوده في البحر ونعم الله على بني إسرائيل

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى (٧٩) يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى (٨٢)﴾

الإعراب :

﴿طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً يَبَساً﴾ صفة ﴿طَرِيقاً﴾ وهو مصدر ، فهو إما أن يكون بمعنى: ذا يبس ، فحذف المضاف ، أو جعل الطريق اليبس نفسه.

﴿لا تَخافُ دَرَكاً﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال، أي غير خائف، مثل: ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر ٧٤ / ٦] أي مستكثرا. ومن قرأ لا تخف جزمه جوابا لقوله: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً﴾.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ الجار والمجرور في موضع نصب على الحال، والمفعول الثاني محذوف، أي فأتبعهم فرعون عقوبته بجنوده، أي معه جنوده.

﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ﴾ أي من ماء اليم، و ﴿ما غَشِيَهُمْ﴾: في موضع رفع فاعل، وكان حق الكلام: فغشيهم من ماء اليم شدته. فعدل إلى لفظه ﴿ما﴾ لما فيها من الإبهام، تهويلا للأمر، وتعظيما للشأن؛ لأنه أبلغ من التعيين، فيكون أبلغ تخويفا وتهديدا.

﴿وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ جانِبَ الطُّورِ﴾ مفعول ثان لواعدناكم، والتقدير: واعدناكم إتيان جانب الطور الأيمن، ثم حذف المضاف. و ﴿الْأَيْمَنَ﴾ صفة جانب.

﴿وَعَمِلَ صالِحاً﴾ صفة لموصوف محذوف، أي: وعمل عملا صالحا، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه.

البلاغة:

﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ﴾ تهويل.

﴿وَأَضَلَّ وَما هَدى﴾ طباق بينهما.

﴿فَقَدْ هَوى﴾ استعارة، استعار لفظ الهوي: وهو السقوط من علو إلى سفل للهلاك والدمار.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ صيغة مبالغة، أي كثير المغفرة للذنوب.

المفردات اللغوية:

﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي﴾ ليلا من مصر، والسري والإسراء: السير ليلا ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ﴾ اجعل لهم بعصاك ﴿يَبَساً﴾ أي طريقا يابسا، لا ماء فيه، فامتثل ما أمر به، وأيبس الله الأرض في قاع البحر، فمروا فيها ﴿لا تَخافُ دَرَكاً﴾ أو دركا، أي إدراكا ولحوقا ﴿وَلا تَخْشى﴾ ولا تخاف غرقا ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ حذف المفعول الثاني، أي فأتبعهم فرعون نفسه ومعه جنوده.

﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ﴾ فغمرهم وعلاهم من ماء البحر ما علاهم، فأغرقهم، والضمير: له ولهم. وفيه مبالغة وتهويل وإيجاز، أي غشيهم ما سمعت قصته ولا يعرف كنهه إلا الله ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ أي أضلهم في الدين وما هداهم بدعوتهم إلى عبادته، وإيقاعهم في الهلاك، خلافا

لقوله : ﴿وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ [غافر ٤٠ / ٢٩] فمعنى ﴿أَضَلَّهُمْ﴾ : سلك بهم طريقا إلى الخسران في دينهم ودنياهم ، إذ أغرقوا فأدخلوا نارا. ومعنى ﴿وَما هَدى﴾ : وما أرشدهم طريقا يؤدي بهم إلى السعادة.

﴿أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون بإغراقه ﴿الْأَيْمَنَ﴾ أي عن يمين من يأتي من الشام إلى مصر ، لإنزال التوراة ، للعمل ب ها ، وقرئ الأيمن بالجر على الجوار ﴿الْمَنَ﴾ نوع من الحلوى يسمى الترنجبين ﴿وَالسَّلْوى﴾ طائر هو السماني ، وكلاهما في التيه ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ﴾ لذائذه أو حلالاته مما أنعمنا به عليكم ﴿وَلا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ بأن تكفروا النعمة به ، وتخلوا بشكره ، وتتعدوا لما حد الله لكم فيه ، كالسرف والبطر والمنع عن المستحق ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ بكسر الحاء : أي فيجب ويلزمكم عذابي ، وبضمها : أي ينزل ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ﴾ بكسر الحاء وضمها ﴿فَقَدْ هَوى﴾ سقط من النار وهلك.

﴿لَغَفَّارٌ﴾ كثير المغفرة وستر الذنوب ﴿لِمَنْ تابَ﴾ من الشرك ﴿وَآمَنَ﴾ وحد الله وآمن بما يجب الإيمان به ﴿وَعَمِلَ صالِحاً﴾ عمل الفرائض والنوافل ﴿ثُمَّ اهْتَدى﴾ ثم استقام على الهدى المذكور إلى موته.

المناسبة :

بعد بيان الانتصار الساحق لموسى عليه‌السلام على السحرة ، أبان الله تعالى طريق الخلاص بين فرعون الطاغية وقومه وبين بني إسرائيل ، فأغرق الله فرعون وجنوده في البحر ، حين تبعوا موسى وقومه ، لما خرج من مصر إلى الطور ، وذلك بمعجزة العصا التي ضرب بها موسى البحر ، فأحدث فيه بقدرة الله طريقا يبسا ، بالرغم من الآيات المفصلة التي حدثت على يد موسى في مدى عشرين سنة حسبما ذكر في سورة الأعراف.

وأنقذ الله بني إسرائيل الذين أنعم الله عليهم بأنواع من النعم الدينية والدنيوية وأهمها إزالة المضرة ، فاقتضى تذكيرهم إياها ، وابتدأ بالمنفعة الدنيوية بقوله : ﴿أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ وهو إشارة إلى إزالة الضرر ، ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية بقوله : ﴿وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ وهو إنزال التوراة كتاب دينهم ومنهاج شريعتهم ، ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية بقوله : ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ

الْمَنَّ وَالسَّلْوى ، كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ﴾ ثم زجرهم عن العصيان بقوله : ﴿وَلا تَطْغَوْا فِيهِ ، فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ ثم بيان قبول توبة العاصي بقوله : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ﴾.

التفسير والبيان :

أمر الله موسى عليه‌السلام حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل أن يسري بهم في الليل ، وينقذهم من قبضة فرعون ، فقال :

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي ، فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ ، يَبَساً ، لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشى﴾ أي ولقد أوحينا إلى النبي موسى أن يسير ببني إسرائيل من مصر ليلا ، دون أن يشعر بهم أحد ، وأمرناه أن يتخذ أو يجعل لهم طريقا يابسا في وسط البحر (بحر القلزم أو البحر الأحمر) وذلك أن الله تعالى أيبس لهم تلك الطريق حتى لم يكن فيها ماء ولا طين.

وأشعرناه بالأمان والنجاة ، فقلنا له : أنت آمن لا تخاف أن يدركك وقومك فرعون وقومه ، ولا تخشى أن يغرق البحر قومك ، أو لا تخاف إدراك فرعون ولا تخشى الغرق بالماء.

والتعبير عن بني إسرائيل بكلمة ﴿بِعِبادِي﴾ دليل على العناية بهم ، وأنهم كانوا حينئذ قوما صالحين ، وإيماء بقبح صنع فرعون بهم من الاستعباد والظلم.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ، فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ﴾ أي تبعهم فرعون ومعه جنوده ، فغشيهم من البحر ما غشيهم مما هو معروف ومشهور ، فغرقوا جميعا. وتكرار ﴿غَشِيَهُمْ﴾ للتعظيم والتهويل.

وأما تورط فرعون الداهية الذكي في متابعة موسى فكان بسبب أنه أمر مقدمة عسكره بالدخول ، فدخلوا وما غرقوا ، فغلب على ظنه السلامة ، فلما دخل الكل أغرقهم الله تعالى.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى﴾ أي أضل فرعون قومه عن سبيل الرشاد ، وما هداهم إلى طريق النجاة حينما سلك بهم في الطريق الذي سلكه بنو إسرائيل في وسط البحر.

ثم بدأ الله تعالى يعدد نعمه على بني إسرائيل ، مقدما إزالة المضرة على جلب المنفعة ، وهو ترتيب حسن معقول ؛ لأن «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح» فقال :

١ ـ ﴿يا بَنِي إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ أي قلنا لهم بعد إنجائهم : يا بني إسرائيل ، قد أنجيناكم من عدوكم : فرعون ، الذي كان يذبح أبناءكم ويستحيي نساءكم ، وأقررنا أعينكم منهم ، حين أغرقتهم وأنتم تنظرون إليهم ، فقد غرقوا في صبيحة واحدة ، لم ينج منهم أحد ، كما في آية أخرى : ﴿وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة ٢ / ٥٠] وهو إشارة إلى إزالة الضرر.

٢ ـ ﴿وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ أي جعلنا لكم ميقاتا وهو موعد تكليم موسى بحضرتكم ، وإنزال التوراة ذات الشريعة المفصلة ، وأنتم تسمعون الكلام الذي يخاطبه به رب العزة. وكان مكان الموعد جانب جبل الطور الأيمن ، وهو جبل في سيناء. قال المفسرون : ليس للجبل يمين ولا يسار ، بل المراد أن طور سيناء عن يمين من انطلق من مدين إلى مصر.

٣ ـ ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى﴾ أي وأنزلنا عليكم المن والسلوى وأنتم في التيه ، أما المن : فهو حلوى كانت تنزل عليهم من الندى من السماء ، من الفجر إلى طلوع الشمس ، على الحجارة وورق الشجر. وأما السلوى : فهو طائر السماني الذي تسوقه ريح الجنوب ، فيأخذ كل واحد منكم ما يكفيه.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ﴾ أي وقلنا لهم : أنعموا بالأكل من تلك الطيبات المستلذات من الأطعمة الحلال.

﴿وَلا تَطْغَوْا فِيهِ ، فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي ولا تتجاوزوا ما هو جائز إلى ما لا يجوز ، ولا تجحدوا نعمة الله فتكونوا طاغين ، ولا تأخذوا من الرزق من غير حاجة ، وتخالفوا ما أمرتكم به من البعد عن السرف والبطر وارتكاب المعاصي والاعتداء على الحقوق ، فينزل بكم غضبي ، وعقوبتي.

﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى﴾ أي ومن ينزل به غضبي فقد شقي وهلك.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى﴾ أي وإني لستار وذو مغفرة شاملة لمن تاب من الذنوب ، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وعمل عملا صالحا مما ندب إليه الشرع وحسنه ، ثم استقام على ذلك حتى يموت. وفي التعبير ب ﴿ثُمَّ اهْتَدى﴾ دلالة على وجوب الاستمرار على تلك الطريقة ؛ إذ المهتدي في الحال لا يكفيه ذلك في الفوز بالنجاة ، حتى يستمر عليه في المستقبل ، ويموت عليه ، ويؤكده قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا : رَبُّنَا اللهُ ، ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ [فصلت ٤١ / ٣٠] وكلمة ﴿ثُمَ﴾ هنا للتراخي ، وليست لتباين المرتبتين ، بل لتباين الوقتين ، فكأنه تعالى قال : الإتيان بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ، مما قد يحدث أحيانا لكل أحد ، ولا صعوبة في ذلك ، إنما الصعوبة في المداومة والاستمرار على المطلوب.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت هذه الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ تفضل الله على بني إسرائيل بإنقاذهم وإنجائهم من ظلم فرعون وقومه ، فأوحى الله إليه أن يتخذ لهم طريقا يابسا في البحر لا طين فيه ولا ماء ، بأن ضربه بعصاه ، فانشق ، وجف بما هيأ الله له من الأسباب كالرياح ، فأضحى لا يخاف لحاقا من فرعون وجنوده ، ولا يخشى غرقا من البحر.

٢ ـ تورط فرعون بعد أن أرسل فريقا من عسكره وراء بني إسرائيل في البحر ، فلما لم يغرقوا ، أمر جنوده بالمسيرة بقيادته ، فتبعهم ليلحقهم مع جنوده ، فأطبق عليهم البحر ، ولم ينج أحد.

٣ ـ كان فرعون شؤما على نفسه وعلى قومه ، فإنه أضلهم عن الرشد ، وما هداهم إلى خير ولا نجاة ؛ لأنه قدر أن موسى عليه‌السلام ومن معه لا يفوتونه ؛ لأن بين أيديهم البحر.

فلما ضرب موسى البحر بعصاه انفلق منه اثنا عشر طريقا ، وكان الماء بين الطرق قائما كالجبال ، كما قال تعالى : ﴿فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٦٣] أي الجبل الكبير ، فأخذ كل سبط من أسباط بني إسرائيل طريقا.

وأوحى الله إلى أطواد الماء بالتشبك ، فصارت شبكات يرى بعضهم بعضا ، ويسمع بعضهم كلام بعض ، فكان هذا من أعظم المعجزات ، وأكبر الآيات. فلما أقبل فرعون ، ورأى الطرق في البحر ، والماء قائما ، أوهمهم أن البحر فعل هذا لهيبته ، فدخل هو وأصحابه ، فانطبق البحر عليهم. وهذا كله يحتاج إلى الإيمان بقدرة الله.

٤ ـ أنعم الله على بني إسرائيل بنعم كثيرة ، ذكر منها هنا ثلاثا ، وهي الإنجاء من آل فرعون ، والمواعدة : إتيان جانب الطور ، وإنزال المن والسلوى في التيه.

٥ ـ إن النعم تقتضي الحفظ والشكر ، فقد يسر الله لهم الأكل من طيبات الرزق الحلال ولذيذه الذي لا شبهة فيه ، فما عليهم إلا حفظ النعمة ، فلا يؤخذ منها أكثر من الحاجة ، وشكرها ، فلا تؤدي إلى السرف والبطر والمعصية ، وهذا هو الطغيان ، أي التجاوز إلى ما لا يجوز.

٦ . إن جحود النعمة يوجب حلول غضب الله ونزوله ، ومن نزل به غضب الله وعقابه ونقمته وعذابه ، فقد شقي وهلك وهوى ، أي صار إلى الهاوية وهي قعر النار.

٧ . الله غفور على الدوام لمن تاب من الشرك والكفر والمعصية ، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وعمل صالح الأعمال بأداء الفرائض والطاعات ، واجتنب المعاصي ، ثم أقام على إيمانه حتى مات عليه.

ـ ١١ ـ

تكليم الله موسى في الميقات وفتنة السامري بصناعة العجل إلها

﴿وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى (٨٣) قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ
لِتَرْضى (٨٤) قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسى إِلى
قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ
يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَلكِنَّا
حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ
خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ
ضَرًّا وَلا نَفْعاً (٨٩)﴾

الإعراب :

﴿وَما أَعْجَلَكَ ... ما﴾ مبتدأ ، و ﴿أَعْجَلَكَ﴾ خبره ، وفيه ضمير يعود إلى ﴿ما﴾ وتقديره : أي شيء أعجلك؟.

﴿يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً وَعْداً﴾ إما منصوب على المصدر ، تقول : وعدته وعدا ، كضربته ضربا ، وإما أن يكون الوعد بمعنى الموعود ، كالخلق بمعنى المخلوق ، فيكون مفعولا به ثانيا ل ﴿يَعِدْكُمْ﴾ على تقدير حذف مضاف ، أي تمام وعد حسن.

﴿ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا﴾ بالفتح : هو اسم أي بإصلاح ملكنا ورعايته ، ومن ضم الميم جعله مصدر «ملك» يقال : ملك بين الملك ، ومن كسر الميم جعله مصدر «مالك» يقال : مالك بين الملك ، والمصدر هنا مضاف إلى الفاعل.

﴿فَنَسِيَ﴾ الفاعل إما ﴿السَّامِرِيُ﴾ أي نسي طاعتنا وتركها ، والنسيان بمعنى الترك ، قال تعالى : ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة ٩ / ٦٧] أي تركوا طاعة الله فتركهم في النار ، وإما الفاعل ﴿مُوسى﴾ أي ترك موسى ذلك وأعرض عنه ، والأول أوجه.

﴿أَلَّا يَرْجِعُ﴾ «أن» مخففة من الثقيلة ، واسمها محذوف : أنه.

المفردات اللغوية :

﴿وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ﴾ لمجيء ميعاد أخذ التوراة ، وهو يدل على تقدم قومه في المسير إلى المكان ، وهو سؤال عن سبب العجلة ، يتضمن إنكارها ، من حيث إنها نقيصة في نفسها ، انضم إليها إغفال القوم ، وإيهام التعظم عليهم ، فأجاب موسى عن الأمرين ، وقدم جواب الإنكار ؛ لأنه أهم فقال : ﴿هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي﴾ أي ما تقدمتهم إلا بخطى يسيرة لا يعتد بها عادة ، وهم قادمون ورائي ، ليس بيني وبينهم إلا مسافة قريبة ، يتقدم الرفقة بها بعضهم بعضا. ثم قال : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى﴾ عني ، أي زيادة على رضاك ، فإن المسارعة إلى امتثال أمرك والوفاء بعهدك يوجب مرضاتك. وقبل الجواب أتى بالاعتذار بحسب ظنه. يقال : جاء على أثره : أي لحقه بلا تأخير.

قال تعالى : ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُ﴾ أي ابتليناهم واختبرناهم بعبادة العجل ، بعد فراقك لهم ، وأضلهم موسى السامري : أي أوقعهم في الضلال والخسران ، باتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته. وهم الذين خلفهم مع هارون ، وكانوا ست مائة ألف ، ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفا. وقرئ : وأضلهم السامري ، أي أشدهم ضلالة ؛ لأنه كان ضالا مضلا. والسامري : منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة.

﴿فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ﴾ بعد ما استوفى الأربعين ليلة وأخذ التوراة ﴿غَضْبانَ﴾ عليهم ﴿أَسِفاً﴾ شديد الحزن بما فعلوا ﴿وَعْداً حَسَناً﴾ أي صدقا أنه يعطيكم التوراة فيها هدى ونور ﴿أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أي زمان الإنجاز ، يعني زمان مفارقته لهم ﴿أَنْ يَحِلَ﴾ يجب عليكم ﴿غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بعبادتكم العجل ﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ وعدكم إياي بالثبات على الإيمان بالله ، والقيام بما أمرتكم به ، وتركتم المجيء بعدي.

﴿بِمَلْكِنا﴾ مثلث الميم أي بقدرتنا واختيارنا وأمرنا ، إذ لو خلينا وأمرنا ولم يسول علينا السامري ، لما أخلفنا موعدك ﴿وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ وقرئ : وحملنا ، و ﴿أَوْزاراً﴾ أثقالا ، وزينة القوم أي حلي قوم فرعون ، أي حملنا أحمالا من حلي القبط التي استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر ، باسم العروس ﴿فَقَذَفْناها﴾ طرحناها في النار بأمر السامري ﴿فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ أي كما ألقينا فكذلك ألقى السامري ما كان معه منها أي من حليهم ومن التراب الذي أخذه من أثر حافر فرس جبريل.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً﴾ أي صاغ من تلك الحلي المذابة عجلا جثة لا روح فيها ﴿لَهُ خُوارٌ﴾ الخوار : صوت العجل ، والمراد هنا صوت يسمع بسبب التراب الذي يكون أثره الحياة فيما يوضع فيه ، وقد وضعه في فم العجل بعد صوغه.

﴿فَقالُوا﴾ أي السامري وأتباعه ﴿فَنَسِيَ﴾ أي نسي السامري وترك ما كان عليه من إظهار الإيمان ، وقيل في زعم السامري : نسي موسى ربه هنا ، وذهب يطلبه عند الطور.

﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾ ألا يرد العجل لهم جوابا ﴿وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً﴾ أي لا يقدر على دفع ضر عنهم ولا جلب نفع لهم ، فكيف يتخذ إلها؟!

المناسبة :

بعد تعداد النعم على بني إسرائيل ، أردف هذا بقصة الكلام الذي جرى بينه تعالى وبين موسى في الميقات بحسب المواعدة التي واعده بها ربه سابقا ، ثم أعقبه ببيان فتنة السامري لبني إسرائيل باختراع العجل من الذهب ، وجعله إلها ، يصدر صوتا حينما تهب رياح معينة ، فتحرك التراب الذي في فمه ، فوبخهم الله بأن هذا العجل لا يجيب سائله ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا.

وتجاوب بني إسرائيل في تأليه العجل وعبادته نابع من ميلهم إلى الوثنية

أثناء مخالطة المصريين ، بدليل أنه لما نجاهم الله من طغيان فرعون ، طلبوا من موسى نفسه عليه السلام أن يصنع لهم تمثالا ليعبدوه ، كما قال تعالى : ﴿وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ ، فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ ، قالُوا : يا مُوسَى ، اجْعَلْ لَنا إِلهاً ، كَما لَهُمْ آلِهَةٌ ، قالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٣٨].

التفسير والبيان :

﴿وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى﴾ أي ما حملك على أن تسبقهم ، والقوم : هم بنو إسرائيل ، والمراد بهم هنا النقباء السبعون ، أي ما الذي حملك على العجلة حتى تركت النقباء وخرجت من بينهم.

وذلك أن الله وعد موسى باللقاء في جبل الطور بعد هلاك فرعون ، ليعطيه الألواح التي فيها الوصايا الدستورية لبني إسرائيل. فلما أهلك الله فرعون سأل موسى ربه الكتاب ، فأمره أن يصوم ثلاثين يوما ، ثم زيدت إلى أربعين يوما : ﴿وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ ، فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَقالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ : اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ، وَأَصْلِحْ ، وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٤٢].

وكانت المواعدة أن يوافي موسى وجماعة من وجوه قومه ، فاختار موسى منهم سبعين رجلا : ﴿وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا﴾ [الأعراف ٧ / ١٥٥] وهم النقباء السبعون الذين اختارهم ، فسار موسى بهم ، ثم عجل من بينهم شوقا إلى ربه ، أي لما قرب من الطور سبقهم شوقا إلى سماع كلام الله ، فقال الله له : ما أعجلك؟ أي ما الذي حملك على العجلة حتى تركت قومك وخرجت من بينهم؟.

وهذا الإنكار إنكار للعجلة في ذاتها ؛ لما فيها من عدم العناية بصحبه ؛ لأن من شرط المرافقة الموافقة ، وهو تعليم للأدب الحسن الرفيع في المصاحبة.

﴿قالَ : هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِي ، وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى﴾ أي قال موسى مجيبا ربه : هم بالقرب مني ، واصلون بعدي ، وما تقدمتهم إلا بخطإ يسيرة ، وسارعت إليك رب لتزداد عني رضا بمسارعتي إلى الوصول إلى مكان الموعد ، امتثالا لأمرك ، وشوقا إلى لقائك. فهو عليه‌السلام يعتذر بالخطإ في الاجتهاد.

﴿قالَ : فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُ﴾ أي قال الله تعالى : إنا قد اختبرنا قومك بني إسرائيل من بعد فراقك لهم ، وهم الذين تركهم مع أخيه هارون ، وجعلهم موسى السامري في ضلالة عن الحق ، باتخاذهم عبادة العجل من ذهب.

والسامري من قبيلة السامرة ، أو من قوم يعبدون البقر ، والأكثرون أنه كان من عظماء بني إسرائيل من قبيلة السامرة ، قال لمن معه من بني إسرائيل : إنما تخلف موسى عن الميعاد الذي بينكم وبينه وهو عشر ليال ، لما صار معكم من الحلي ، وهي حرام عليكم ، وأمرهم بإلقائها في النار ، وكان منها العجل ، الذي يصدر منه صوت أحيانا بفعل تأثير الرياح.

﴿فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً﴾ أي فعاد موسى إلى قومه بني إسرائيل بعد انقضاء الليالي الأربعين ، شديد الغضب والحنق ، والأسف والحزن والجزع.

﴿قالَ : يا قَوْمِ ، أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً؟﴾ أي قال موسى : يا قوم أما وعدكم ربكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة ، من إنزال الكتاب التشريعي العظيم لتعملوا به ، والنصر على عدوكم ، وتملككم أرض الجبارين وديارهم ، والثواب الجزيل في الآخرة بقوله المتقدم : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى﴾.

﴿أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ أي هل طال عليكم الزمان في انتظار وعد الله ونسيان ما سلف من نعمه ، ولم يمض على ذلك من العهد غير شهر وأيام ، ﴿أَمْ﴾ (أي بل [1]) أردتم بصنيعكم هذا أن ينزل عليكم غضب ونقمة وعقوبة من ربكم؟ فأخلفتم وعدي ، إذ وعدتموني أن تقيموا على طاعة الله عزّ وجلّ إلى أن أرجع إليكم من الطور. يعني هل طال العهد عليكم فنسيتم أو أردتم المعصية فأخلفتم؟.

﴿قالُوا : ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا﴾ أي أجابوه قائلين : ما أخلفنا عهدك ووعدك باختيارنا وقدرتنا ، بل كنا مضطرين إلى الخطأ. وهذا إقرار منهم بالمعصية والوقوع في الفتنة بتسويل السامري وغلبته على عقولهم ، كما قال تعالى :

﴿وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ ، فَقَذَفْناها ، فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ أي ولكن حملنا أثقالا من زينة القوم أي القبط المصريين ، حين خرجنا من مصر معك ، وأوهمناهم أننا نجتمع في عيد لنا أو وليمة. وسميت أوزارا أي آثاما ؛ لأنه لا يحل لهم أخذها. وقال السامري لهم : إنما حبس موسى عنكم بشؤم حرمتها ، ثم أمرنا أن نحفر حفرة ، ونملأها نارا ، وأن نقذف الحلي فيها ، فقذفناها ، أي فطرحناها في النار طلبا للخلاص من إثمها ، فمثل ذلك قذف السامري ما معه ، وصاغ من الحلي عجلا ، ثم ألقى عليه قبضة من أثر الرسول جبريل.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ﴾ أي فأخرج السامري لبني إسرائيل من الذهب الملقى في النار (الأوزار) جسد عجل لا روح ولا حياة فيه ، له خوار العجول ؛ لأنه صنعه بطريقة معينة ، عمل فيه خروقا ، وألقى فيه رملا من أثر جبريل ، فكان إذا دخلت الريح في جوفه خار. والخوار : صوت البقر.

---

(١) بل : للإضراب عن الكلام الأول وعدول إلى الثاني ، كأنه يقول : بل أردتم .. إلخ.

﴿فَقالُوا : هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى ، فَنَسِيَ﴾ أي قال السامري ومن فتن به : هذا هو إلهكم وإله موسى ، فاعبدوه ، ولكن موسى نسي أن يخبركم أن هذا إلهكم.

فرد الله تعالى عليهم مقرعا لهم ومسفها عقولهم ، فقال :

﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً ، وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً﴾ أي أفلا يعتبرون ويتفكرون في أن هذا العجل لا يرد عليهم جوابا ، ولا يكلمهم إذا كلموه ، ولا يقدر أن يدفع عنهم ضررا ، أو يجلب لهم نفعا ، فكيف يتوهمون أنه إله؟!.

فقه الحياة أو الأحكام :

تدل الآيات على ما يأتي :

١ ـ تعجل موسى عليه‌السلام سابقا قومه النقباء السبعين شوقا للقاء ربه وسماع كلامه ، باجتهاد منه ، ولكنه أخطأ في ذلك الاجتهاد ، فاستوجب العتاب.

ثم إن العجلة وإن كانت في الجملة مذمومة ، فهي ممدوحة في الدين ، قال تعالى : ﴿وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران ٣ / ١٣٣].

وكنى موسى عن ذكر الشوق وصدقه بابتغاء الرضا ، قائلا : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى﴾ أي عجلت إلى الموضع الذي أمرتني بالمصير إليه لترضى عني.

٢ ـ اختبر الله بني إسرائيل في غيبة موسى عليه‌السلام ، ليتبين القائمين على أمر الله عزوجل ، واعتقاد توحيده ، والتزام شريعته ، تبين انكشاف وظهور ؛ لأن الله عالم بالجميع.

٣ ـ لقد أضلهم السامري ، أي دعاهم إلى الضلالة ، أو هو سببها.

٤ . حق لموسى عليه السلام أن يعود إلى قومه شديد الغضب والأسى بسبب ما أحدثوا بعده من عبادة العجل.

٥ . بادر موسى إلى عتاب قومه بتذكيرهم بنعم الله عز وجل عليهم ، ومنها إنجاؤهم من فرعون وجنوده ، ووعدهم بالجنة إذا أقاموا على طاعته ، ووعدهم أنه يسمعهم كلامه في التوراة على لسان موسى ، ليعملوا بما فيها ، فيستحقوا ثواب عملهم. وقوله : ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ﴾ يدل على أنهم كانوا معترفين بالإله ، لكنهم عبدوا العجل على التأويل الذي يذكره عبدة الأصنام.

٦ . لا عذر لهم في نقض العهد الذي لم يطل أمره ، ولكنهم أرادوا العصيان وإحداث الأعمال التي تكون سبب حلول غضب الله بهم ، وأخلفوا الوعد مع موسى أن يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع إليهم من الطور.

٧ . اعتذروا لموسى عليه السلام بأنهم كانوا مضطرين إلى خلف الموعد ، ونقض العهد ، وذلك للتخلص من آثام الحلي التي كانوا قد أخذوها من القبط المصريين ، حين أرادوا الخروج مع موسى عليه السلام ، وأوهموهم أنهم يجتمعون في عيد لهم أو وليمة ، فألقوها في النار لتذوب.

٨ . لما ذابت الحلي في النار ، أخذها السامري ، وصاغ لهم منها عجلا ، ثم ألقى عليه قبضته من أثر فرس جبريل عليه السلام ، فصار عجلا جسدا له خوار.

٩ . زيف السامري الحقائق ، ودلس على بني إسرائيل ، وقال لهم مع أتباعه الذين كانوا ميالين إلى التجسيم والتشبيه ؛ إذ قالوا : ﴿اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف ٧ / ١٣٨] : هذا إلهكم وإله موسى الذي نسي أن يذكر لكم أنه إلهه.

١٠ . سفه الحق تعالى أحلامهم وعاب تفكيرهم ، وقال لهم : أفلا يعتبرون

ويتفكرون في أن هذا العجل لا يكلمهم ، ولا يملك لهم ضرا يدفعه عنهم ولا نفعا يجلبه لهم ، فكيف يكون إلها؟!.

أما الذي يعبده موسى عليه‌السلام فهو يضر وينفع ويعطي ويمنع.

١١ ـ دل قوله تعالى : ﴿أَفَلا يَرَوْنَ ..﴾ على وجوب النظر في معرفة الله تعالى ، كما في آية أخرى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ [الأعراف ٧ / ١٤٨]. وهو قريب في المعنى من قوله تعالى في ذم عبدة الأصنام : ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها﴾ [الأعراف ٧ / ١٩٥].

ـ ١٢ ـ

معاتبة موسى لهارون على تأليه العجل وإلقائه في البحر

وتوحيد الإله الحق

﴿وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى (٩١) قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ (٩٥) قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ

إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً (٩٧) إِنَّما إِلهُكُمُ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (٩٨)﴾

الإعراب :

﴿يَا بْنَ أُمَّ﴾ بالفتح أراد يا بن أمي بفتح الياء ، فأبدل من الكسرة فتحة ، ومن الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم حذف الألف تخفيفا ؛ لأن الفتحة تدل عليها. ومن قرأ بالكسر ﴿يَا بْنَ أُمِّ﴾ أراد يا بن أمي إلا أنه حذف الياء ؛ لأن الكسرة قبلها تدل عليها ، والأصل إثباتها ؛ لأن الياء إنما تحذف من المنادي المضاف ، نحو : يا قوم ، ويا عباد ، والأم ليست بمناداة هنا ، وإنما المنادي هو «الابن».

﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ فعل مبني للمجهول ، وضمير المخاطب نائب الفاعل ، وهاء ﴿تُخْلَفَهُ﴾ مفعول ثان منصوب. ومن قرأ بكسر اللام ﴿لَنْ تُخْلِفَهُ﴾ كان مضارع (أخلفت الموعد) والمفعول الثاني حينئذ محذوف ، أي ﴿لَنْ تُخْلِفَهُ﴾ أي الموعد ؛ لأن أخلف : يتعدى إلى مفعولين.

﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ تمييز محول عن الفاعل ، أي وسع علمه كل شيء.

البلاغة :

﴿أَمْرِي قَوْلِي نَفْسِي﴾ وكذا ﴿نَفْعاً نَسْفاً عِلْماً﴾ سجع حسن غير متكلف.

المفردات اللغوية :

﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل رجوع موسى ﴿إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ إنما وقعتم في الفتنة والضلال بالعجل ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ في الثبات على الحق وعبادة الرحمن ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ في تلك العبادة ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ﴾ لن نزال على العجل وعبادته ﴿عاكِفِينَ﴾ مقيمين ﴿قالَ : يا هارُونُ﴾ قال موسى بعد رجوعه ﴿ضَلُّوا﴾ بعبادة العجل ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ لا : زائدة ، أي أن تتبعني في الغضب لله ومقاتلة من كفر بالله ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ بالصلابة في الدين ، والمحاماة عنه ، وعصيانك بإقامتك بين قوم لا يعبدون الله تعالى.

﴿قالَ : يَا بْنَ أُمَّ﴾ أراد أمي ، وخص الأم استعطافا لقلبه ﴿لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي﴾ لا تأخذ بشعر لحيتي ولا بشعر رأسي ، وكان أخذ بلحيته بشماله ، وبشعره بيمينه ، يجره إليه ، من شدة

غضبه لله ، ومن المعلوم أن موسى عليه السلام كان حديدا خشنا متصلبا في كل شيء ، فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل ، ففعل ما فعل. ﴿خَشِيتُ﴾ خفت لو اتبعتك ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ ولم تراع قولي فيما رأيته في ذلك.

﴿قالَ : فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ﴾ أي ثم أقبل عليه وقال منكرا : ما شأنك الداعي إلى ما صنعت ، وما الذي حملك على هذا الأمر الخطير؟ ﴿بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي علمت بما لم يعلموه ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ فقبضت قبضة من تربة موطئ جبريل عليه السلام ، فهو الرسول ، وقيل : موسى عليه السلام ، والقبضة : الأخذ بجميع الكف ﴿فَنَبَذْتُها﴾ ألقيتها وطرحتها في صورة العجل المصاغ ﴿وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي ومثل ذلك زينت وحسنت لي نفسي.

﴿قالَ : فَاذْهَبْ﴾ قال موسى له : ﴿فَاذْهَبْ﴾ من بيننا ﴿فِي الْحَياةِ﴾ مده حياتك ﴿أَنْ تَقُولَ﴾ لمن رأيته ، عقوبة على ما فعلت ﴿لا مِساسَ﴾ أي لا تقربني ، ولا مخالطة ، فلا يقربه ولا يخالطه أحد ، ولا يخالط أحدا ، فعاش وحيدا طريدا ، وإذا حدث مساس مع أحد ، أخذته الحمى ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً﴾ في الآخرة لعذابك ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ أي سيأتيك الله به حتما ، وتبعث إليه ، وبكسر اللام : لن تغيب عنه ﴿ظَلْتَ﴾ أصله : ظللت ، فحذفت الأولى تخفيفا ، أي دمت ﴿عاكِفاً﴾ مقيما تعبده ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ أي بالنار ﴿لَنَنْسِفَنَّهُ﴾ لنذرينه ﴿فِي الْيَمِّ﴾ في البحر ﴿نَسْفاً﴾ نذرا ، فلا يصادف منه شيء ، وقام موسى فعلا بإلقاء العجل في البحر.

﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ وسع علمه كل شيء وأحاط به.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى مخالفة عبادة العجل لأبسط مبادئ العقل ؛ لأنه لا يجيب سائله ولا يدفع عنه ضرا ولا يجلب له نفعا ، ذكر أن بني إسرائيل أيضا عصوا الرسول الذي نبههم إلى خطأ فعلهم ، ثم أوضح معاتبة موسى لأخيه هارون على سكوته على بني إسرائيل في عبادتهم العجل ، ثم أردف به مناقشة موسى للسامري وعقابه من الله في الدنيا والآخرة ، وإلقاء موسى العجل في البحر ، وإعلان موسى صراحة : من هو الإله الحق ، وهو الذي وسع علمه السموات والأرض ، لا الجماد الذي لا يضر ولا ينفع.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عما كان من نهي هارون عليه السلام قومه عن عبادتهم العجل وتحذيرهم منه ، وإخباره إياهم بأنه فتنة ، فيقول :

﴿وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ : يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ ، فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ أي لقد قال هارون عليه السلام لقومه عبدة العجل من قبل أن يأتي موسى ويرجع إليهم : إنما وقعتم في الفتنة والاختبار لإيمانكم وحفظكم دينكم بسبب العجل ، وضللتم عن طريق الحق لأجله ، ليعرف صحيح الإيمان من عليله.

وإن ربكم الله الذي خلقكم وخلق كل شيء فقدره تقديرا ، لا العجل ، فاتبعوني في عبادة الله ، ولا تتبعوا السامري في أمره لكم بعبادة العجل ، وأطيعوا أمري لا أمره ، واتركوا ما أنهاكم عنه.

ويلاحظ أن هارون عليه السلام وعظهم بأحسن الوجوه ؛ لأنه زجرهم عن الباطل أولا بقوله : ﴿إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ ثم دعاهم إلى معرفة الله تعالى ثانيا بقوله : ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ﴾ ثم دعاهم ثالثا إلى معرفة النبوة بقوله : ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ ثم دعاهم إلى الشرائع رابعا بقوله : ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾.

وقوله ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ﴾ تذكير لهم بربوبية الله وقدرته التي أنجتهم من فرعون وجنوده ، وتذكير برحمة الله التي تدل على أنهم متى تابوا ، قبل الله توبتهم ؛ لأنه هو الرحمن الرحيم ، ومن رحمته تخليصهم من آفات فرعون وعذابه.

ولكنهم قابلوا الوعظ والنصح بالتقليد والجحود ، فقالوا :

﴿قالُوا : لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى﴾ أي قالوا : لا نقبل حجتك ، ولكن نقبل قول موسى ، فلا نترك عبادة العجل ، حتى نسمع

كلام موسى فيه. وكادوا أن يقتلوا هارون عليه السلام. وما قصدهم إلا التسويف.

﴿قالَ : يا هارُونُ ، ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أي قال موسى لهارون حين رجع إلى قومه بعد تكليم ربه في الميقات : ما الذي منعك من اتباعي إلى جبل الطور ، واللحوق بي مع من بقي مؤمنا ، فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع ، حين وقعوا في هذه الضلالة ودخلوا في الفتنة؟ ففي مفارقتهم زجر لهم ، ودليل على الغضب والإنكار عليهم. و ﴿أَلَّا﴾ في قوله ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ زائدة ، أي أن تتبع أمري ووصيتي.

أفعصيت أمري؟ أي كيف خالفت أمري لك بالقيام لله ، ومنابذة من خالف دينه ، وأقمت بين هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلها؟ ألم أقل لك : ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ، وَأَصْلِحْ ، وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٤٢].

فقال هارون معتذرا عن تأخره عنه وإخباره بما حدث ، مستعطفا إياه :

﴿قالَ : يَا بْنَ أُمَّ ، لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي﴾ أي قال هارون لموسى : يا ابن أم ، مترققا له بذكر الأم التي هي عنوان الحنو والعطف ، مع أنه شقيقه لأبويه ، لا تفعل هذا عقوبة منك لي ، وكان موسى قد أخذ برأس أخيه يجره إليه ، فإن لي عذرا هو :

﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ : فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ ، وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أي إني خشيت إن خرجت عنهم وتركتهم أن يقتتلوا ويتفرقوا ، فتقول : إني فرقت جماعتهم ؛ لأنه لو خرج لتبعه جماعة منهم ، وتخلف مع السامري عند العجل آخرون ، وربما أفضى ذلك إلى القتال بينهم ، وحينئذ تقول : لم تعمل بوصيتي لك فيهم وتحفظها ، وهي قوله المتقدم : ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ ولم تراع ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم ، واعتذر إليه أيضا بقوله في آية أخرى :

﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف ٧ / ١٥٠].

ثم كلم موسى كبير الفتنة وهو السامري قائلا :

﴿قالَ : فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُ﴾؟ أي قال موسى للسامري : ما شأنك ، وما الذي حملك على ما صنعت؟ سأله ليتخذ من جوابه وإقراره حجة للناس ببطلان فعله وقوله.

﴿قالَ : بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ، فَنَبَذْتُها﴾ أي قال السامري : رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون على فرس ، فأخذت قبضة من أثر فرسه. والقبضة : ملء الكف ، والقبصة بأطراف الأصابع ، وذلك الأثر لا يقع على جماد إلا صار حيا. فطرحتها في الحلي المذابة المسبوكة على صورة العجل ، فصنعت لهم تمثال إله ، حينما رأيتهم يطلبون منك أن تجعل لهم إلها كآلهة المصريين عبدة الأصنام.

قال مجاهد : نبذ السامري ، أي ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل ، فانسبك عجلا جسدا له خوار : وهو حفيف الريح فيه.

﴿وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي كما زينت لي نفسي السوء ، زينت لي أيضا وحسنت هذا الفعل بمحض الهوى ، أو حدثتني نفسي ، لا بإلهام إلهي أو ببرهان نقلي أو عقلي.

فأخبره موسى بجزائه في الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿قالَ : فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ : لا مِساسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ أي قال موسى للسامري : فعقوبتك في الدنيا أن تذهب من بيننا وتخرج عنا ، وأن تقول ما دمت حيا : لا يمسك أحد ، ولا تمس أحدا ، وأمر موسى بني إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له ، وهذه هي عقوبة النبذ من المجتمع أو العزل المدني.

وعقوبتك في الآخرة : أن لك موعدا فيها للعذاب لا يخلفه الله ، بل سينجزه ، وهو يوم القيامة ، وهو آت لا ريب فيه ولا مفر منه.

وأما إلهك المزعوم فمصيره كما قال تعالى :

﴿وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ، ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾ أي وانظر إلى معبودك الذي أقمت على عبادته ، يعني العجل لنحرقنه تحريقا بالنار ، ثم لنذرينه في البحر لتذهب به الريح. قال قتادة : فحرقه بالنار ، ثم ألقى رماده في البحر. وهذا موقف حازم من موسى عليه‌السلام أحد الأنبياء أولي العزم ؛ لأن مثل هذا المعبود في زعم السامري ومن اتبعه يجب استئصال آثاره ، حفاظا على توحيد الله عزوجل وعبادته وحده لا شريك له ، لذا أتبعه بقوله :

﴿إِنَّما إِلهُكُمُ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ أي قال موسى : إن هذا العجل الذي فتنكم به السامري ليس بإله ، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ، أي فهو المستحق للعبادة ، ولا تنبغي العبادة إلا له ، فكل شيء فقير إليه ، عبد له. وهو عالم بكل شيء ، أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين.

وهكذا بدأت قصة موسى بالتوحيد الخالص : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ..﴾ وختمت به : ﴿إِنَّما إِلهُكُمُ اللهُ ..﴾ شأن رسالة كل نبي.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ أنكر هارون عليه السلام على السامري وتابعيه عبادة العجل إنكارا شديدا قبل أن يأتي موسى ويرجع إليهم ، فعصوه وكادوا أن يقتلوه ، وسوفوا وما طلوا حتى يرجع موسى عليه السلام ، لينظروا هل يقرهم على ما فعلوا أم لا.

٢ ـ لقد توهموا أن موسى يعبد العجل ، فاعتزلهم هارون مع اثني عشر ألفا لم يعبدوا العجل ، فلما رجع موسى سمع الصياح والضجيج ، وكانوا يرقصون حول العجل ، فقال للسبعين الذين معه : هذا صوت الفتنة.

٣ ـ قوله تعالى : ﴿قالَ : يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ دليل على أن السكوت على المنكر ضلال ، والمعنى : حين رأيتهم أخطئوا الطريق وكفروا ، ما منعك عن اتباعي والإنكار عليهم ، إن مقامك بينهم ـ وقد عبدوا غير الله ـ عصيان منك لي.

قال القرطبي : وهذا كله أصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتغييره ومفارقة أهله ، وأن المقيم بينهم لا سيما إذا كان راضيا حكمه كحكمهم. وسئل الإمام أبو بكر الطرطوشي رحمه الله :

ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟ وهم جماعة يجتمعون ، فيكثرون من ذكر الله تعالى ، وذكر محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم ، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه ، ويحضرون شيئا يأكلونه ، هل الحضور معهم جائز أم لا؟

فأجاب : يرحمك الله ، مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب

السامري ، لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار ، قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون ؛ فهو دين الكفار وعباد العجل ؛ وأما القضيب : فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى ؛ وإنما كان يجلس النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع أصحابه ، كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار ؛ فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها ؛ ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ، ولا يعينهم على باطلهم ؛ هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين ، وبالله التوفيق [١].

٤ ـ أجاب هارون معتذرا مبينا وجهة اجتهاده : وهي أنه خشي إذا خرج وتركهم ـ وقد أمره موسى بالبقاء معهم ـ أن تقع الفرقة بين بني إسرائيل ، وربما أدى الأمر إلى سفك الدماء ، وخشي إن زجرهم أن يقع قتال ، فيلومه موسى عليه ، وقد أوضح ذلك هنا بقوله : ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ : فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ وفي الأعراف قال : ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي ، فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ﴾ لأنك أمرتني أن أكون معهم.

٥ ـ بعد عتاب هارون اتجه موسى للسامري سائلا : ﴿فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ؟﴾ أي ما أمرك وما شأنك ، وما الذي حملك على ما صنعت؟ وقصده من سؤاله : انتزاع اعتراف منه بباطله.

قال قتادة : كان السامري عظيما في بني إسرائيل من قبيلة يقال لها «سامرة» ولكن عدو الله نافق بعد ما قطع البحر مع موسى ، فلما مرت بنو إسرائيل بالعمالقة ، وهم يعكفون على أصنام لهم ﴿قالُوا : يا مُوسَى ، اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ فاغتنمها السامري ، وعلم أنهم يميلون إلى عبادة العجل ، فاتخذ العجل.

---

(١) تفسير القرطبي : ١١ / ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

فقال السامري مجيبا لموسى : ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ يعني رأيت ما لم يروا ؛ رأيت جبريل عليه‌السلام على فرس الحياة ، فألقي في نفسي أن أقبض من أثره قبضته ، فما ألقيته على شيء ، إلا صار له روح ولحم ودم ؛ فلما سألوك أن تجعل لهم إلها ، زينت لي نفسي ذلك.

٦ ـ عاقب موسى عليه‌السلام ذلك السامري الذي اعترف بأنه صنع العجل لهوى في نفسه ، فنفاه عن قومه ، وأمر بني إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له. قال الحسن البصري : جعل الله عقوبة السامري ألا يماس الناس ولا يماسوه ، عقوبة له ولما كان منه إلى يوم القيامة ؛ وكأن الله عزوجل شدد عليه المحنة ، بأن جعله لا يماس أحدا ، ولا يمكن من أن يمسه أحد ، وجعل ذلك عقوبة له في الدنيا.

ويقال : لما قال له موسى : فاذهب ، فإن لك في الحياة أن تقول : ﴿لا مِساسَ﴾ خاف فهرب ، فجعل يهيم في البرية مع السباع والوحش ، لا يجد أحدا من الناس يمسه ، حتى صار كالقائل : لا مساس ؛ لبعده عن الناس وبعد الناس عنه.

٧ ـ قال القرطبي : هذه الآية أصل في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وألا يخالطوا ، وقد فعل النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ذلك بكعب بن مالك وصاحبيه الذين خلفوا.

ومن التجأ إلى الحرم وعليه قتل لا يقتل عند بعض الفقهاء ، ولكن لا يعامل ولا يبايع ولا يشارى ، ليضطر إلى الخروج. ومن هذا القبيل : التغريب في حد الزنى.

٨ ـ وهناك عقاب آخر للسامري يوم القيامة ، وموعد لعذابه لا بد من مجيئه ، والصيرورة إليه ، ولا خلف فيه.

٩ ـ حرق موسى عليه‌السلام بالنار العجل الذي اتخذه السامري. ثم ألقى

رماده في البحر ، وهذا هو الواجب المتعين في استئصال المنكر وتصفية جميع آثاره.

١٠ ـ طوى موسى عليه السلام من تاريخ بني إسرائيل واقعة عبادة العجل التي طرأت في فترة زمنية قصيرة الأمد ، وقرر إلى الأبد مبدأ التوحيد ، وأوجب عبادة الله الذي لا إله إلا هو ، العليم بكل شيء ، وسع كل شيء علمه ، الخبير بأحوال المخلوقات الظاهرة والباطنة ، وهذه هي صفات الإله الحق المستحق للعبادة دون سواه.

١١ ـ لم يكن أخذ موسى برأس أخيه وبلحيته معصية قادحة بعصمة الأنبياء عليهم السلام ، كما زعم بعض الطاغين ، وإنما كان هذا تعبيرا قويا عن إنكاره ، وغضبا لله لا لنفسه ، وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يغضب لنفسه ، وإنما يغضب إذا انتهكت محارم الله. والغضب في هذا الموضع محمود غير مذموم ، ولا يستنكر ولا يستغرب ظهور أمارات الغضب على النفس ، وقد أجرى موسى عليه السلام أخاه هارون مجرى نفسه ؛ لأنه كان أخاه وشريكه ، فصنع به ما يصنع الرجل بنفسه في حال الفكر والغضب ، فإن الغضبان المتفكر قد يعض على شفتيه ، ويفتل أصابعه ، ويقبض لحيته (١).

والدليل على ذلك أن هارون عليه السلام عذر أخاه موسى عليه السلام فيما فعل ، وكل ما في الأمر أنه استمهله وهدأ أعصابه ، ليبين له وجهة نظره ، ووجه اجتهاده.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٢ / ١٠٨.

العبرة من القصص القرآني وجزاء المعرض عن القرآن

﴿كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً (١٠٠) خالِدِينَ فِيهِ وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (١٠٢) يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً (١٠٤)﴾

الإعراب :

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ، فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً ، خالِدِينَ فِيهِ﴾ أفرد ضمير ﴿أَعْرَضَ﴾ حملا على لفظ ﴿مَنْ﴾ ، وجمع الضمير في قوله ﴿خالِدِينَ﴾ حملا على معناه. و ﴿خالِدِينَ﴾ حال من ضمير ﴿يَحْمِلُ﴾.

﴿وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً﴾ تمييز مفسر للضمير في ﴿ساءَ﴾ ، والمخصوص بالذم محذوف تقديره : وزرهم.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ يَوْمَ﴾ : بدل من يوم القيامة السابق.

البلاغة :

﴿كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ تشبيه مرسل مجمل.

﴿وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً﴾ استعارة تصريحية ، شبه الوزر بالحمل الثقيل ، مصرحا بلفظ المشبه به.

المفردات اللغوية :

﴿كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ﴾ أي مثل ذلك الاقتصاص. اقتصاص موسى والسامري. نقص عليك يا محمد من أخبار الأمم الماضية. ﴿وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾ وقد أعطيناك من عندنا قرآنا ، فالذكر : القرآن ، كما قال تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ وسمي بذلك ؛ لأن فيه ذكر كل ما يحتاج إليه الناس في الدين والدنيا ، والقصص والأخبار ، والتنكير فيه للتعظيم.

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ عن الذكر الذي هو القرآن الجامع لأسباب السعادة والنجاة ، فلم يؤمن به. ﴿وِزْراً﴾ حملا ثقيلا من الإثم ، والمراد به : العقوبة الشديدة التي تثقل صاحبها. ﴿خالِدِينَ فِيهِ﴾ في عذاب الوزر. ﴿وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً﴾ أي ساء أو بئس وزرهم ، واللام للبيان ، كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يوم ينفخ في القرن النفخة الثانية. ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ﴾ نجمع الكافرين. ﴿زُرْقاً﴾ أي زرق الأبدان والعيون ، مع سواد وجوههم ، لاشتماله على الشدائد والأهوال. ﴿يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يتسارون ويخفضون أصواتهم ، لشدة الرعب والهول. ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً﴾ أي ما لبثتم في الدنيا إلا عشرا من الليالي بأيامها ، يستقصرون مدة لبثهم فيها لزوالها.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ﴾ في ذلك أي في مدة لبثهم. ﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أعدلهم رأيا أو عملا. ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً﴾ أي يستقلون لبثهم في الدنيا جدا ، لما يشاهدونه من أهوال الآخرة. وحكاية اختلافهم في مدة اللبث : ﴿عَشْراً﴾ أو ﴿يَوْماً﴾ أو (ساعة) ليس على سبيل الحقيقة أو الشك في التعيين ، بل المراد تقرير سرعة زواله.

المناسبة :

بعد بيان قصص موسى والسامري ، أبان الله تعالى لنبيه إيناسا له أن إعلامك بأخبار الأمم الماضية وأحوالهم كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة ، هو زيادة في معجزاتك ، وحث على الاعتبار والاتعاظ من قبل المكلفين في الدين.

وناسب بعده أن يذكر جزاء المعرضين عن أحكام القرآن ، ذلك الجزاء الرهيب الذي تشيب منه الولدان.

التفسير والبيان :

﴿كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ﴾ أي كما قصصنا عليك أيها الرسول خبر موسى مع فرعون وجنوده وخبره مع بني إسرائيل في الحقيقة والواقع ، كذلك نقص عليك أخبار الحوادث التي جرت مع الأمم الماضية ، كما وقعت من

غير زيادة ولا نقص ، لتكون سلوة لك عما تكره ، وبيانا لسيرة الأنبياء السابقين في مكابدتهم الشدائد مع أقوامهم لتتأس بهم ، ودلالة على صدقك ونبوتك ، مما يجعل في القصص عبرة وعظة ، ودرسا وفائدة.

﴿وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾ أي هذا .. وقد أعطيناك من عندنا ذكرا ، وهو القرآن العظيم ، للتذكر به على الدوام ؛ لأنه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، ولأنه لم يعط نبي من الأنبياء قبلك مثله ، ولا أكمل منه ولا أجمع لخبر ما سبق ، وخبر ما هو كائن ، وفيه حكم الفصل بين الناس ، وكل ما هو صلاح للبشر في الدين والدنيا والآخرة ، وجميع مكارم الأخلاق ، ومناهج الحياة الفاضلة.

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً﴾ أي كل من كذب به ، وأعرض عن اتباعه ، فلم يؤمن به ، ولا عمل بما فيه ، وابتغى الهدى في غيره ، يحمل إثما عظيما ، وعقوبة ثقيلة يوم القيامة بسبب إعراضه ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ ، فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود ١١ / ١٧].

وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم ، كما قال تعالى في بيان مهمة رسوله : ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام ٦ / ١٩] ، فكل من بلغه القرآن فهو نذير له ، وداع للإيمان به ، فمن اتبعه هدي ، ومن خالفه وأعرض عنه ، ضل وشقي في الدنيا ، والنار موعده يوم القيامة.

﴿خالِدِينَ فِيهِ ، وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً﴾ أي ماكثين مقيمين على الدوام في جزائه ووزره ، وهو النار ، لا محيد لهم عنه ولا انفكاك ، وبئس الحمل حملهم الذي حملوه من الأوزار ، جزاء إعراضهم.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ أي إن يوم القيامة هو اليوم الذي ينفخ فيه في الصور النفخة الثانية ، نفخة البعث التي يحشر الناس

بعدها للحساب ، وفي هذا اليوم بالذات يحشر المجرمون أيضا وهم المشركون والعصاة المأخوذون بذنوبهم التي لم يغفرها الله لهم ، زرق العيون والوجوه من شدة ما هم فيه من الأهوال ، والغيظ والندامة.

﴿يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ ، إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً﴾ أي يتسارون بينهم ، فيقول بعضهم لبعض سرا : ما لبثتم في الدنيا إلا قليلا بمقدار عشرة أيام أو نحوها أو عشر ليال ، يستقصرون مدة مقامهم في الدنيا أو في القبور ، بمقارنتها بأيام الآخرة الطويلة الأمد وبأعمار الآخرة.

وإنما خص العشرة واليوم الواحد بالذكر ؛ لأن القليل في أمثال هذه المواضع لا يعبر عنه إلا بالعشرة والواحد.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ ، إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً : إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً﴾ أي نحن أعلم بما يتناجون وبما يقولون في مدة لبثهم ، حين يقول أعدلهم قولا ، وأكملهم رأيا وعقلا ، وأعلمهم عند نفسه : ما لبثتم إلا يوما واحدا ؛ لأن دار الدنيا كلها ، وإن طالت في أنظار الناس ، كأنها يوم واحد ، وغرضهم من ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة ، كما قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ، يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ﴾ [الروم ٣٠ / ٥٥] وقال سبحانه : ﴿قالَ : كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ، قالُوا : لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، فَسْئَلِ الْعادِّينَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ١١٢ ـ ١١٣].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن في قصص القرآن من أخبار الأمم وأحوالهم عبرة وعظة ، يستعبر بها أو يتعظ العقلاء المكلفون ، وسلوة للنبي ، ودليلا على صدقه ، وزيادة في معجزاته.

٢ ـ والقرآن العظيم كله تذكير ومواعظ للأمم والشعوب والأفراد ، وشرف وفخر للإنسانية وللعرب خاصة ، ونعمة عظمي لكل إنسان.

٣ ـ وكما أن القرآن نعمة ، ففيه أيضا وعيد شديد لمن أعرض عنه ، ولم يؤمن به ، ولم يعمل بما فيه ، فهو ـ أي المعرض ـ يتحمل الإثم العظيم والحمل الثقيل يوم القيامة ، حيث يقيم في جزائه ، وجزاؤه جهنم ، وبئس الحمل الذي حملوه يوم القيامة.

والوزر : هو العقوبة الثقيلة ، سميت وزرا ، تشبيها في ثقلها على المعاقب بثقل حمل الحامل ، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم.

وصفة ذلك الوزر كما تبين شيئان : أحدهما ـ أنه مخلد مؤبد ، وثانيهما ـ أنه ما أسوأ هذا الوزر حملا ، أي محمولا.

٤ ـ إن يوم القيامة هو اليوم الذي ينفخ في الصور النفخة الثانية للبعث والحشر والحساب. والصور : قرن ينفخ فيه يدعى به الناس إلى الحشر.

٥ ـ يكون النفخ في الصور سببا لحشر المجرمين ، أي المشركين ، زرق العيون والأبدان من شدة العطش وشدة الأهوال التي يكابدونها.

٦ ـ يتسار المجرمون يوم القيامة قائلين : ما لبثتم في الدنيا إلا عشر ليال ، يستقصرون مدة مقامهم في الدنيا لشدة ما يرون من أهوال يوم القيامة ، ويخيل إلى أمثلهم أي أعدلهم قولا ، وأعقلهم وأعلمهم عند نفسه : أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا يوما واحدا أي مثل يوم أو أقل.

أحوال الأرض والجبال والناس يوم القيامة

﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً (١٠٥) فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً (١٠٦) لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً (١١٢)﴾

البلاغة :

﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ كناية عن أمر الدنيا والآخرة.

﴿عِلْماً ظُلْماً هَضْماً﴾ سجع مؤثر غير متكلف.

المفردات اللغوية :

﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ﴾ عن حال أمرها وكيف تكون يوم القيامة ، وقد سأل عنها رجل من ثقيف. ﴿فَقُلْ﴾ لهم. ﴿يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً﴾ يفتتها ذرأت ويجعلها كالرمل السائل ، ثم يطيرها كالريح. ﴿فَيَذَرُها﴾ فيتركها ويذر مقارها أو يذر الأرض. ﴿قاعاً﴾ أرضا منبسطة لا بناء ولا نبات. ﴿صَفْصَفاً﴾ أرضا ملساء مستوية. ﴿عِوَجاً﴾ انخفاضا. ﴿وَلا أَمْتاً﴾ ارتفاعا.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم نسف الجبال ، على إضافة اليوم إلى وقت النسف ، ويجوز أن يكون بدلا ثانيا من يوم القيامة. ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ يتبع الناس بعد القيام من القبور. ﴿الدَّاعِيَ﴾ داعي الله إلى المحشر ، بصوته ، وهو إسرافيل يقول : هلموا إلى عرض الرحمن. ﴿لا عِوَجَ لَهُ﴾ لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه ، أي لا يقدر ألا يتبع ، أو لا عوج لدعائه ، فلا يميل إلى ناس دون ناس.

﴿وَخَشَعَتِ﴾ سكنت وذلت. ﴿إِلَّا هَمْساً﴾ الهمس: الصوت الخفي، أو صوت وطء الأقدام في نقلها إلى المحشر.

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ﴾ الاستثناء من الشفاعة، أي إلا شفاعة من أذن له، فمن: مرفوع على البدلية بتقدير حذف المضاف إليه، أي لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن، وهذا هو المتبادر إلى الذهن، أو أن الاستثناء من أعم المفاعيل، أي إلا من أذن في أن يشفع له، فإن الشفاعة تنفعه، فتكون ﴿مَنْ﴾: منصوبا على المفعولية، ورجح الرازي الاحتمال الثاني، أي لا تنفع الشفاعة أحدا إلا شخصا مرضيا. ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ أي ورضي لمكانه عند الله قوله في الشفاعة، أو رضي لأجله قول الشافع في شأنه. والخلاصة: أن الإذن إما أن يكون للشافع دون تعيين، وإما أن يكون للشافع من أجل المشفوع له، ورضي قوله لأجله، أي رضي للمشفوع له قولا.

﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ يعلم كل أمر من أمور الآخرة والدنيا، أو يعلم كل شؤون عباده في الدنيا والآخرة. فالمراد من قوله: ﴿وَما خَلْفَهُمْ﴾ إما أمور الدنيا على رأي، وإما أمور الآخرة وما يستقبلونه، على رأي الأكثرين. ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ أي لا يحيط علمهم بمعلوماته.

﴿وَعَنَتِ﴾ خضعت وانقادت، ومنه العاني: الأسير. ﴿الْقَيُّومِ﴾ القائم بتدبير عباده ومجازاتهم. ﴿خابَ﴾ خسر. ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ شركا. ﴿الصَّالِحاتِ﴾ الطاعات. ﴿فَلا يَخافُ ظُلْماً﴾ منع الثواب عن المستحق بالوعد. ﴿وَلا هَضْماً﴾ ولا نقصا من حسناته.

سبب النزول:

نزول الآية (١٠٥):

﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ﴾: أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: قالت قريش: يا محمد، كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة؟ فنزلت: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى أهوال يوم القيامة، حكى سؤال من لم يؤمن بالحشر عن مصير الجبال، ثم ضم إليه بيان حالة الأرض حينئذ، وحالة الناس الذين

يسرعون إلى إجابة الداعي إلى المحشر مع خشوع وخضوع ، دون أن تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي للشافع قولا لمكانه عند الله ، أو رضي للمشفوع له قولا.

التفسير والبيان :

﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ : يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً﴾ أي ويسألك المشركون أيها الرسول عن حال الجبال يوم القيامة ، هل تبقى أو تزول؟ فقل : يزيلها الله ويذهبها عن أماكنها ، ويدكها دكا ، ويجعلها هباء منثورا.

﴿فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً ، لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً﴾ أي فيترك مواضعها بعد نسفها أرضا ملساء مستوية ، بلا نبات ولا بناء ، ولا انخفاض ولا ارتفاع ، فلا تجد مكانا منخفضا ولا مرتفعا ، ولا واديا ولا تلة أو رابية.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ﴾ أي حينئذ يتبع الناس داعي الله إلى المحشر ، مسارعين إلى الداعي ، حيثما أمروا بادروا إليه ، لا معدل لهم عن دعائه ، فلا يقدرون أن يميلوا عنه أو ينحرفوا منه ، بل يسرعون إليه ، كما قال تعالى : ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر ٥٤ / ٨].

﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾ أي سكتت الأصوات رهبة وخشية وإنصاتا لسماع قول الله تعالى ، فلا تسمع إلا همسا ، أي صوتا خفيا.

﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ ، إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ أي في ذلك اليوم لا تنفع شفاعة أحد إلا من أذن له الرحمن أن يشفع ، ورضي قوله في الشفاعة ؛ لأن الله تعالى هو المالك المتصرف في الخلق جميعا في الدنيا والآخرة. ونظير الآية قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾

[البقرة ٢ / ٢٥٥] ، وقوله سبحانه : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى﴾ [النجم ٥٣ / ٢٦] ، وقوله عزّوجلّ : ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٢٨] ، وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا ، لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً﴾ [النبأ ٧٨ / ٣٨].

وعلة تقييد الشفاعة بالإذن والرضا هي :

﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ ، وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ أي يعلم ما بين أيدي عباده من أمر القيامة وأحوالها ، وما خلفهم من أمور الدنيا ، وقيل بالعكس : يعلم ما بين أيديهم من أمر الدنيا والأعمال ، وما خلفهم من أمر الآخرة والثواب والعقاب ، والمراد أنه تعالى يحيط علما بالخلائق كلهم ، ولا تحيط علوم الخلائق بذاته ولا بصفاته ولا بمعلوماته.

ورجح الرازي معنى أن العباد لا يحيطون بما بين أيديهم وما خلفهم علما ؛ لأن الضمير يعود إلى أقرب المذكورات وهو ﴿ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ ولأنه تعالى أورد ذلك مورد الزجر ليعلم أن سائر ما يقدمون عليه وما يستحقون به المجازاة معلوم لله تعالى [(١)].

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ أي ذلت وخضعت واستسلمت جميع النفوس والخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت ، القيوم الذي لا ينام ، وهو قيم على كل شيء يدبره ويحفظه ، أي قائم بتدبير شؤون خلقه وتصريف أمورهم ، وقد خسر من حمل شيئا من الظلم والشرك. وخص الوجوه بالذكر ؛ لأن الخضوع بها يبين وفيها يظهر. جاء في الحديث الصحيح : «إياكم

---

(١) تفسير الرازي : ٢٢ / ١١٩

والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، والخيبة كل الخيبة من لقي الله ، وهو به مشرك ، فإن الله تعالى يقول : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان ٣١ / ١٣]».

وبعد ذكر الظالمين ووعيدهم ثنى بالمتقين وحكمهم ، فقال : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً﴾ أي ومن يعمل الأعمال الصالحة (أي الفرائض) مقرونا عمله بالإيمان بربه ورسله وكتبه واليوم الآخر ، فلا يظلم ولا يهضم حقه ، أي لا يزاد في سيئاته بأن يعاقب بغير ذنب ، ولا ينقص من ثواب حسناته.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ تتبدد الجبال يوم القيامة بأمر الله تعالى ، فتقلع قلعا من أصولها ، ثم تصير كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا ، ويذر مواضعها أرضا ملساء بلا نبات ولا بناء ، لا ترى في الأرض يومئذ واديا ولا رابية ولا مكانا منخفضا ولا مرتفعا ، وعليه فإنه تعالى وصف الأرض بصفات ثلاث : كونها قاعا أي مستوية ملساء ، وصفصفا أي لا نبات عليها ، ولا عوج فيها ولا أمتا ، أي لا منخفض ولا مرتفع.

٢ ـ يسير الناس يوم القيامة وراء قائد المحشر ، ويتبعون إسرافيل عليه‌السلام إذا نفخ في الصور ، لا معدل لهم عن دعائه ، لا يزيغون ولا ينحرفون ، بل يسرعون إليه ولا يحيدون عنه.

وتذل الأصوات وتسكن من أجل الرحمن ، فلا تسمع إلا صوتا خفيا ، أو حسا خفيا.

٣ ـ لا تنفع الشفاعة أحدا إلا شفاعة من أذن له الرحمن ، ورضي قوله في الشفاعة.

٤ ـ يعلم الله جميع أمور الخلائق وما يتعرضون له من أمر الساعة (القيامة) ومن أمر الدنيا ، ولا أحد يحيط علما بذات الله وصفاته ومعلوماته.

والخلاصة : وصف الله تعالى يوم القيامة بست صفات هي :

نسف الجبال نسفا تاما ، واتباع الناس داعي الله إلى المحشر وهو إسرافيل الذي ينفخ في الصور ، وخشوع الأصوات من شدة الفزع وخضوعها فلا تسمع إلا الصوت الخفي ، وعدم قبول الشفاعة من الملائكة والأنبياء وغيرهم عند الله إلا شفاعة من أذن له الرحمن ورضي قوله في الشفاعة ، وإحاطة علم الله بجميع أحوال الخلائق وأمورهم في الدنيا والآخرة ، فيعلم تعالى ما بين أيدي العباد وما خلفهم ، ولا يحيطون بالله علما ، وتذل الوجوه أي النفوس ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره.

عربية القرآن ووعيده وعدم التعجل بقراءته قبل إتمام الوحي

﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (١١٣) فَتَعالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (١١٤)﴾

المفردات اللغوية :

﴿وَكَذلِكَ﴾ معطوف على ﴿كَذلِكَ نَقُصُ﴾ أي مثل إنزال ما ذكر ، أو مثل إنزال هذه الآيات المتضمنة للوعيد. ﴿أَنْزَلْناهُ﴾ أي القرآن. ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ كله على هذه الوتيرة. ﴿وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ كررنا وفصلنا فيه آيات الوعيد ويشمل بيان الفرائض والمحارم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي ومنها الشرك ، فتصير التقوى لهم ملكة. والتقوى : اتقاء المحارم وترك الواجبات. ﴿أَوْ يُحْدِثُ﴾ القرآن ﴿لَهُمْ ذِكْراً﴾ عظة وعبرة حين يسمعونها ، فيثبطهم عنها ، ولهذا أسند التقوى إليهم ، والإحداث إلى القرآن.

﴿فَتَعالَى اللهُ﴾ تعاظم وتنزه وتقدس في ذاته وصفاته عن مماثلة المخلوقين ، فلا يماثل كلامه كلامهم ، كما لا يماثل ذاته ذاتهم. ﴿الْمَلِكُ﴾ النافذ أمره ونهيه. ﴿الْحَقُ﴾ الثابت في ذاته وصفاته.

﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ أي لا تستعجل في قراءة القرآن حتى يتم وحيه. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي حتى يفرغ جبريل من إبلاغه لك. ﴿وَقُلْ : رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ أي سل الله زيادة العلم بدل الاستعجال ، فإن ما أوحى إليك يثبت في قلبك لا محالة.

سبب النزول :

نزول الآية (١١٤):

﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالقرآن ، أتعب نفسه في حفظه ، حتى يشق على نفسه ، فيخاف أن يصعد جبريل ، ولم يحفظه ، فأنزل الله : ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ الآية. وثبت في الصحيح عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة ، فكان مما يحرك به لسانه ، فأنزل الله هذه الآية. يعني أنه ﷺ كان إذا جاءه جبريل بالوحي ، كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن ، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه.

المناسبة :

كما أنزل الله آيات الوعيد من أهوال يوم القيامة ، أنزل القرآن كله بلغة عربية مبينة ، ليفهمه العرب ، ثم أبان تعالى نفع هذا القرآن للناس بالتحصن بالتقوى والاتعاظ والاعتبار بهلاك الأمم المتقدمة ، وأنه سبحانه متصف بصفات الكمال ومنزه عن صفات النقصان ، وأنه ضامن غرس القرآن في صدر نبيه ، وصونه عن النسيان والسهو.

التفسير والبيان :

﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ أي ومثل ذلك الإنزال لآيات الوعد

والوعيد وأحوال يوم القيامة ، أنزلنا القرآن كله بلغة العرب ليفهموه ، فهو بلسان عربي مبين فصيح ، لا ليس فيه ولا عي.

﴿وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ أي وبينا فيه أنواع الوعيد تخويفا وتهديدا ، كي يخافوا الله ، فيتجنبوا معاصيه ، ويحذروا عقابه ، أو يحدث لهم في قلوبهم عبرة وعظة يعتبرون بها ويتعظون ، ويقبلون على فعل الطاعات.

وبعد تعظيم القرآن عظم تعالى نفسه ، فقال :

﴿فَتَعالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي تقدس وتنزه الله الملك المتصرف بالأمر والنهي ، الثابت الذي لا يزول ولا يتغير عن إلحاد الملحدين ، وعما يقول المشركون ، فإنه الملك حقا الذي بيده الثواب والعقاب ، وحقه وعدله : ألا يعذب أحدا قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه ، لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة.

﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي ولا تتعجل أو تبادر إلى قراءة القرآن قبل أن يفرغ جبريل من الوحي ، حرصا منه على ما كان ينزل عليه منه ، بل أنصت ، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده. ومثله قوله تبارك وتعالى في سورة القيامة : ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ﴾ [١٦ ـ ١٩] أي أن نجمعه في صدرك ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئا.

﴿وَقُلْ : رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ أي سل ربك زيادة العلم ، روى الترمذي وابن ماجه والبزار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول : «اللهم انفعني بما علمتني ، وعلمني ما ينفعني ، وزدني علما ، والحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار».

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يلي :

١ ـ نزل القرآن بلغة العرب ، فهو فخر وشرف لهم إلى الأبد ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٤٤].

٢ ـ اشتمل القرآن على ما فيه كفاية لجميع مستويات البشر ، الأخيار والأشرار ، من التخويف والتهديد ، والثواب والعقاب ، والعبرة والعظة ، حتى يخاف الناس ربهم ، فيجتنبوا معاصيه ، ويحذروا عقابه.

٣ ـ عظم الله القرآن وعظم ذاته ، فلما عرف تعالى العباد عظيم نعمه ، وإنزال القرآن ، نزه نفسه عن الأولاد والأنداد ، جل الله عن ذلك ، فهو الملك المتصرف في الأكوان ، الحق ، أي ذو الحق ، وتقدس لأنه هو حق ثابت دائم لا يتغير ، ووعده حق ، ووعيده حق ، ورسله حق ، والجنة حق ، وكل شيء منه حق.

٤ ـ علم الله نبيه كيف يتلقى القرآن ، قال ابن عباس : كان ﷺ يبادر جبريل ، فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي ، حرصا على الحفظ ، وشفقة على القرآن مخافة النسيان ، فنهاه الله عن ذلك ، وأنزل : ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾. وهذا كقوله : ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة ٧٥ / ١٦].

٥ ـ أمر الله نبيه بأن يدعو بقوله : ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ أي فهما. قال الحسن البصري : نزلت في رجل لطم وجه امرأته ، فجاءت إلى النبي ﷺ تطلب القصاص ، فجعل النبي ﷺ لها القصاص ، فنزل ﴿الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ﴾ [النساء ٤ / ٣٤] ولهذا قال : ﴿وَقُلْ : رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ أي فهما ومعرفة ؛ لأنه ﷺ حكم بالقصاص وأبى الله ذلك ، لكن قال الرازي : وهذا

بعيد ، أما قوله تعالى : ﴿وَقُلْ : رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ فالمعنى أنه سبحانه وتعالى أمره بالفزع إلى الله سبحانه في زيادة العلم التي تظهر بتمام القرآن أو بيان ما نزل عليه.

وفي الآية : الترغيب في تحصيل العلم والترقي فيه إلى ما شاء الله ؛ لأن رتبة العلم أعلى الرتب ، وبحره واسع لا يحيط به إنسان.

قصة آدم في الجنة وإخراجه منها وإلزامه بالهداية الربانية

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (١١٥) وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى (١١٦) فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى (١٢٠) فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى (١٢١) ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى (١٢٢) قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى (١٢٤) قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢٥) قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى (١٢٦) وَكَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ

رَبِّهِ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى (١٢٧)﴾

الإعراب :

﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيها﴾ الجملة في موضع نصب ؛ لأنها اسم إن. ﴿وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها﴾ إما موضعها النصب بالعطف على ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾ أي : إن لك عدم الجوع وعدم الظمأ في الجنة ، وإما موضعها الرفع بالعطف على الموضع ، مثل : إن زيدا قائم ، وعمرو ، بالعطف على موضع إن. ومن كسر وإنك فعلى الابتداء والاستئناف ، مثل إن الأولى.

البلاغة :

﴿أَعْمى﴾ و ﴿بَصِيراً﴾ بينهما طباق.

﴿فَتَشْقى﴾ ، ﴿تَعْرى﴾ ، ﴿تَضْحى﴾ سجع حسن غير متكلف.

﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى﴾ فيه ما يسمى قطع النظير عن النظير ، ففصل بين الظمأ والجوع ، وبين الضحو والكسوة بقصد تحقيق تعداد هذه النعم ، ومراعاة فواصل الآيات.

المفردات اللغوية :

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ﴾ أي وصيناه وأمرناه ألا يأكل من هذه الشجرة ، يقال : عهد إليه : إذا أمره وأوصاه به ، ولام ﴿وَلَقَدْ﴾ جواب قسم محذوف ، وإنما عطف قصة آدم على قوله: ﴿وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ للدلالة على أن أساس بني آدم على العصيان ، وأنهم متأصلون في النسيان. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل هذا الزمان وقبل أكله من الشجرة وقبل وجود هؤلاء المخالفين. ﴿فَنَسِيَ﴾ العهد وتركه ولم يعن به حتى غفل عنه. ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ ولم نعلم له تصميما على الذنب ؛ لأنه أخطأ ولم يتعمده. ونجد من الوجود بمعنى العلم ، له مفعولان ، والعزم : التصميم على الشيء والثبات عليه.

﴿وَإِذْ قُلْنا﴾ أي اذكر حاله في مثل ذلك الوقت ، ليتبين لك أنه نسي ولم يكن من أولي العزيمة والثبات. ﴿إِبْلِيسَ﴾ هو أبو الجن ، كان يصحب الملائكة ، ويعبد الله معهم. ﴿أَبى﴾ امتنع عن السجود لآدم ، قائلا : أنا خير منه ، وهي جملة مستأنفة لبيان ما منعه من السجود ، وهو الاستكبار.

﴿فَتَشْقى﴾ تتعب بمتاعب الدنيا الكثيرة. واقتصر على نسبة الشقاء لآدم ؛ لأن الرجل هو المسؤول عن كفاية زوجته ، وهو الذي يسعى. ﴿تَظْمَؤُا﴾ تعطش. ﴿تَضْحى﴾ تصيبك الشمس ، يقال : ضحا وضحي : إذا أصابته الشمس بحرها ، والمراد : لا يحصل لك شمس الضحى لانتفاء الشمس في الجنة. والمقصود من الآية : ﴿أَلَّا تَجُوعَ ..﴾ بيان وتذكير لما في الجنة من أسباب الكفاية ، وأساسيات الكفاية هي الشبع والري والكسوة والسكنى.

﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أي التي يخلد من يأكل منها ، فلا يموت أصلا. ﴿لا يَبْلى﴾ لا يفنى ولا يضعف ، وهو لازم الخلد. ﴿فَأَكَلا مِنْها﴾ أي آدم وحواء. ﴿فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما﴾ ظهرت لهما عوراتهما من القبل والدبر ، وسمي كل منهما سوأة لأن انكشافه يسوء صاحبه. ﴿وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أي شرعا وأخذا يلزقان ورق التين على سوآتهما ليستترا به. ﴿وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ﴾ بالأكل من الشجرة. ﴿فَغَوى﴾ فضل عن الرشد حيث اغتر بقول عدوه. ﴿ثُمَّ اجْتَباهُ﴾ اصطفاه وقربه إليه بالتوفيق للتوبة. ﴿فَتابَ عَلَيْهِ﴾ فقبل توبته لما تاب. ﴿وَهَدى﴾ إلى الثبات على التوبة والأخذ بأسباب العصمة.

﴿اهْبِطا مِنْها﴾ أي آدم وحواء من الجنة. ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي بعض الذرية عدو للبعض الآخر بالظلم والتحارب والتنافس الشديد على أمر المعاش. ﴿فَإِمَّا﴾ فيه إدغام نون (إن) الشرطية في (ما) المزيدة. ﴿هُدىً﴾ كتاب ورسول. ﴿هُدايَ﴾ هدى الوحي الإلهي. ﴿فَلا يَضِلُّ﴾ في الدنيا. ﴿وَلا يَشْقى﴾ في الآخرة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ الهداية بكتبي السماوية المذكرة بي والداعية إلى عبادتي. وأعرض : أي امتنع فلم يؤمن بالذكر. ﴿ضَنْكاً﴾ مصدر وهو الضيق الشديد ، والمعنى هنا : ضيقة. ﴿وَنَحْشُرُهُ﴾ أي المعرض عن الذكر الإلهي ومنه القرآن. ﴿أَعْمى﴾ أي أعمى البصر أو القلب فلم ينظر في البراهين الإلهية ، ويؤيد الأول : ﴿قالَ : رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً﴾ أي في الدنيا وعند البعث. ﴿قالَ﴾ أي الأمر ﴿كَذلِكَ﴾ مثل ذلك فعلت ، ثم فسره بقوله : ﴿أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها﴾ تركتها ولم تؤمن بها. ﴿وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى﴾ أي ومثل تركك إياها ـ أي الآيات ـ تترك اليوم في العمى والعذاب. والآيات : الأدلة والبراهين الإلهية.

﴿وَكَذلِكَ﴾ أي ومثل جزائنا من أعرض عن الذكر. ﴿نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ نعاقب من أشرك وأسرف في الانهماك في الشهوات ، والإعراض عن الآيات. ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ﴾ بل كذبها وخالفها. ﴿أَشَدُّ﴾ من عذاب الدنيا وعذاب القبر وضنك العيش والعمى. ﴿وَأَبْقى﴾ أدوم. وذلك كقوله تعالى : ﴿لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ، وَما لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ﴾ [الرعد ١٣ / ٣٤].

المناسبة :

هذه هي المرة السادسة لذكر قصة آدم في القرآن ، بعد البقرة ، والأعراف ، والحجر ، والإسراء ، والكهف.

ومناسبة هذه الآيات لما قبلها أنه بعد أن عظم أمر القرآن ، وأبان ما فيه من الوعيد لتربية التقوى والعظة والعبرة ، أردفه بقصة آدم ، للدلالة على أن طاعة بني آدم للشيطان أمر قديم ، وأنهم ينسون الأوامر الإلهية ، كما نسي أبوهم آدم. ثم ذكر إباء إبليس السجود لآدم للتحذير من هذا العدو الذي أخرج بوساوسه آدم من الجنة ، ثم بين جزاء المطيع للهدي الإلهي ، وجزاءِ المعرض عنه ، وأنه سيحشر أعمى عن الحجة التي تنقذه من العذاب ، بسبب إعراضه في الدنيا عن الآيات البينات التي تهديه إلى سبيل الرشاد.

التفسير والبيان :

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ ، فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ أي وو الله لقد وصينا آدم بألا يأكل من الشجرة ، فنسي ما عهد الله به إليه ، وترك العمل بمقتضى العهد ، فأكل من تلك الشجرة ، ولم يكن عنده قبل ذلك عزم وتصميم على ذلك ؛ إذ كان قد صمم على ترك الأكل ، ثم فتر عزمه ، عند ما وسوس إليه إبليس بالأكل ، فلم يصبر عن أكل الشجرة.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إنما سمي الإنسان ؛ لأنه عهد إليه ، فنسي. والمراد بالعهد : أمر من الله تعالى أو نهي منه ، والمراد هنا : عهدنا إليه ألا يأكل من الشجرة ولا يقربها. والآية دليل على أن النسيان وعدم العزم هما سبب العصيان ، وأن التذكر وقوة العزم هما سبب الخير والرشد.

ثم ذكر الله تعالى خلق آدم وتكريمه وتشريفه ، فقال :

﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى﴾ أي واذكر أيها النبي لقومك حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تشريف وتكريم وتفضيل على كثير من خلق الله ، فسجدوا إلا إبليس امتنع واستكبر ورفض المشاركة في السجود ؛ لأنه كان حسودا ، فلما رأى آثار نعم الله تعالى في حق آدم عليه السلام حسده ، فصار عدوا له ، كما قال تعالى :

﴿فَقُلْنا : يا آدَمُ ، إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ، فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ ، فَتَشْقى﴾ أي فقلنا له عقب إبائه السجود : يا آدم ، إن إبليس عدو لك ولزوجك ، فلم يسجد لك وعصاني ، فلا تطيعاه ، ولا يكونن سببا لإخراجكما من الجنة ، فتتعب في حياتك الدنيا في الأرض في تحصيل وسائل المعاش كالحرث والزرع ، فإنك هاهنا في عيش رغيد هنيء ، بلا كلفة ولا مشقة ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى ، وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى﴾ أي إن لك في الجنة تمتعا بأنواع المعايش ، وتنعما بأصناف النعم من المآكل الشهية والملابس البهية ، فلا تجوع ولا تعرى ، ولا تعطش في الجنة ، ولا يؤذيك الحرّ ، كما يكون لسكان الأرض ، فإن أصول المتاعب في الدنيا : هي تحصيل الشبع (ضد الجوع) والكسوة (ضد العري) والريّ (ضد الظمأ) والسكن (ضد العيش في العراء أو تحت حرّ الشمس).

ويلاحظ أن نعم الجنة كما جاء في الآية لا عناء فيها في هذه الأصول الأربعة ، فلا جوع فيها ولا عري ولا ظمأ ولا إصابة بحرّ الشمس. فأيهما يفضل العقلاء : ما فيه تعب وعناء أو ما ليس فيه تعب؟!

وبعد بيان مدى تكريم آدم وتعظيمه وتحذيره من عدوه ، أبان تعالى تورطه في وسوسة الشيطان ، فقال :

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ ، قالَ : يا آدَمُ ، هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ

﴿وَمُلْكٍ لا يَبْلى﴾ أي قال الشيطان لآدم بنوع من الخفية : ألا أرشدك إلى شجرة الخلد : وهي الشجرة التي من أكل منها لم يمت أصلا ، وإلى ملك دائم لا يزول ولا ينقضي. وكان ذلك كذبا من إبليس ليستدرجهما إلى معصية الله تعالى : ﴿وَقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النّاصِحِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٢١] ﴿فَدَلّاهُما بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف ٧ / ٢٢].

جاء في الحديث ذكر شجرة الخلد ، أخرج الإمام أحمد وأبو داود الطيالسي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ، ما يقطعها ، وهي شجرة الخلد».

﴿فَأَكَلا مِنْها ، فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما ، وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى﴾ أي فأكل آدم وحواء من الشجرة التي منعا من الأكل منها ، فانكشفت عورتهما وسقط عنهما لباسهما ، فشرعا يلصقان عليهما ويلزقان ورق التين ، فيجعلانه على سوآتهما ، وعصى آدم ربه أو خالف أمر ربه بالأكل من الشجرة المنهي عن الآكل منها ، فضلّ عن الصواب ، وفسد عليه عيشه.

ولا شك بأن مخالفة الأمر الواجب معصية ، وأن الجزاء حق وعدل بسبب المعصية ، لكنها معصية من نوع خاص بترتيب وتدبير وإرادة الله عزوجل ، وفي حال نسيان آدم عهد الله إليه بألا يأكل من الشجرة ، أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «حاجّ موسى آدم ، فقال له : أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم : يا موسى ، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومني على أمر كتبه الله عليّ ، قبل أن يخلقني ، أو قدره الله علي قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فحجّ آدم موسى».

لهذا تاب الله تعالى على آدم من معصيته ، فقال :

﴿ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ ، فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى﴾ أي ثم اصطفاه ربه وقرّبه إليه ، بعد أن تاب من المعصية واستغفر ربه منها ، وأنه قد ظلم نفسه ، فتاب الله عليه من معصيته ، وهداه إلى التوبة وإلى سواء السبيل ، كما قال تعالى : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ ، فَتابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة ٢ / ٣٧] وقال هو وزوجه : ﴿رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا ، لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٢٣].

﴿قالَ : اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي قال الله تعالى لآدم وحواء : انزلا من الجنة إلى الأرض معا ، بعضكم يا معشر البشر في الدنيا عدو لبعض في أمر المعاش ونحوه ، مما يؤدي ذلك إلى وقوع الخصام والنزاع والاقتتال.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً ، فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ ، فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى﴾ أي فإن يأتكم أيها البشر مني هدى بواسطة الأنبياء والرسل وإنزال الكتب ، فمن اتبع الهدى ، فلا يضل عن الصواب في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة. قال ابن عباس : «ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن ، وعمل بما فيه ، ألا يضلّ في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة ، وتلا الآية». وقال أيضا : «من قرأ القرآن ، واتّبع ما فيه ، هداه الله من الضلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب ، ثم تلا الآية».

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ، فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ أي ومن أدبر عن ديني وتلاوة كتابي والعمل بما فيه ، فإن له في هذه الدنيا عيشا ضيقا ، ومعيشة شديدة منغصة ، إما بشح المادة وإما بالقلق والهموم والأمراض.

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى﴾ أي ونحشره ونبعثه في الآخرة مسلوب البصر ، أو أعمى عن الجنة وطريق النجاة ، أو أعمى البصر والبصيرة ، كما قال

تعالى : ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا ، مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [الإسراء ١٧ / ٩٧].

﴿قالَ : رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً﴾؟ أي قال المعرض عن دين الله : يا ربّ ، لم حشرتني أعمى ، وقد كنت مبصرا في دار الدنيا؟

فأجابه الله تعالى :

﴿كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا ، فَنَسِيتَها ، وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى﴾ أي مثل ذلك فعلت أنت ، فكما تركت آياتنا وأعرضت عنها ولم تنظر فيها ، تترك في العمى والعذاب في النار ، ونعاملك معاملة المنسي ، كما قال تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا﴾ [الأعراف ٧ / ٥١] فإن الجزاء من جنس العمل.

قال ابن كثير : فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه ، فليس داخلا في هذا الوعيد الخاص ، وإن كان متوعدا عليه من جهة أخرى ، فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد والوعيد الشديد في ذلك. أخرج الإمام أحمد عن سعد بن عبادة رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : «ما من رجل قرأ القرآن ، فنسيه إلا لقي الله يوم يلقاه ، وهو أجذم» [١].

﴿وَكَذلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ ، وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى﴾ أي وهكذا نجازي ونعاقب المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ، ولعذاب الآخرة في النار أشد ألما من عذاب الدنيا ، وأدوم عليهم ، فهم مخلدون فيه. قال تعالى : ﴿لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ، وَما لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ﴾ [الرعد ١٣ / ٣٤].

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ١٦٩.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت قصة آدم عليه السلام على ما يلي :

١ ـ قد يرتكب الإنسان معصية مخالفا أمر الله في حال النسيان والسهو عن عهد الله بطاعته ، والنسيان مرفوع عنا الحرج والإثم فيه. قال ابن زيد : نسي آدم ما عهد الله إليه في ذلك اليوم ، ولو كان له عزم ما أطاع عدوه إبليس.

٢ ـ أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتشريف وتكريم ، لا سجود عبادة ، وأبى إبليس السجود مع الملائكة تكبرا واستعلاء وحسدا.

٣ ـ لا شك بأن الجنة ذات نعيم مطلق ، فلا تعب ولا عناء في الحصول على الملذات والرغبات ، ومن أهمها الشبع والكساء والري والسكن أو المأوى ، على عكس حال الدنيا التي ترتبط أصول المعايش هذه فيها بالجهد والمشقة.

٤ ـ كانت وسوسة الشيطان لآدم بالأكل من الشجرة سببا في المخالفة والإخراج من الجنة والهبوط إلى الأرض.

٥ ـ لا يجوز الحديث عن ذنوب الأنبياء إلا بالقدر المذكور في القرآن الكريم أو السنة النبوية الثابتة ، قال بعض العلماء من المالكية : إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم (أي بعض الأنبياء) ونسبها إليهم ، وعاتبهم عليها ، وأخبروا بذلك عن نفوسهم ، وتنصّلوا منها ، واستغفروا منها وتابوا ، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها ، وإن قبل ذلك آحادها ، وكل ذلك مما لا يزرى بمناصبهم ، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور ، وعلى جهة الخطأ والنسيان ، أو تأويل دعا إلى ذلك ، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات ، وفي حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم ، وعلو أقدارهم ؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس ، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة ، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة.

ولقد أحسن الجنيد حين قال : «حسنات الأبرار سيئات المقربين» فهم صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم ، وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم ، فلم يخل ذلك بمناصبهم ، ولا قدح في رتبتهم ، بل قد تلافاهم ، واجتباهم وهداهم ، ومدحهم وزكّاهم واختارهم واصطفاهم ، صلوات الله على نبينا وعليهم وسلامه (١).

٦ ـ أما من عمل الخطايا ولم تأته المغفرة ، فإن العلماء أجمعوا على أنه لا يجوز له أن يحتج بمثل حجة آدم ، فيقول : تلومني على أن قتلت أو زنيت أو سرقت ، وقد قدّر الله علي ذلك. والأمة مجمعة على جواز حمد المحسن على إحسانه ، ولوم المسيء على إساءته ، وتعديد ذنوبه عليه(٢).

٧ ـ لقد اجتبى الله تعالى آدم وهداه بعد العصيان ، فإن وقع هذا قبل النبوة فجائز عليهم الذنوب ؛ لأن قبل النبوة لا شرع علينا في تصديقهم ، وإذا بعثهم الله تعالى إلى خلقه ، لم يضر ما سلف منهم من الذنوب.

٨ ـ أمر الله تعالى آدم وزوجه حواء بالهبوط إلى دار الدنيا ، والدنيا دار تكليف وتنافس وتزاحم ومعاداة ، وسبيل التقويم والتميز : الالتزام بهداية الله ، فمن اهتدى بهداية الرسل والكتب الإلهية فقد رشد ، ولا يضل عن الصواب ، ولا يشقى في الآخرة.

ومن أعرض عن دين الله ، وتلاوة كتابه ، والعمل بما فيه ، كان له عيش ضيق مشحون بالعذاب النفسي والجسدي والعقلي ، ويحشر يوم القيامة أعمى البصر والبصيرة ، لا يدرك طريق النجاة ، ويزج به في عذاب جهنم.

---

(١) تفسير القرطبي : ١١ / ٢٥٥.

(٢) المصدر السابق : ١١ / ٢٥٧.

٩ ـ لا عذر للكافر يوم القيامة بعد أن أتته الآيات والدلائل على إثبات وحدانية الله وقدرته ووجوب العمل بشرعه ، فإذا ما تركها ولم ينظر فيها ، ترك في العذاب في جهنم.

وهكذا يعاقب كل من أعرض عن القرآن ، وعن النظر في مصنوعات الله ، والتفكر فيها ، وجاوز الحد في المعصية ، ولم يصدق بآيات ربه ، علما بأن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا حال الحياة أو في القبر ، وأدوم وأثبت ؛ لأنه لا ينقطع ولا ينقضي.

الاعتبار بهلاك الأمم الماضية والصبر على أذى المشركين وعدم الالتفات إلى متعهم وأمر الأهل بالصلاة

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (١٢٨) وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى (١٣٠) وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى (١٣٢)﴾

الإعراب :

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ فاعل ﴿يَهْدِ﴾ مقدر ، وهو المصدر ، أي : أفلم يهد لهم الهدى أو الأمر. و ﴿كَمْ﴾ في موضع نصب ب ﴿أَهْلَكْنا﴾ وهو مفعول مقدم ، أي كم قرية. و ﴿كَمْ﴾ خبرية. و ﴿يَمْشُونَ﴾ جملة حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾.

﴿وَأَجَلٌ﴾ معطوف بالرفع على ﴿كَلِمَةٌ﴾ أي : ولو لا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى ، لكان العذاب لزاما ، أي لازما لهم ، ففصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجواب لولا : وهو كان واسمها وخبرها.

﴿وَأَطْرافَ النَّهارِ﴾ معطوف على محل ﴿مِنْ آناءِ﴾.

﴿زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ منصوب لثلاثة أوجه : الأول ـ بتقدير فعل دل عليه ﴿مَتَّعْنا﴾ الذي هو بمنزلة جعلنا فكأنه قال : وجعلنا لهم زهرة الحياة الدنيا. والثاني ـ النصب على الحال ، وحذف التنوين لالتقاء الساكنين ، مثل ﴿قُلْ : هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص ١١٢ / ١ ـ ٢] و ﴿الْحَياةِ﴾ بدل من ﴿ما﴾ في قوله ﴿إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ﴾ أي : ولا تمدن عينيك إلى الحياة الدنيا زهرة ، أي في حال زهرتها. والثالث ـ النصب على البدل من هاء ﴿بِهِ﴾ على الموضع ، كما يقال : مررت به أباك.

البلاغة :

﴿زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ تشبيه تمثيلي ، شبه متاع الحياة الدنيا ونعيمها بالزهر الجميل الذي يذبل وييبس.

المفردات اللغوية :

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي أفلم يتبين لهم ـ لكفار مكة ـ العبر. ﴿كَمْ أَهْلَكْنا﴾ أي كثيرا إهلاكنا. ﴿الْقُرُونِ﴾ الأمم الماضية ، لتكذيب الرسل. ﴿يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ﴾ يسيرون فيها ، ويشاهدون آثار إهلاكهم أثناء سفرهم إلى الشام وغيرها ، فيعتبروا ﴿لَآياتٍ﴾ لعبرا. ﴿لِأُولِي النُّهى﴾ لذوي العقول.

﴿وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي هي العدة بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الآخرة. ﴿لَكانَ لِزاماً﴾ لكان الإهلاك لازما لهم في الدنيا ، لا يتأخر عنهم. ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ معطوف على ﴿كَلِمَةٌ﴾ أي ولولا الوعد بتأخير العذاب وأجل مسمى لأعمارهم أو لعذابهم ، وهو يوم القيامة ، أو يوم القتل في المعركة في الدنيا كبدر ، لكان العذاب لازما. ويجوز عطف ﴿وَأَجَلٌ﴾ على ضمير ﴿لَكانَ﴾ المستتر ، أي لكان الأخذ العاجل والأجل المسمى لازمين لهم.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ اشتغل بتنزيه الله وتعظيمه مقترنا بحمده ، أو : صلّ وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ صلاة الصبح. ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِها﴾ صلاة الظهر والعصر أو العصر وحده. ﴿وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ﴾ ساعاته ، جمع إنى وإنو. ﴿فَسَبِّحْ﴾ صل المغرب والعشاء. ﴿وَأَطْرافَ النَّهارِ﴾ أي صل الظهر ؛ لأن وقتها يدخل بزوال الشمس ، فهو طرف

النصف الأول وطرف النصف الثاني. ﴿لَعَلَّكَ تَرْضى﴾ متعلق بسبح ، أي سبّح في هذه الأوقات ، طمعا أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك.

﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تطيلن نظر عينيك رغبة واستحسانا إلى ما في أيدي الآخرين من متع الدنيا ، وتتمنى أن يكون لك مثله. ﴿أَزْواجاً﴾ أصنافا وأشكالا. ﴿زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ زينتها وبهجتها. ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبتليهم ونختبرهم فيه. ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي ما ادّخره لك في الآخرة ، أو ما رزقك من الهدى والنبوة. ﴿خَيْرٌ﴾ مما منحهم في الدنيا. ﴿وَأَبْقى﴾ أدوم لا ينقطع. ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ اصبر وداوم عليه. ﴿لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً﴾ لا نكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك. ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإياهم ، ففرغ بالك لأمر الآخرة. ﴿وَالْعاقِبَةُ﴾ المحمودة وهي الجنة. ﴿لِلتَّقْوى﴾ لأهل التقوى أو لذويها.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى حال من أعرض عن ذكر الله ، في الآخرة ، أتبعه بما هو عبرة للناس من أحوال المكذبين بالرسل في الدنيا ، كقوم عاد وثمود ، ثم أبان فضله تعالى بتأخير العذاب عن الكافرين والعصاة إلى الآخرة ، ثم أمر الله نبيه بالصبر على أذى المشركين ، وبمداومة الصلاة والتسبيح ليلا نهارا ، ونهاه عن تمني ما عند الكفار من متع الدنيا ، ثم أمره بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له من أمته بالصلاة ، روي أنه ﷺ كان إذا أصاب أهله ضر ، أمرهم بالصلاة ، وتلا هذه الآية.

التفسير والبيان :

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ، كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى﴾ أي أفلم يتبين لهؤلاء المكذبين أهل مكة بما جئتهم به يا محمد إهلاكنا كثيرا من الأمم الماضية المكذبين بالرسل قبلهم ، فبادوا ولم يبق لهم أثر ، كعاد وثمود وأصحاب الحجر وقرى قوم لوط الذين يتقلبون في ديارهم أو يمشون في مساكنهم ، ويشاهدون آثارهم المدمرة ، فإن في ذلك لعبرا وعظات

توجب الاعتبار لذوي العقول الصحيحة التي تنهى أصحابها عن القبيح ، وتدرك احتمال أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها ، فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ ، وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج ٢٢ / ٤٦] وقوله سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة ٣٢ / ٢٦].

ثم بيّن الله تعالى سبب تأخير العذاب عنهم ، فقال : ﴿وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً ، وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي ولولا الكلمة السابقة النافذة من الله في الأزل ، وهي وعد الله سبحانه بتأخير عذاب أمة النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى الدار الآخرة ، لكان عقاب ذنوبهم لازما لهم ، لا ينفك عنهم بحال ، ولا يتأخر ، ولولا الأجل المسمى عندنا لكان الأخذ العاجل.

لهذا قال الله لنبيه مسليا له وآمرا له بالصبر :

﴿فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها ، وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى﴾ أي فاصبر أيها الرسول على ما يقول هؤلاء المكذبون بآيات الله ، من أنك ساحر كذاب ، أو مجنون ، أو شاعر ، ونحو ذلك من أباطيلهم ومطاعنهم ، لا تأبه بهم ، فإن لعذابهم وقتا معينا لا يتقدم ، واشتغل بتنزيه ربك وحمده وشكره وأداء الصلوات الخمس المفروضة قبل طلوع الشمس ، أي صلاة الفجر ، وقبل غروبها ، أي صلاة العصر والظهر ، ومن ساعات الليل أي صلاة العشاء والمغرب والتهجد أواخر الليل ، وفي أطراف النهار ، أي صلاة الفجر والمغرب تأكيدا لهاتين الصلاتين الواقعتين في طرفي النهار ، كالتأكيد على (الصلاة الوسطى) وهي العصر ، سبّحه رجاء أن

تنال عند الله سبحانه ما ترضى به نفسك من الثواب ، كما قال تعالى : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾ [الضحى ٩٣ / ٥].

أخرج الإمام أحمد ومسلم عن عمارة بن رؤيبة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها».

وفي الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، فافعلوا ، وقرأ هذه الآية».

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله تعالى : يا أهل الجنة فيقولون : لبّيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم؟ فيقولون : ربّنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول : إني أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول : أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبدا».

دلت الآية على أن سبيل التغلب على تكذيب المكذبين الكافرين المعاندين هو الصبر لما فيه من قوة الإرادة ، ثم التسبيح والتحميد والصلاة والتكبير باعتبارها مقوية للروح والصلة بالله تعالى ، فنزول عن النفس والجسد المتاعب والآلام والهموم.

والاستعلاء بالروح يستتبع الانصراف عن متع الحياة الدنيا ، لذا قال تعالى : ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾ أي ولا تنظر أو لا تطل النظر إلى ما عند هؤلاء المترفين من النعيم ومتع الدنيا من زينة وبهجة من مال وبناء ورياش ومراكب ، فإنما هو زهرة زائلة ، ونعمة حائلة ، لنختبرهم بذلك ، ونتعرف على من يؤدي

واجب شكر النعمة ، واجعل همتك فيما عند الله ، فقد آتاك ربك خيرا مما آتاهم ، فقد ييسر لك رزقك في الدنيا ، وثواب الله وما ادخر لك في الآخرة خير مما رزقهم في الدنيا على كل حال ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ، لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ ، وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر ١٥ / ٨٧ ـ ٨٨] وليس المقصود بالآيتين التكاسل عن طلب الرزق ، ولكن النهي عن تمني مثل ما في يد الكفار والعصاة من حطام الدنيا ، والانشغال بها ، وترك العمل للآخرة ، بل إننا نعمل للآخرة والدنيا معا.

ثم أمره الله بأن يأمر أهله بالصلاة ، فقال :

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها ، لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً ، نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى﴾ أي وأمر أيها الرسول أهل بيتك واستنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة ، واصبر أنت على فعلها وحافظ عليها ، لا نطلب منك رزقا ترزق نفسك وأهلك ولا نكلفك الطلب ، بل تفرغ للعبادة والتقوى ، فنحن نرزقك ونرزقهم : ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات ٥١ / ٥٨] ، والعاقبة المحمودة ، وهي الجنة لأهل التقوى والطاعة.

فإذا أقمت الصلاة مع أهلك ، أتاك الرزق من حيث لا تحتسب ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق ٦٥ / ٢ ـ ٣]. وأمر النبي ﷺ وأهله بالصلاة أمر للأمة قاطبة.

أخرج مالك والبيهقي عن أسلم قال : كان عمر بن الخطاب يصلي من الليل ما شاء الله تعالى أن يصلي حتى إذا كان آخر الليل ، أيقظ أهله للصلاة ويقول لهم : الصلاة الصلاة ، ويتلو هذه الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني وأبو نعيم في الحلية عن

عبد الله بن سلام قال : كان النبي ﷺ إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق ، أمرهم بالصلاة وتلا : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ﴾.

وروى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تعالى : يا ابن آدم ، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسدّ فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ، ولم أسدّ فقرك».

وروى ابن ماجه عن ابن مسعود ، سمعت نبيكم ﷺ يقول : «من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد ، كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديته هلك».

وروى أيضا عن زيد بن ثابت ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من كانت الدنيا همه ، فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيته ، جمع له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة».

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ يعظ الله تعالى الكفار بأن يعتبروا بأحوال الأمم الماضية الذين أهلكهم لتكذيبهم الرسل ، فلربما حل بهم من العذاب مثلما حل بالكفار قبلهم.

٢ ـ لولا الحكم السابق من الله في الأزل بتأخير عذاب أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة ، لكان العذاب لازما في الحال لمن كفر وأعرض عن آيات الله تعالى.

٣ ـ الصبر علاج حاسم على أذى الكفار المناوئين دعوة الرسول ﷺ ، لذا أمر الله تعالى نبيه بالصبر على أقوالهم : إنه ساحر ، إنه كاهن ، إنه كذاب ، ونحو ذلك ، وألا يحفل بهم ؛ فإن لعذابهم وقتا محددا معينا لا يتقدم ولا يتأخر.

٤ ـ قوله تعالى : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ...﴾ يراد به في رأي الأكثرين الصلوات الخمس المفروضة ، فصلاة الصبح قبل طلوع الشمس ، وصلاة العصر قبل الغروب ، ومعها الظهر لأنها تجمع معها ، وصلاة العشاء في ساعات الليل ، وكذا صلاة المغرب. ويرى آخرون أن قوله تعالى : ﴿وَأَطْرافَ النَّهارِ﴾ إشارة إلى المغرب والظهر ؛ لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول ، وأول طرف النهار الآخر ، فهي في طرفين منه ، والطرف الثالث : غروب الشمس وهو وقت المغرب.

٥ ـ إن أداء الصلوات في أوقاتها من رضوان الله ، وسبب للثواب العظيم ، وقد جعل تعالى الثواب واسعا غير محدود على فعل الصلوات ، فقال مخاطبا نبيه ، وأمته مثله : ﴿لَعَلَّكَ تَرْضى﴾ أي لعلك تثاب على هذه الأعمال بما ترضى به.

٦ ـ إن همّ المؤمن أصالة هو العمل للآخرة ، وأما الدنيا فهي تبع لهذا المقصد الأصلي ، على عكس الحال بالنسبة للكفار ، فلا همّ لهم إلا الدنيا ، لذا نهى الله نبيه عن تمني مثل ما لدى الكفار من زهرة الحياة الدنيا من المال والمباني والأثاث والمراكب وغيرها ، فهذا ابتلاء واختبار لهم ، ليكون جحودهم ونكرانهم نعم الله سببا لعذابهم في الآخرة.

ويلاحظ التسلسل المنطقي في هذه الأحكام والآيات الدالة عليها ، فقد وبخ الله تعالى الكفار على ترك الاعتبار بالأمم السابقة ، ثم توعدهم بالعذاب المؤجل ، ثم أمر نبيه باحتقار شأنهم ، والصبر على أقوالهم ، والإعراض عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا ، إذ ذلك زائل عنهم ، صائر إلى خزي.

وختم ذلك بتسلية النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم بقوله تعالى : ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾ أي ثواب الله على الصبر وقلة المبالاة بالدنيا أولى ؛ لأنه يبقى والدنيا تفنى.

٧ ـ أمر الله نبيه بأن يأمر أهله بالصلاة وبالمحافظة عليها وملازمتها ،

ويدخل في عموم خطاب النبي ﷺ جميع أمته وأهل بيته على التخصيص. وكان ﷺ بعد نزول هذه الآية يذهب كل صباح إلى بيت فاطمة وعلي رضوان الله عليهما فيقول : «الصلاة». وكان عروة بن الزبير إذا رأى شيئا من أحوال السلاطين بادر إلى منزله فدخله ، وهو يقرأ : ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ..﴾ الآية ، ثم ينادي بالصلاة : الصلاة يرحمكم الله.

٨ ـ نهى الله تعالى نبيه أن يشتغل عن الصلاة بسبب الرزق ، بل تكفل له برزقه ورزق أهله ، فكان عليه الصلاة والسلام إذا نزل بأهله ضيق ، أمرهم بالصلاة ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ، ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ، وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ، إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات ٥١ / ٥٦ ـ ٥٨].

٩ ـ إن العاقبة الجميلة المحمودة وهي الجنة لأهل التقوى. وأما عاقبة غيرهم فهي مذمومة كالمعدومة.

اقتراح المشركين الإتيان بمعجزة أو إرسال رسول وتهديدهم بمآل المستقبل

﴿وَقالُوا لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى (١٣٥)﴾

الإعراب :

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ﴾ بغير تنوين مضاف إلى ﴿ما﴾. ومن قرأ بتنوين ، جعل ﴿ما﴾ في موضع نصب بدلا من ﴿بَيِّنَةٌ﴾.

﴿مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ مَنْ﴾ استفهامية مبتدأ ، و ﴿أَصْحابُ الصِّراطِ﴾ خبره. ولا يجوز أن تكون ﴿مَنْ﴾ اسما موصولا بمعنى الذي ؛ لأنه ليس في الكلام الذي بعدها عائد يعود إليه ، والجملة في موضع نصب ب ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾.

البلاغة :

﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وعيد وتهديد.

﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً﴾ جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

﴿وَقالُوا﴾ أي المشركون. ﴿لَوْ لا﴾ هلا. ﴿يَأْتِينا﴾ محمد ﴿بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ بمعجزة يقترحونها تدل على صدقه في ادعاء النبوة ، كناقة صالح ، وعصا موسى ، وإبراء عيسى الأكمه والأبرص ، فألزمهم بإتيانه بالقرآن الذي هو أم المعجزات وأعظمها وأتقنها ؛ لأن حقيقة المعجزة : اختصاص مدّعي النبوة بنوع من العلم أو العمل ، على وجه خارق للعادة ، ولا شك أن العلم أصل العمل وأعلى منه قدرا ، وأبقى أثرا ، والقرآن محقق لذلك.

ونبههم أيضا على وجه أبين من وجوه إعجاز القرآن : وهو الإخبار عن الأمم السابقة ، فقال : ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى﴾ من التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية ، فإن اشتماله على خلاصة ما فيها من العقائد والأحكام الكلية ، مع أن الآتي بها أمي ، لم يرها ولم يتعلم من علمائها ، إعجاز بين ؛ وفيه إشعار بأنه كما يدل على نبوته ، برهان لما تقدمه من الكتب ، من حيث إنه معجز ، وهي ليست كذلك ، بل هي مفتقرة إلى ما يشهد بصحتها.

فقوله : ﴿بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى﴾ أي بيان ما اشتملت عليه ، وأخبار الأمم الماضية التي أهلكت بتكذيب الرسل ، في القرآن.

﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ قبل محمد الرسول. ﴿لَقالُوا﴾ يوم القيامة. ﴿لَوْ لا﴾ هلا. ﴿آياتِكَ﴾ المرسل بها. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَ﴾ نهان في الدنيا بالقتل والسبي. أو في القيامة. ﴿وَنَخْزى﴾ نفتضح بدخول النار جهنم يوم القيامة.

﴿قُلْ : كُلٌّ﴾ قل لهم : كل واحد منا ومنكم. ﴿مُتَرَبِّصٌ﴾ منتظر ما يؤول إليه الأمر. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ في القيامة. ﴿الصِّراطِ السَّوِيِ﴾ الطريق المستقيم. ﴿وَمَنِ اهْتَدى﴾ من الضلالة ، أنحن أم أنتم؟!

المناسبة :

بعد أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله المشركون ، وأمره بأن يعدل إلى التسبيح والتحميد ، وأتبع ذلك بنهيه عن مدّ عينيه إلى ما متع به القوم ، ذكر هنا بعض أقاويلهم الباطلة ، ومنها ادعاؤهم أن القرآن ليس بحجة ولا معجزة تدل على نبوة محمد ﷺ ، ثم أوضح لهم أنهم يوم القيامة سيعترفون بأنه آية بيّنة ، وأنه لو أهلكناهم لطلبوا إرسال ، ثم هددهم وأوعدهم بما سيؤول إليه الأمر في المستقبل ، ويتميز المحق من المبطل.

التفسير والبيان :

كان المشركون يكثرون من اقتراح الآيات على النبي للتعجيز والعناد والمضايقة بسبب عدم إيمانهم ، وعدم الاكتفاء بالمعجزات التي يرونها ، فقال تعالى واصفا تعنتهم :

﴿وَقالُوا : لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ، أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى﴾ أي وقال الكفار المشركون : هلا يأتينا محمد بآية من ربه دالة على صدقه في أنه رسول الله ، كما كان يأتي بها من قبله من الأنبياء ، من الآيات التي اقترحناها عليه؟ مثل ناقة صالح وعصا موسى ، وإحياء عيسى الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، فأجابهم الله : ألم يأتهم القرآن المعجزة الباقية الخالدة ، وهو البينة والشاهد على صحة ما في الكتب المتقدمة ، كالتوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب المنزلة المشتملة على العقيدة والأحكام التشريعية ، وفيها التصريح بنبوته والتبشير به ، فإن هذه الكتب المنزلة هم معترفون بصدقها وصحتها ، وفيها ما يدفع إنكارهم لنبوته ، ويبطل تعنتاتهم وتعسفاتهم؟!

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَقالُوا : لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ : إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ ، وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ

يُتْلى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٥٠ ـ ٥١].

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

وقد ذكر هاهنا أعظم الآيات التي أعطيها ﷺ وهو القرآن وإلا فله ﷺ من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر.

وسيعترف المشركون يوم القيامة بأن القرآن آية بينة كما قال تعالى :

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ ، لَقالُوا : رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً ، فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى﴾ أي ولو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل بعثة هذا الرسول محمد ﷺ وإنزال هذا الكتاب العظيم ، لقالوا يوم القيامة : يا ربنا هلا كنت أرسلت إلينا رسولا في الدنيا ، حتى نتبع آياتك التي يأتي بها الرسول من قبل أن نذل بالعذاب في الدنيا ونخزى بدخول النار؟ والآية دليل على أن التكليف والعقاب لا يكون قبل مجيء الشرع.

والحق أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون ، لا يؤمنون ولو جاءتهم الآيات تترى ، كما قال تعالى : **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها ، قُلْ : إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ. وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ ، كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾** [الأنعام ٦ / ١٠٩ ـ ١١٠].

﴿قُلْ : كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ ، فَتَرَبَّصُوا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين كذبوك وخالفوك واستمروا على كفرهم وعنادهم : كل واحد منا ومنكم منتظر لما يؤول إليه الأمر ، فانتظروا أنتم ، فستعلمون عن قريب في عاقبة الأمر ، من هو على الطريق الحق المستقيم ، أنحن

أم أنتم؟ وستعلمون من المهتدي من الضلالة ، البعيد عن الغواية ، السائر على منهج الحق والرشاد؟

وهذا كقوله تعالى : ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٤٢] وقوله سبحانه : ﴿سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ [القمر ٥٤ / ٢٦].

والآية التي ختمت بها السورة مشتملة على وعيد وتهديد وزجر للكفار ، وهي مناسبة لبدء السورة المتضمن قيام النبي ﷺ بتبليغ رسالته حتى أتعب نفسه ، وما على أهل البلاغ إلا الطاعة ، فإن أطاعوا نجوا ، وإن أعرضوا هلكوا ، وسيتبين لهم الحق من الباطل ، وقد تبين لجماعات كثيرة من الكفار في التاريخ خطؤهم وسوء حالهم وعاقبة كفرهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ تكاثرت اقتراحات الكافرين من أهل مكة بأن يأتيهم محمد بآية تدل عيانا على الإيمان ، أو علامة ظاهرة حسا كالناقة والعصا ، أو آيات يقترحونها هم كما أتى الأنبياء من قبله.

٢ ـ كان الرد القرآني الحاسم عليهم أنه يكفيهم هذا القرآن العظيم المعجزة الخالدة ، وهو المهيمن على الكتب السماوية السابقة ، والمعبر عما كان فيها من عقائد وحكم وأحكام وآداب. بل إن تلك الكتب الماضية تضمنت العلامة الدالة على نبوة محمد ﷺ بما وجدوه في الكتب المتقدمة من البشارة.

٣ ـ لو أهلك الله الكفار قبل بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن ، لقالوا يوم القيامة : ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا ، حتى نتبع آياتك من قبل هذا الذل

بالعذاب في الدنيا والخزي بدخول النار؟! وكون القول يوم القيامة ؛ لأن الهالك لا يصح أن يقول ، ولذلك قال : ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى﴾ وهو لا يليق إلا بعذاب الآخرة. والآية دليل على أنه لا عقاب قبل الشرع.

٤ ـ هدد الله الكفار بما ينتظرهم من العذاب وما يؤول إليه أمرهم ، فإن كان كل فريق من المؤمنين والكافرين منتظرا دوائر الزمان ولمن يكون النصر ، فسيعلم الكفار أن النصر سيكون لمن اهتدى إلى دين الحق.

فهرس

الجزء السادس عشر

الموضوع الصفحة

تتمة قصة موسى مع الخضر ٥
قصة ذي القرنين ويأجوج ومأجوج ١٨
جزاء الكفار ٣٣
جزاء المؤمنين وسعة معلومات الله وتوحيده........................٣٩
سورة مريم ٤٦
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة........................٤٦
فضلها ٤٨
دعاء زكريا عليه السلام ٥١
إبتاء يحيى عليه السلام النبوة والحكم صبيا........................٦١
قصة يحيى عليه السلام ٦٢
قصة مريم........................٦٦
١ ـ حملها بعيسى عليه السلام........................٦٦
٢ ـ ولادة عيسى وما اقترن بها........................٧٤
٣ ـ نبوة عيسى ونطقه وهو طفل في المهد........................٨٠
أضواء على قصة عيسى عليه السلام ٨٩

الأناجيل ٩١
إنجيل برنابا ٩٢
رسالة عيسى ٩٢
الحواريون ٩٤
معجزات عيسى ٩٤
وفاة المسيح ٩٤
الثالوث عند النصارى ٩٥
قصة إبراهيم عليه السلام أو مناقشة لأبيه في عبادة الأصنام ١٠١
إسحاق عليه السلام ١٠٤
يعقوب عليه السلام ١٠٤
قصة موسى عليه السلام ١١٣
أضواء على قصة إسماعيل الذبيح ١١٧
إسماعيل وأمه هاجر في مكة ١١٩
بناء البيت ١٢٠
حياة إسماعيل وأولاده ١٢٠
قصة إدريس وأولاده ١٢٠
جملة صفات الأنبياء عليهم السلام ١٢٦
صفات خلف الأنبياء وجزاءهم وصفات النابين ومستحقي الجنة ١٢٩
تنزل الوحي بأمر الله تعالى ١٣٦
شبه المشركين في إنكار البعث ١٤١
شبهة أخرى للمشركين بحسن الحال في الدنيا ١٤٨
مقالة المشركين في البعث والحشر استهزاء وطعنا ١٥٥

الرد على عباد الأصنام بصيرورتهم لهم أعداء واتخاذهم الشياطين أولياء............ ١٥٨
الرد على من نسب الولد إلى الله تعالى ١٦٥
محبة المؤمنين وتيسير الذكر المبين وإهلاك المجرمين.............................. ١٦٩
سورة طه.. ١٧٤
التسمية ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة ١٧٤
القرآن سبب السعادة... ١٧٦
إسلام عمر ١٨٢
قصة موسى عليه السلام ١٨٥
١ ـ تكليم ربه إياه أو مناجاة موسى وابتداء الوحي إليه في الوادي المقدس ١٨٥
٢ ـ انقلاب عصا موسى حية (المعجزة الأولى) ١٩٥
٣ ـ اليد البيضاء (المعجزة الثانية).. ٢٠٠
٤ ـ نعم الله الثمان على موسى قبل النبوة ٢٠٦
٥ ـ التوجيهات لموسى وهارون في دعوة فرعون ٢١٣
٦ ـ الحوار بين فرعون وموسى حول الربوبية ٢٢٠
٧ ـ اتهام موسى بالسحر.. ٢٣٩
٨ ـ جمع فرعون السحرة وتحذير موسى لهم ٢٣٣
٩ ـ جمع فرعون السحرة وإعلان إيمانهم بالله تعالى................................ ٢٣٨
١٠ ـ إغراق فرعون وجنوده في البحر ونعم الله على بني إسرائيل.................... ٢٥٣
١١ ـ تكليم الله موسى في الميقات وفتنة السامري بصناعة العجل إلها ٢٥٩
١٢ ـ معاتبة موسى لهارون على تأليه العجل والقائه في البحر وتوحيد ٣٦٧
الإله الحق
لعبرة من القصص القرآني وجزاء المعرض عن القرآن ٢٧٨
أحوال الأرض والجبال والناس يوم القيامة.. ٢٨٣

عربية القرآن ووعيده التعجل بقراءته قبل إتمام الوحي........................ ٢٨٨
قصة آدم في الجنة وإخراجه منها وإلزامه بالهداية الربانية........................... ٢٩٢
الاعتبار بهلاك الأمم الماضية والصبر على أذى المشركين وعدم الالتفات.............. ٣٠٢
إلى متعهم وأمر الأهل بالصلاة
اقتراح المشركين الإتيان بمعجزة أو إرسال رسول وتهديدهم مجال المستقبل.............. ٣١٠